

ذو الحجة ١٣٦٥  نوفمبر ١٩٤٦

السنة الثانية مجلد ٤ — عدد ١٤

ما وراء النهر

لست أدرى أين وقعت أحداث هذه القصة ، ولكنى أقطع بأنها لم تقع فى مدينة القاهرة . فقد تتبعت شاطئ النيل كله فى هذه المدينة ، فلم أجد ربوة شديدة الارتفاع والاتساع ، يقوم عليها قصر فخم ضخم شاهق فى السماء ، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يظل ضروبا من النجم لا تعد ، وفنونا من الزهر لا تحصى . وهذه الربوة المرتفعة الواسعة تنحدر فى يسر إلى النهر ، كأنما تسعى للقائه ، أو كأنما تيسر للشجر والزهر السعى للقائه .

لم أجد على شاطئ النيل فى القاهرة هذه الربوة ولا شيئاً يشبهها ، ووجود هذه الربوة شرط أساسى لوقوع الأحداث التى تعرضها هذه القصة . فما أظنك تخالفنى فى أن ما يمس الإنسان من الأحداث وما يصور هذه الأحداث من قصص ، لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بحدوده وأوصافه . وقد وقعت أحداث هذه القصة فى مكان ، ما فى ذلك شك ، بل وقعت فى هذا المكان الذى وصفته وصفاً موجزا . وأكاد أعتقد أن هذا المكان نفسه هو الذى أنشأها ، وهو الذى ابتكر أحداثها ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث .

وقد علمنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التى يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية . ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو فى قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة ، لا على هذه الربوة المرتفعة التى تمتاز مما حولها من الأرض ، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور ، وتنحدر بشجرها

وزهرها فى سذاجة ويسر إلى النهر — أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث ، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب . فغرفات القصر وحجراته ، وأفنية القصر وأبهاؤه ، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية ، وهذه السلالم الكثيرة المختلفة ، وهذا الشجر المتكاثف الملتف ، وهذه النجوم المتقابلة المتدابرة ، وهذا الزهر المنسق المنمق ، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لوناً او ألواناً من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا فى سيرتهم ما يلائمه ، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله ، وبهذا القول أو ذاك من أقواله ، بحيث لم يكن بدٌّ من أن تحدث هذه الأحداث فى هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأمكنة ، وإلا لبطلت قواعد الفن ، ولفسد التاريخ الأدبى ، ولذهب الأدباء بإنتاجهم الأدبى كل مذهب وسلكوا به كل سبيل ، لا يخضعون لأصل من الأصول ، ولا يتقيدون بقانون من القوانين التى وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن

وإذن فلا بد لهذه القصة من ربوة عظيمة الارتفاع والاتساع ، ومن قصر شاهق ، وشجر باسق ، وزهر رائق ، ونجم شائق ، ونهر دافق يجرى من تحت هذا كله فى أناة حيناً وفى عنف حيناً آخر . فإذا فقد شىء من هذا ضاعت القصة . وما أظنك ترغب فى أن تضيع ؛ فأنت محتاج إليها لتنفق الوقت فى القراءة ، وأنا محتاج إليها لأنفق الوقت فى الإملاء ، والمجلة محتاجة إليها لتملأ عدداً من صفحاتها قليلا أو كثيرا . كل شىء يضطرنى إلى أن أملى ، وكل شىء يضطر المجلة إلى أن تنشر ، وكل شىء يضطرك إلى أن تقرأ ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن نقبل هذه الربوة وما فيها وما عليها لنمضى فيما يُسِّر له كل منا من الكتابة والنشر والقراءة . فلتكن هذه الربوة ما دام لا بدّ لها ولنا من أن تكون . ولكنها لا تستطيع أن توجد فى القاهرة لأن شاطئ القاهرة منبسط مستو ليس فيه نجاد ولا وهاد . فلو زعمنا أن الربوة قائمة فى هذا المكان أو ذاك من المدينة لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ويخاصمنا بالحقائق الواقعة ، ويضيع علينا القصة وما بذلنا فى كتابتها ونشرها وقراءتها من الجهود .

وأكاد أعتقد أن هذه الربوة لا توجد على شاطئ النيل فى مصر كلها. فلست أزعم أنى قد تتبعت الشاطئ المصرى كله على النيل، ولكنى لم أسمع قط عن ربوة كهذه الربوة، ولا عن قصر كهذا القصر. ولو قد وجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثر عنها الحديث فى كتب الخطط أولاً، وفى الصحف والمجلات ثانياً، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك؛ لأن جو مصر من الصفاء والنقاء بحيث لا يخفى شىء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمال كما تتكاثف على الآثار. وقصتنا لم تحدث فى العصر القديم، وإنما تزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جداً.

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة، توجد لتفنى، وتفنى لتوجد، تظهر اليوم لتستخفى غداً، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ويراها الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها. ولكنى أستبعد ذلك، لا لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربى وتفنى، وأن تظهر وتخفى، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة. ثم تمضى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس. وما دام الزمان يمضى فليس بأس من أن يمضى المكان كما يمضى الزمان. وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة، فمصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ويختلف علمهم بأصول الفن. وما أحب أن ينجم لى منهم قارئ أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة ويجادلون فيما لا معنى للجدال فيه.

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعلة أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان، وإنما هى أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان، لأنها تتصل بالأخلاق.

فأهل مصر كلهم أخيار أبرار، لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل، ولا يبغضون شيئاً كما يبغضون الجور، ولا يؤثرون شيئاً كما يؤثرون ذكاء القلب وصفاء النفس وطهارة الضمير، ولا يرفعون أنفسهم عن شىء كما يرفعونها عن

مقارفة الإثم ومصاحبة الفساد : ينأون عن السيئات أشد ما يكون النأى، ويتجافون عن الموبقات أشد مايكون التجافى ، وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه ؛ فلست ترى بينهم قويًّا يستذل ضعيفاً ، ولا غنيًّا يستذل فقيراً ، ولا ناعماً يستطيل على بائس ، ولا سعيداً يستخف بشقى . ولست ترى بينهم متعجلا للمنفعة ، ولا مؤجلا لعمل من أعمال البر ، ولا مضحياً بمصلحة الكافة فى سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون مواطنيه . ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة ، ويؤثر العاجلة على الآجلة ، ويتهالك على اللذات لا يصطنع فى سبيلها أناة ولا وقاراً ، ويقبل على الآثام لا يرى فى الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً ؛ لست ترى من بينهم أحداً يهم بشىء من ذلك أو يفكر فيه أو يصد نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلا أو كثيراً ، وإنما هم قوم فُطِروا على البر والاحسان ، ورُكّبت فى طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات ، وائتلفت أذواقهم من حب الجمال المادى والمعنوى ؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تتأذى به العيون ، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئز منه النفوس ، حياتهم الأولى فى هذه الدنيا مشاكلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين فى الجنة التى وعد الله عباده المتقين . وفى هذه القصة ، كما سترى ، شىء من ظلم وجور ، وشىء من استطالة واستعلاء ، وشىء من الاستئثار باللذات فى غير تحرج ، والإقدام على الآثام فى غير تحفظ ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه . فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة فى مصر ؛ لأن أحداثها منافرة أشد المنافرة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين فى عصورهم المختلفة وفى عصرهم هذا الحديث خاصة ؛ لأن الأخيار يمضون فى الخير كلما تقدم الزمان ، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة . وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء على تقدم الزمن طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة فى السماء إلا آماد قصار . وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية ، فانه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس لأنها لم تُقْدَرْ للناس فى حياتهم الدنيا .

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكانها لا يوجد فى أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون فى جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسى : أين وقعت أحداث هـذه القصة ؟ والحق أن الجواب على هذا السؤال ليس شاقا ولا عسيراً ؛ فما أكثر البلاد التى ترتفع فيها الربى على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الربى ! وإذا لم تكذبنى الذاكرة فان شاعراً من أصحاب الموشحات قد صوّر لنا ربى كثيرة فى أسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالحلى ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من لجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلقى عليها من الضوء وما يعكس عليها من الألوان ؛ فهى من فضـة حين يمتع النهار ، وهى من ذهب حين يترقرق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دلّنا على مكان هذه الربوة الرائعة التى يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنـقلْ إذن إنها فى أسبانيا . وأنت تعرف أن أسبانيا هى البلد الذى يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ومن القصور المطاوعة التى ترتفع فى السماء وتتسع فى الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتى تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانقباض ، والتى تندك وتنهار وتصبح أطلالاً باليـة حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشد عليها هذا الشعر الذى أنشده النابغة على طلله القديم :

يادار ميـة بالعليـاء فالسنـد ... أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيـلالاً أسائلها ... عَيَتْ جواباً وما بالربع من أحد

ربوتنا إذن فى أسبانيا ، قد أشرفت على نهر من أنهارها ، وانحدرت إليه كما قلت فى سهولة ويسر ، واتخذت لنفسها من الشجر والزهر تاجاً رائعاً بارع الجمال ، واتخذت لتاجها هـذا الرائع البارع من ذلك القصر الشامخ الباذخ الأنيق درة نادرة المثال منقطعة النظير ، تستطيع أن تلتمس لها اسما بين هذه الدرر الكثيرة التى يأتلف منها كتاب العقـد الفريد لذلك الكاتب الشاعر الأندلسى العظيم .

ولكننى لم أصف الربوة حق وصفها ولم أصورها كما ينبغى لها أن تصور. فأنت لا تحسن الوصف والتصوير لشىء من الأشياء إلا إذا وصلت به ملحقاته التى تكمله وتعطيه صورته النهائية، إن أتيح لشىء من الأشياء فى هذه الحياة أن يظفر بصورته النهائية فى يوم من الأيام. ولهذه الربوة ملحق لا يمكن إهماله لأن إهماله يخل بنظام القصة إخلالا خطيراً. فالجمال لا يستقيم إلا إذا جاوره القبح، والنعيم لا يكمل إلا إذا جاوره الجحيم. وما ينبغى أن تحتج على بنعيم الجنة وجمالها؛ فنعيم الجنة وجمالها لا يستقيمان إلا إذا كان بازائهما قبح جهنم، وما يَصْلَى الخاطئون فيها من نار الجحيم.

لا بد إذن من أن أتم تصوير الربوة بشىء من الحديث عن هذا الملحق الذى لا يستقيم أمرها بدونه. وهذا الملحق قرية تقوم على السهل المنبسط مما يلى الربوة، وهى بعيدة الأرجاء، مترامية الأطراف قبيحة المنظر إلى أقصى غايات القبح، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع فى الجو إلا قليلا، لم تتخذ من الحجر ولا من الآجر ولا من اللبن، وإنما اتخذت من الطين قد صنع صناعة غليظة خشنة، وأسند بعضه إلى بعض وأقيم بعضه على بعض، فائتلفت منه بيوت كانت تريد أن تكون جحوراً تتخذ فى باطن الأرض، ولكن أهلها لم يجدوا من القوة ولا من الجهد ولا من المال ما يمكنهم من احتفار الجحور فى الأرض، فآثروا أيسر الأمرين واتخذوا دورهم من هذا الطين المهمل الغليظ.

وقد قامت هذه القرية البائسة، فى هذا السهل المنبسط، على شاطئ النهر الجميل، وإلى جانب الربوة الرائعة، ليعلم الناس وليعلم النهر أيضاً، وليشهد النهار المشرق والليل المظلم، وليسجل التاريخ الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها. أن الحياة مزاج من الخير والشر، ومن النعيم والبؤس، ومن الجمال والقبح، ومن السعادة والشقاء وأن تمايز الأشياء وتفاوت الأحياء أصل من أصول الوجود. فلولا الفقر ما كان الغنى، ولولا البؤس ما كان النعيم، ولولا الانخفاض ما كان الارتفاع، ولولا الضيق ما كانت السعة.

ولست فى حاجة إلى أن أفصل ما تمتاز به الربوة من جمال، وما تمتاز به القرية من قبح. فقد لا يكون من الخير ولا من الذوق ولا من حسن الرعاية للقراء أن أستأثر وحدى بهذا الوصف؛ فأنا لم أستأثر بالخيال من دون القراء، بل أنا قد أكون أقل الناس حظاً من الخيال وقدرة

على الوصف وبراعة في الأداء . ولم يخلق الله أديباً يستطيع أن يستأثر وحده بوصف مايعرض على قرائه من الأشياء والأحياء ؛ فهذا الوصف شركة دائماً بين الأديب المنتج والقارئ المستهلك . وليس من المحقق أن الأشياء التى يعرضها الأدباء تقع فى نفوس القراء كما يعرضونها عليهم ، وإنما الشئ الذى ليس فيه شك هو أن القراء يشاركون فى الخلق والإنشاء ، ويسبغون من ذات أنفسهم على ما يجلو لهم الكتاب من صور ألواناً لعل الكتاب أنفسهم لم يروها ، ولعلها لم تخطر لهم على بال . فهذه الربوة التى تحدثت عنها ، وهذه القرية التى أشرت إليها ، تقعان من نفوس القراء على اختلافهم مواقع مختلفة متباينة ، لعلها لا تلتقى ولا تتشابه إلا فى القليل . فالإنتاج الأدبى إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الأديب فى حقيقة الأمر إلا رائداً يمهد الطريق . وما ينبغى للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التى تثير فيهم الغرور وتغريهم بالكبرياء . والذى أريد أن أصل إليه هو أنى أعتمد على القراء فى أن يُعمِل كل منهم خياله ما وجد إلى إعماله سبيلا ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع ما يكون الجمال ، وهذه القرية قبيحة كأبشع ما يكون القبح ، وألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات غناء . فهذه القصة لا تحتمل القراءة السلبية ، وإنما هى تريد ، بل هى لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملأ ما بين الخطوط من فراغ لعله تُرِك عن إرادة وعمد

ولعل القارئ يظن ، وهو معذور إن ظن ، أن هذا الحديث قد طال وأسرف فى الطول قبل أن يصل إلى أول هذه القصة ؛ فكتّابنا قد عودوا القراء أن يهيئوا لهم الأدب كما يهيأ لهم الطعام ؛ فليس على القراء إلا أن يقرأوا ويسيغوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم ليس عليه إلا أن يجلس إلى مائدة الطعام فى مواعيد موقوتة ليمضغ ويسيغ .

أما أنا فلا أحب هذا اللون من الطهى الأدبى ؛ لأنى أكبر نفسى وأكره أن أكون خادماً للقراء من جهة ، ولأنى أكبر القراء ، وأكره أن تكون آذانهم أفواهاً وعقولهم بطوناً يلقى إليهم الكلام فيسمعون ثم يسيغون !. لا أحب شيئاً من هذا ، وإنما أحب أن أنشئ بينى وبين القراء نوعاً من

الزمالة ، بحيث نبدأ القصة معا ، ونمضى فيها معا ، وننتهى منها معا ، نتفق أحيانا ونختلف أحيانا أخرى ، ويشجر بيننا الخصام من حين إلى حين .

وقد كدنا نصل إلى أول القصة إن كنا لم نخط فيها خطوات واسعة فيما أعتقد . فليست القصة حكاية للأحداث وسرداً للوقائع كما استقر على ذلك عرف النقاد والكتاب ، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف ، وما يتتابع فيها من الأحداث . وإذا كان الأمر كذلك وهو عندى كذلك ، فنحن قد بدأنا القصة منذ الكلمة الأولى من هذا الحديث . وعلى كل حال فليس بيننا وبين الأخذ فى عرض الحوادث إلا شىء واحد ، وهو أن نتبين الصلة بين القرية الملقاة على السهل والربوة المشرفة على النهر . وهذه الصلة قريبة كل القرب ، يسيرة كل اليسر ، ليست بعيدة ولا عسيرة كالصلة بين القصر وقريته فى قصة الكاتب المعروف كفكا Kafka لأنى لا أصطنع فى حديثى رمزاً ولا إيماء ، وإنما أصطنع الصراحة التى تؤثر الجلاء وتكره الغموض . والذين قرأوا قصة القصر لهذا الكاتب ذى الصوت البعيد يعرفون أن قصره إنما هو رمز للعالم العلوى ، وأن قريته إنما هى رمز للعالم السفلى ، ومن هنا تعقدت الصلة بين هذين العالمين . أما ربوتى أنا فهى ربوة من هذه الربى التى يراها الناس فى كل يوم ويقرءون عنها فى كل كتاب من كتب الأدب ، وليس أدل على ذلك من أنى قد استعرتها من ذلك الشاعر الأندلسى القديم . وأما قصرى أنا فهو قصر من هذه القصور التى يشهدها الناس حين يصبحون وحين يمسون ، قد بنى من المادة التى تبنى منها القصور ، وأثث بالأثاث الذى تزدهى به القصور ، وأترف أهله كما تعوّد الناس أن يترفوا فى هذه الحياة التى نحياها ، وفى هذا العصر الذى نعيش فيه . فمن أيسر الأشياء أن يهبط رجل من أهل القصر إلى القرية ، ليس عليه فى ذلك إلا أن يمضى أمامه حتى يقرب من شاطىء النهر ، ثم ينعطف إلى يمين فيرى أمامه طريقين إحداهما ممهدة تمهيداً حسناً كأنها أعدت لصعود السيارات وانحدارها ، والأخرى ممهدة تمهيداً مقارباً ضيقة بعض الضيق ، ولكنها أقصر من الأخرى ، وهى الطريق التى يسلكها الراجلون ، وقد يرى فيها الفرسان الذين يمتطون الخيل . وكذلك يستطيع الرجل من أهل القرية أن يرقى إلى هذا القصر على قمة الربوة سالكا الطريق

الأولى إن أراد التيسير على نفسه بالسعى الهين والرقى السهل ، وإن أراد كذلك أن يلهو بما يلقى فى طريقه من هذه السيارات الصاعدة الهابطة بمن فيها من السادة والقادة والغادات الحسان . وسالكا إن شاء الطريق الأخرى إذا لم يشفق من التصعيد العسير الملتوى ، وإذا كان حريصاً بنوع خاص على أن يبلغ القصر فى أقصر وقت ممكن وفى غير تلكؤ أو إبطاء . هذه هى الصلة المادية بين الربوة والقرية ، وهى كما ترى قريبة ميسرة . فأما الصلة المعنوية فأشد من الصلة المادية قرباً وأعظم منها يسرا ، هى صلة السادة بالخدم ، أو صلة الخدم بالسادة لا أكثر ولا أقل . وما ينبغى أن تظن أن أهل القرية جميعاً خدم يعملون فى القصر يرقون إليه مع الصبح ويهبطون منه مع الليل ؛ فأهل القرية ليسوا من هذه الخدمة فى شىء ، بل هم لا يرقون إلى القصر إلا قليلا ، وهم حين يرقون إليه لا يبلغونه فضلا عن أن يدخلوه ، وإنما يبلغون مكاتب الدائرة التى ألحقت به ، فيتصلون بهذا الموظف أو ذاك لما يمكن أن يكون بينهم وبين هذا الموظف من عمل . هم خدم للقصر على هذا النحو الذى تعرفه والذى تراه فى كل مكان يقوم فيه قصر فخم وتنبسط فيه أرض زراعية يملكها أصحاب القصر ، ويعيش من حوله قوم يعملون فى هذه الأرض ويعيشون مما يعملون . فجزء عظيم من السهل المنبسط فى أسفل الربوة ملك لسادة القصر ، وأهل هذه القرية هم الفلاحون الذين يزرعون هذه الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم . يقدمون إليهم كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يساقط منها هنا وهناك وعلى ما يتفضل به عليهم سادتهم من الفتات . لا يملكون شيئاً ، وليس لهم أمل فى أن يملكوا شيئاً ، لا يكادون يملكون أنفسهم ، وليس لهم أمل فى أن يستقلوا بملك أنفسهم . هم أحرار فى ظاهر الأمر يذهبون ويجيئون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق فى حقيقة الأمر لأنهم لا يذهبون إلا إلى حيث يعملون ، ولا يجيئون إلا إلى حيث ينامون ، ولأنهم يَطْعَمون ما أريد لهم أن يطعموا لا ما يريدون هم أن يطعموا . ولعلهم لا يريدون أن يطعموا إلا ما يسر لهم ؛ لأنهم لا يعرفون غير ما يُسِّرَ لهم ، ولا يستطيعون أن يطعموا فيما لا علم لهم به . ولأنهم بعد ذلك لا يستطيعون أن يتصرفوا فى شىء لأنهم لا يجدون شيئاً ، ولا يطمعون فى أن يجدوا شيئاً يمكن أن يتصرفوا فيه . هم أحرار

كالعبيد، وعبيد كالأحرار، ليسوا راضين ولا ساخطين؛ لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط، وإنما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم إرادة سادتهم فى القصر. ويجب أن نعترف بأن هؤلاء السادة قساة القلوب غلاظ الأكباد، يؤثرون أنفسهم بكل شئ، ولا ينزلون لغيرهم عن شئ؛ ولأجل هذا قلنا إنهم لا يمكن أن يكونوا من المصريين.

وقد آن للحوادث أن تحدث، وللقصة أن تأخذ طريقها إلى الوجود إن لم تكن قد أخذته من قبل. وأول ما نشهده من حوادث القصة منظر هذا الشاعر الذى نيّف على الستين ولكنه احتفظ بقوة توشك أن تكون قوة الشباب، وهو على ذلك يتكلف الشيخوخة ويتصنع الضعف حين يراه سادة القصر، وهو لا يمشى إلا متوكئا على عصا يسرف فى الانحناء عليها إذا رآه الناس، فإذا خلا إلى نفسه اعتدلت قامته واستقام قده، ونظر إلى ما حوله معجباً تياها. وقد تعوّد صاحب القصر الذى سنعرفه بعد قليل أن يراه منحنياً يمشى على ثلاث، كما كان يقول أبو الهول فى سؤاله لأوديب فكان كل ما رآه أنشد متضاحكا ساخراً قول جرير:

وتقول بوزع قد دببت على العصا ... هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

ونحن نرى هذا الشاعر الشاب الشيخ وقد خرج من الجناح الذى يقيم فيه عن يمين القصر، وسعى منحدراً فى بطء وتمهل يريد أن يبلغ المجلس الذى تعوّد أن يلقى فيه صاحب القصر فى جوسق جميل على شاطئ النهر، ولكنه يلقى فى طريقه شيخاً لاحظ له من قوة ولا من شباب وهو البستانى عثمان الذى يقول له فى صوته المتهالك المحطم: «فى المكتب، يا سيدى فى المكتب! إنه لم يخرج اليوم من مكتبه ولم يهبط إلى الحديقة، ولم يقف عند أزهاره التى تعوّد أن يطيل الوقوف عندها». قال الشاعر الشيخ الشاب: «عِمْ صباحاً يا عثمان، فى المكتب! ماذا سيصنع سيدك فى المكتب أيمكن أن يعيش الناس تحت السقوف وبين الجدران حين تصفو السماء وتتألق الشمس وتَزَيّن الأرض ويتهادى النهر على هذا النحو! دعه فى المكتب؟ يا عثمان ولا تؤذنه بمكانى إلا أن يسألك، ولكن أرسل إلىّ القهوة، أرسل إلىّ قدحين لا قدحاً واحدا، وقف على إبراهيم حتى يتقنها، فأنت تعرف القهوة التى أحب». قال عثمان: «طاعة ياسيدى! ولكنى

رأيت مولاى عابسا هذا الصباح كما لم أره قط » . قال الشاعر : « عابسا ! عابسا ! لقد أدركه بعض الخبل ، إنه يعبس والدنيا باسمة ، ويحبس نفسه وكل شيء يدعوه إلى أن ينعم بهذا الجمال . دعه محبوساً عبوساً ، وأرسل إلىّ قهوتى ولا تنبئه بحضرى إلا أن يسألك . »

ثم مضى أمامه منحنياً على عصاه مستأنيا متمهلا حتى بلغ الجوسق فجلس إلى المائدة ونشر أمامه أوراقا وأخذ بيده قلما وجعل يطيل النظر إلى النهر كأنما كان يستمليه ثم يكتب متباطئا على ما بين يديه من الأوراق .

طه حسين

[يتبع]

فى أفق السياسة العالمية

بين روسيا والولايات المتحدة

ليس فى العالم كله بلاد كروسيا والولايات المتحدة بينها أوجه الشبه كما تعددت أوجه الخلاف ، وتوافرت فيها أسباب الاتفاق كما توافرت عوامل النفرة والجفاء . وأنت لو ألقيت إلى الكرة الأرضية بنظرة فاحصة لكشفت لك عن وجود مساحتين شاسعتين متقابلتين من اليابسة ، إحداهما فى نصف الكرة الشرقى ، والثانية فى النصف الغربى ، وفى كل منهما تقوم حكومة مركزية واحدة تجمع بين شتات هذه الأرجاء الواسعة ، وتشرف على نظامها العام ومواصلاتها ودفاعها وعلاقاتها مع سائر الأمم . أما فى نصف الكرة الشرقى أو العالم القديم فتقوم حكومة اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية ، ومساحتها تزيد على ثمانية ملايين من الأميال المربعة ، ويبلغ عدد سكانها ١٨٠ مليون من الأنفس . وأما فى نصف الكرة الغربى أو العالم الجديد فتقوم حكومة الولايات المتحدة بأمريكا ، ومساحتها تزيد على ثلاثة ملايين من الأميال المربعة ، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٣٠ مليون من الأنفس ، ولا يفوقهما فى العالم كله إلا بلاد الهند والصين ، وذلك من حيث عدد السكان فحسب . وروسيا والولايات المتحدة كلتاهما تخترقها أنهار عظيمة تنساب بين سهول خصبة مترامية الأطراف ، كثيرة الخيرات ، موفورة المحصولات ، وفيها مراع ممتدة وهضاب وأودية وسلاسل من الجبال يستخرج من ظاهرها وباطنها معادن مختلفة ، وفى مقدمتها زيت البترول ومنه تنتج الولايات المتحدة ٦٤ ٪ من محصول العالم ، وتليها روسيا إذ تنتج منه ١٢ ٪ ولعظم مساحتهما تعتبر كل منها قارة قائمة بنفسها فى عزلة عن غيرها ؛ فروسيا فى عزلة برية شبه جليدية تبدأ من البحر البلطى فى غرب أوربا وتنتهى عند ساحل المحيط الهادى الشمالى شرق روسيا . وأما عزلة الولايات المتحدة فعزلة بحرية ، إذ يكتنفها المحيط الاطلنطى من الناحية الشرقية ، والمحيط الهادى من الناحية الغربية .

وكما تغلبت الولايات المتحدة على وصل أبعاد الفيافى السحيقة بإنشاء السكك الحديدية بين المحيطين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، كذلك ربطت روسيا بين غربها وشرقها بإنشاء خط سيبريا الحديدى فى أوائل القرن العشرين. ولكن بينما كان إنشاء السكك الحديدية فى الولايات المتحدة مقدمة لتعمير أراضيها وزيادة إنتاجها وإشاعة الرغد والرخاء فى ربوعها ، كان امتداد السكك الحديدية فى روسيا شرقا عابراً سيبريا نذير شؤم على الأهالى ؛ إذ أصبح العمل فى إنشاء السكك الحديدية واستغلال المناجم والعمل فى المصانع الواقعة قربها تكليفاً شاقاً ينوء به عادةً المجرمون والمسخرون من رقيق الأراضى ومئات الألوف من السياسيين والمفكرين الأحرار والاشتراكيين الذين نالهم سخط الحكومة فكان نصيبهم النفى إلى تلك البقاع ، يعيشون فى صحراء من الجليد لا فكاك منها وليس فيها أثر من آثار الرحمة الانسانية ، فكانوا يموتون ضحية الجوع والمرض والقسوة واليأس.

وليس فى كل هذا أمر يدعو إلى العجب والدهشة ، إذا عرفنا أن الروس كافة قد ظلوا مستعبدين قرونا طويلة ، يتحكم فيهم الأشراف ويسومونهم سوء العذاب ، ويعيشون ملتصقين بالأرض كالسائمة أو كالعبيد. وظل هذا شأنهم إلى أن أصدر القيصر إسكندر الثانى سنة ١٨٦١ قانونا يحررهم من عبوديتهم. ومنذ ذلك التاريخ أخذت الأجيال الناشئة تتنسم نسيم الحرية والكرامة الإنسانية ، وحملت مشاعل الثورة ومعاولها التى قوضت أخيراً حكومة القياصرة. ولذلك كان الروس قبل هذا التاريخ فى عزلة عن غرب أوربا ، فلم يتأثروا كما تأثرت شعوب غربى أوربا بحركة النهضة أو بالثورة الفرنسية وما تبعها من أحداث وثورات ، ولم تمسسهم حركات الإصلاح الدينية التى انبعثت من روما وألمانيا وسويسرا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. لذلك بقى الحكم فى روسيا طوال هذه القرون حكما أتوقراطيًا بحتاً بالغاً منتهى الشدة والقسوة ، وظل الشعب يرسف فى أغلال جهله وفقره المدقع إلى أن قامت الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧.

ولا نستثنى من ذلك الفترة التى اعتلى فيها العرش القيصر إسكندر الأول ، الذى كان قوام المحالفة الأوربية بين سنة ١٨١٢ و ١٨١٥ ، وهى المحالفة التى قضت على نابليون بونابرت. وقد بدا للناس حينذاك أن القيصر يريد أن يبدأ عهداً جديداً من الحرية وحكم القانون ، لا فى روسيا وحدها بل فى إقليم بولندة كذلك

التى اقتسمتها روسيا والنمسا وبروسيا ومحوها قبيل نهاية القرن الثامن عشر من الوجود السياسى ؛ فإن هذه الفترة لم تظل إلا سنوات قليلة لم يلبث بعدها إسكندر أن انحاز إلى جانب سياسة مترنخ الرجعية ، وسرعان ما صارت روسيا سوط العذاب يلهب به مترنخ ظهور الأحرار أينما وجدوا حتى لو كانوا فى أمريكا من وراء المحيط . فقد قامت فى سنة ١٨٢٢ ثورة فى أسبانيا على مليكها فرديننه السابع ، ومنها انتقلت إلى مستعمراتها فى جنوب أمريكا ، فما كان من إسكندر قيصر روسيا إلا أن تقدم يريد إرسال قواته تعبر أوربا لقمع الثورة لا فى أسبانيا فحسب ، بل فى المستعمرات أيضاً إذا اقتضت الحال . وكان من الطبيعى فى ذلك الوقت أن تعترض فرنسا وانجلترا على هذا الدور الدكتاتورى الرجعى الذى أراد القيصر تمثيله على مسرح السياسة الدولية ، فقرر مؤتمر الدول الذى انعقد فى فيرونا أن يعهد إلى فرنسا ، وهى أقرب الدول إليها ، بقمع الثورة . وفى ذلك الحين خشيت انجلترا والولايات المتحدة ، وكانت لهما فى المستعمرات الأسبانية مصالح تجارية حيوية أن يمتد أثر قرار فيرونا إلى أمريكا ، فقام چيمس منرو Monroe رئيس الولايات المتحدة فى ديسمبر سنة ١٨٢٣ فأعلن تصريحه الشهير الذى قامت على مبادئه من بعد سياسة أمريكا الخارجية . وينص ذلك التصريح على أن الأقاليم الأمريكية لم تعد مجالا للتدخل أو للاستعمار الأوربى ، وأن أى تدخل من جانب أية دولة أوربية تعتبره الولايات المتحدة عملا عدائياً موجها ضدها . وأعقب ذلك اعتراف كاننج وزير خارجية انجلترا باستقلال المستعمرات الأسبانية سنة ١٨٢٤ ومنذ ذلك الوقت أصبحت شؤون الجمهوريات الأمريكية من اختصاص الولايات المتحدة دون غيرها من سائر الدول .

وبذلك استطاع شعب الولايات المتحدة أن يصون استقلاله وحرياته ، بل أن يقف فوق ذلك حارسا على حريات الشعوب الأمريكية وضامنا لاستقلالها جميعا . وحدث ذلك فى وقت كان فيه الشعب الروسى يرسف فى أغلال عبوديته وجهله وفقره . وليس بغريب أن يصل شعب الولايات المتحدة إلى هذه الدرجة من النضج السياسى ، وإلى هذه المكانة بين الدول ، إذا عرفنا أنه وريث الفضائل والصفات التى ميزت المهاجرين الأول من أحرار الانجليز والهولنديين والفرنسيين الذين أبت عليهم نفوسهم الأبية أن يقيموا على الضيم والاضطهاد الدينى فى أووبا فهاجروا أول ما هاجروا من انجلترا فى سنة ١٦٢٠ تحملهم

سفينة « ميفلور » إلى الساحل الشرقى من الولايات المتحدة حيث أقاموا حكوماتهم على أساس من الحرية والمساواة والعمل لصالح المجموع ، حتى إذا رأوا من جانب حكومة الأم فى انجلترا عنتاً وتشبثا بحقوق لا تستند إلا على القوة لم يترددوا فى إعلان الثورة عليها وحمل السلاح ضدها ، وسرعان ما قامت حرب الاستقلال الأمريكى التى انتهت سنة ١٧٨٣ ؛ وانتهزت دول أوربا المنافسة لانجلترا هذه الفرصة فأعلنت حيدتها المسلحة ضد انجلترا ، حتى لا تستغل انجلترا تفوقها البحرى فى مناوأة تجارتهم مع أمريكا. وكانت روسيا إلى جانب الحيدة المسلحة ضد انجلترا ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تمقت الثوار ومبدأ الثورة ، فلم تشأ أن يكون بينها وبين الولايات الثائرة بعد استقلالها صلات أو روابط من أى نوع كانت ، واستمرت كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين استقبل إسكندر الثانى أول ممثل للولايات المتحدة فى سنة ١٨٠٩ وعقدت أول معاهدة تجارية بين البلدين فى سنة ١٨٣٢ .

ولما قامت الحرب الأهلية بين ولايات الجنوب وولايات الشمال ، وكان أهل الجنوب يريدون أن ينفصلوا عن الولايات الشمالية ، حتى لا يتعرض اقتصادهم الزراعى والاجتماعى القائم على استخدام الرقيق لأى خطر من ناحية الرئيس لنكولن وولايات الشمال الصناعية، كانت انجلترا وفرنسا تناصران حركة الجنوب الانفصالية ، حتى لا تقوى الولايات المتحدة وتصبح يوما دولة كبيرة منافسة . ومن عجب أن تكون روسيا حينذاك إلى جانب الولايات المتحدة مع أنها لم تكن تربطها بالولايات المتحدة أية رابطة من الجنس أو الدين أو الثقافة ، بل كانت روسيا تعتبر إذ ذلك مباءة الحكم الرجعى الاوتقراطى ، كما كانت الولايات المتحدة الشمالية تمثل أكثر المبادئ حرية وتسامحا وإنسانية

وقد أبدى إسكندر الثانى قيصر روسيا من الاهتمام بقضية الولايات المتحدة ما جعله يسارع بإرسال جزء من أسطوله يرسو فى ميناء نيويورك وسان فرنسسكو ، وأعلن فى صراحة أن بقاء الولايات المتحدة دولة مستقلة متماسكة أمر لا بد منه لصيانة السلم بين الدول . وكان هذا الموقف من أهم الأسباب التى دعت انجلترا وفرنسا إلى العدول عن موقفها العدائى نحو الولايات الشمالية .

ولما سئل القيصر إسكندر عن سبب وقوفه هذا الموقف من النزاع

الأمريكى أجاب بأنه إنما فعل ذلك خدمة لصالح روسيا لا حباً فى الولايات المتحدة .

فقد كان التنافس بين روسيا وبريطانيا شديداً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكانت روسيا حديثة عهد بخروجها منهزمة أمام انجلترا وحليفاتها فى حرب القرم ، فأرادت روسيا أن تثأر لنفسها ، فتعمل على تقوية الولايات المتحدة لعلها أن تنمو يوما فتتفوق على بريطانيا ، وعلى ذلك ينفسح المجال أمام روسيا فى آسيا وفى البحر المتوسط . وتحقيقاً لهذا الغرض لم تجد روسيا مانعاً من النزول للولايات المتحدة عن أرض شبه جزيرة ألسكا شمالى كندا فى سنة ١٨٦٧ مقابل مبلغ ضئيل دفعته أمريكا ، حتى لا تسيطر على مضيق بهرنج دولة أجنبية .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى كان وجود روسيا إلى جانب انجلترا وحلفائها من الأسباب التى جعلت حكومة الولايات المتحدة تتردد طويلا قبل تصديق ما أعلنه الحلفاء من أغراضهم فى دخول الحرب ؛ إذ لم يكن معقولا حينذاك أن تشترك حكومة روسيا القيصرية فى نصرة المبادئ الديمقراطية واحترام حريات الشعوب وحكومتها إذ ذاك فى أسفل درك من الفساد والطغيان . وفعلا لم تشترك الولايات المتحدة فى الحرب إلا بعد أن اشتعلت نار الثورة البلشفية الكبرى فى روسيا ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم إنما يريدون السلام ولا مطمع لهم فى أرض أو مال للغير ، وعلى ذلك سرعان ما عقدت مع ألمانيا معاهدة برست ليتوفسك فى مارس سنة ١٩١٨ أى قبل انهزام ألمانيا النهائى بشهور قليلة .

ومنذ ذلك اليوم انطوت روسيا على نفسها ، وأخذ الثوار يكافحون فى سبيل توطيد دعائم الثورة ودرء خطر القوات الرجعية التى كان الحلفاء يؤازرونها ويمدونها بالمال والرجال ، حتى ملئت روسيا على دول الغرب سخطا وغلاً وحفيظة ؛ ولم تجد أمامها إذ ذاك إلا دول الشرق الناشئة كتركيا وإيران وأفغانستان فأوثقت معها روابط الصداقة وعدم الاعتداء ، وأقامت بينها وبين دول الغرب أو أقاموا بينهم وبينها ستاراً كثيفاً جعلها بمعزل عن العالم الغربى .

وكانت الولايات المتحدة أشد هذه الشعوب مقتاً لحكومة الثوار فى روسيا ، وأكثرها رغبة فى تجنب الاتصال بها . فبينما عملت انجلترا وفرنسا على

إنشاء علاقات تجارية بينها وبين روسيا أسوة بما سبقت إليه ألمانيا فى سنة ١٩٢٢ بمقتضى معاهدة راپاللو ، فإن الولايات المتحدة ظلت جامدة فى موقفها أزاء روسيا ، كارهة أن يكون بينها وبين البلاشفة أية صلة مهما كان بعدها عن السياسة . وقد استاء شعب الولايات المتحدة من الثوار فى روسيا حين تنكروا للدين المسيحى ، وأنكروا الديون التى كانت لأمريكا على الحكومة القيصرية ، وحين أقاموا نظام الثورة على أساس من الغدر والتقتيل والتشريد إلى درجة أفزعت الشعوب الغربية ، ولأنهم لم يقتصروا على تنفيذ مبادىء ثورتهم فى بلادهم بل عملوا سرًّا وعلانية على نشر هذه المبادىء ومحاولة تنفيذها فى البلاد الأجنبية الأخرى ، يريدون أن تعم الثورة الشيوعية العالم كله ويكون لموسكو الأمر كله على الناس جميعا .

ولما أصبح الأمر فى روسيا بيد ستالين بعد موت لينين فى سنة ١٩٢٤ دخلت روسيا فى طور جديد من حياتها السياسية ؛ إذ لم يكن ستالين من قادة الفكر النظريين الذين درسوا فى جامعات أوربا واطلعوا على آراء الغرب وكتبهم ، بل كان رجلا حربيا عمليا يعتبر حقائق الواقع ، فلم يشأ أن يضحى بمصلحة روسيا فى سبيل تحقيق ماقصد إليه ماركس ولينين وتروتسكى من تعميم الثورة الشيوعية فى العالم بطريق العنف والقوة ، وصمم ستالين على تركيز جهود الثورة فى روسيا أولاً بإنهاضها صناعيًّا وثقافيًّا ، وتطهيرها تدريجاً من عناصر الشيوعية العالمية . ومن حسن طالع ستالين أن أوربا كانت تجنى فى هذه الفترة أحسن ثمار عصبة الأمم ؛ إذ دخلت ألمانيا العصبة فى سنة ١٩٢٦ وسادت بلاد العالم موجة من حب السلام جعلت روسيا تشترك من صميم قلبها فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر تخفيف التسلح الذى انعقد فى جنيف ١٩٣٢ مع أنها لم تكن عضواً فى العصبة إذذاك ، وقد كان صوت مندوبها لتڤينوف أقوى صوت ارتفع فى المؤتمر منادياً بوحدة السلام فى العالم ، وبتخفيف التسلح بل ونزعه تماما فى مدى سنوات قليلة .

ولما لم يفد مؤتمر نزع السلاح شيئاً وباءت عصبة الأمم بالخيبة ، تنبهت روسيا إلى موقفها إزاء الدول ، وأدركت أنها إنما تقف وحدها فى عزلة حربية وسياسية عن دول العالم ، وأيقنت أن مسابقة التسلح بين الدول ستعود حتما إلى أشد مما كانت عليه فى الماضى ، وأن مصير الثورة فى روسيا قد أصبح معرضا للضياع إذا لم تنهض بسد حاجاتها الحربية والصناعية بنفسها . وعلى ذلك بدأ ستالين سنة

١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس الشهير مرة بعد مرة ، حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية ؛ إذ تحولت روسيا إلى بلاد صناعية تنتج كل ما تحتاج إليه حربيا واقتصاديا ، وذلك إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وحركة عمرانية ثقافية أصبحت مضرب المثل فى مداها وكفايتها ، وأصبح ستالين صاحب هذه النهضة الكبرى ومبدعها معبود القوم وملاذهم الأعلى فى السلم وفى الحرب .

وفى هذه الأثناء كان قد ولى رياسة الولايات المتحدة رئيس حصيف واسع الأفق شديد الإيمان بالمبادئ الديمقراطية والأهداف الإنسانية العامة ، فهاله أن تكون بين أمريكا وروسيا تلك الهوة السحيقة من الجفاء وعدم الثقة مما أضاع على الولايات المتحدة الاتصال بأعظم دول أوربا قوة وسكانا وأفسحهم مستقبلا ، فقرر أن الوقت قد حان لاتصال الشعبين تحقيقاً لمصلحتهما السياسية والاقتصادية . وكانت الحركة النازية قد اشتدت فى ألمانيا ، وأصبح هتلر يهدد روسيا من جهة ودول الغرب من جهة أخرى ، كما أصبحت اليابان بعد احتلالها منشوريا تهدد مصالح الولايات المتحدة كما تهدد مصالح روسيا فى الشرق الأقصى . وكانت كل من روسيا والولايات المتحدة فى عزلة سياسية خارجة عن مدار عصبة الأمم ؛ وعلى ذلك سرعان ما تقاربت مصالح البلدين ، فاستقبل الرئيس روزفلت سفير روسيا لتفينوف فى سنة ١٩٣٣ ، وأرسلت الولايات المتحدة سفيرها مستر ديفيس سنة ١٩٣٧ وإليه يرجع الفضل فى تنوير أذهان الشعب الأمريكى بشأن النهضة البلشفية . وكانت روسيا قد اشتركت فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ وارتبطت بأواصر المودة مع الدول الديمقراطية عندما قامت أزمة الحبشة ورفع هتلر القناع عن مطامعه . واستمرت العلاقات ودية بين البلدين حتى أتم هتلر لعبته السياسية الكبرى سنة ١٩٣٩ إذ مازال بستالين حتى جعله يعقد مع ألمانيا معاهدة عدم الاعتداء ويهمل مساعى انجلترا وفرنسا فى هذا السبيل . فعاد الشعب الأمريكى يسخط على زعماء روسيا ويتهمهم بكل نقيصة . وزاد من سخطهم هجوم روسيا على دول البلطيق وغزوها دولة فنلندة الصغيرة ، وتأكد لأمريكا أن حصول هتلر على ما يحتاج إليه من زيت البترول من روسيا سيساعد ألمانيا على المضى فى عدوانها ضد الدول الديمقراطية ؛ وعلى ذلك توترت العلاقات بين البلدين ، وظلت كذلك حتى كشف هتلر عن نياته ضد روسيا ، حينئذ استفاق

الروس إلى منظر عجب حقاً ؛ فقد كانوا موقنين أن الدول الديمقراطية سيرضيها حتماً أن ينقلب الوحش الألماني على روسيا فيفترسها ويزيح عن العالم كابوس البلشفية ، وإذا بهذه الدول تمد يدها إلى روسيا لتتعاون معها على درء الخطر الألماني الذي بدأه هتلر سنة ١٩٤١ ، وسارع تشرشل وروزفلت إلى إرسال مندوبيهما إلى روسيا للاتفاق معها على خطة العمل ولم تمض إلا شهور قليلة بعد هجوم هتلر على روسيا حتى سطت اليابان على ميناء بيرل ، ودخلت الولايات المتحدة الحرب بعد مضى ستة أشهر على الهجوم الروسى . وقد أفادت روسيا من قانون الإعارة والتأجير الذى أصدرته الولايات المتحدة أيما فائدة ، فكانت ترد إليها المؤن والطيارات والمدافع والدبابات سالكة أحياناً طريق إيران وخليج العجم ، وأحياناً عابرة المحيط المتجمد الشمالى . وسرعان ما ظهرت معجزة روسيا الحربية ؛ فبينما كان النقاد وثقات الحربيين يتوقعون هزيمة روسيا فى مدى لا يزيد على ستة أشهر ، إذا بروسيا تقف وقفتها الشهيرة عند أبواب موسكو فى ستالينجراد أمام أكبر وأضخم قوة حربية تحركت على سطح الأرض منذ الخليقة ، فتصدها صداً باسلا عنيفاً . ثم ما لبث الدفاع أن تحول إلى هجوم كاسح انتهى إلى النصر بفضل الصلابة التى اكتسبها الجند من الرجل «الصلب» الذى يقودهم ، وبفضل المعونة التى تلقتها روسيا من الحلفاء وخاصة أمريكا ، وأخيراً بفضل الإنتاج الحربى المتزايد المتصل الذى كان ينبعث من المصانع الروسية المستورة فى بطون الكهوف والوهاد وراء جبال الأورال التى اعتصم بها الروس عند ما أوغل الأعداء فى داخل بلادهم .

ولما لاحت بشائر النصر عقب ارتداد الألمان عن ستالينجراد فى الشمال وتراجعهم فى شمال إفريقية بعد موقعة العلمين ، بدأ الحلفاء يفكرون فى تبادل الآراء بشأن مشاكل السلم وتنسيق الخطط الحربية الختامية فى مؤتمرات دورية عقدوها أولاً فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ ثم فى القاهرة حيث اتفقوا على صورة قهر اليابان وحرمانها فى النهاية من كل الأراضى التى ضمتها إليها منذ الحرب العالمية الأولى ، وفى مقدمتها منشوريا وجزر المحيط الهادى . ولما اجتمع مؤتمر الحلفاء فى طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ عقب مؤتمر القاهرة سنحت الفرصة لأول مرة لتقابل العاهلين العظيمين روزفلت وستالين . وفى هذا المؤتمر

أكد الحلفاء تصميمهم على العمل فى الحرب وفى السلم الذى يعقب النصر .

وقد تأيد هذا التصميم فى مؤتمر القرم الذى انعقد فى فبراير سنة ١٩٤٥ بحضور العاهلين وتشرشل ووزراء الخارجية ، وفيه قرروا إنشاء هيئة الأمم المتحدة لحفظ السلام وتأمين العالم ضد الحرب .

وأخيراً انتهت الحرب وخرجت منها روسيا وهى عالمة تمام العلم أن النصر قد رفعها فوق دول أوربا جميعاً ، وأن من حقها أن تتقاضى ثمن النصر كما تقاضته منذ أكثر من قرن عقب انكسار نابليون بونابرت سنة ١٨١٤ ، وقد كانت لروسيا يومئذ الزعامة بين الحلفاء الذين قاوموا نابليون وهزموه . ومع أن الحلفاء كانوا قد أعلنوا فى أكثر من مناسبة أنهم لا يرومون من الحرب الأخيرة أن يكسبوا لأنفسهم فوائد إقليمية ، فإن روسيا لم تتردد فى ضم جمهوريات البلطيق السابقة إليها (عدا فنلنده) رافضة حتى أن تتفاوض بشأنها ، كما ضمت جزءاً من بولندة الشرقية ، وتمسكت ببساربيا وبكوفينا من رومانيا وسوّغت عملها فى نظر الناس بأن كثرة السكان تنتمى إلى روسيا ، وأيدت ذلك باستفتاء شعبي قام به رجالها .

وزيادة على ذلك أرادت روسيا أن تكون لها الزعامة فى شرق أوربا ، وهيأ لها احتلالها المنطقة الشرقية من ألمانيا أن تزعم أن من حقها أن يكون طريقها فى البلقان ودول الدانوب مأمون الجانب موصول الأطراف بالاتحاد السوفيتى .

وكما عملت الولايات المتحدة قبل الحرب على توطيد مركزها بين جمهوريات أمريكا بإنشاء اتحاد الجامعة الأمريكية ، كذلك تريد روسيا اليوم أن تكون لها الزعامة بين شعوب البلقان السلافية ، وأن تجعل من هذه الأقاليم منطقة نفوذ خاصة بها . وكان من الحتم أن تجر هذه السياسة إلى الاحتكاك بتركيا واليونان ، وإلى معارضة الدول الديمقراطية الكبرى ولها فى مضايق الدردنيل وفى اليونان وجزر بحر إيجة مصالح استراتيجية واقتصادية لا يستهان بها .

أما بينها وبين الولايات المتحدة ذاتها فليست هناك مطامع إقليمية تدعو إلى النزاع ، فروسيا دولة برية ؛ وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا دولة بحرية جوية لا ناقة لهما فى أوربا ولا جمل ، ولكنها سياسة تأمين الحدود التى نادت بها روسيا وحملتها على أن تمد أخطبوطها غرباً وجنوباً وشرقاً ، حتى باتت تهدد الكتلة الاتلنطيقية من جهة والولايات المتحدة والصين من جهة أخرى .

ومن سوء حظ روسيا أنها آمنت بمبدأ التكتل فى الوقت الذى تهيأ فيه العالم

قبول فكرة الاتحاد العالمى أو الاتحاد الأوربى على الأقل . فبينما أمريكا
بريطانيا تبذلان غاية الجهد فى إقامة هيئة الأمم المتحدة وتوطيد أركانها ،
رى روسيا تعمل جاهدة على تكتيل أوربا بل والعالم كله إلى كتلتين
رقية وغربية .

وعلى هذا الأساس تركزت الآراء والمناقشات فى اللجان والمؤتمرات الدولية
ا جعل الأهداف التى ترمى إليها هيئة الأمم المتحدة تتضاءل وتتخاذل أمام
لحدة الناشئة من هذا الانقسام أو التكتل ؛ حتى قالوا إن روسيا قد تورطت
ورطا فى الموافقة على إنشاء هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ؛ إذ لا يعقل أن
عمل روسيا البلشفية على إعادة بناء العالم وإقرار السلام بين الشعوب وهى التى
نادى رسلها وأبواقها بضرورة الثورة العالمية حتى يزول النظام الرأسمالى عن
جه البسيطة . ويظهر أن زوال ألمانيا من الوجود الدولى قد طمأن روسيا
لأول مرة فى تاريخها الحديث من جهة حدودها الشرقية اذ لم يبق ظل من
شك فى أن قواتها البرية فى أوربا تفوق قوات الدول الديمقراطية جميعها . وعلى
لك لم تعد لها فائدة حربية ترجى من وراء أمريكا ، كما أصبحت أمريكا بعد
زوال اليابان من الوجود الدولى فى الشرق الأقصى تخشى تفوق روسيا فى
نطقة المحيط الهادى الشمالية ، وقد كانت الولايات المتحدة قبل هذه الحرب
 حاجة قصوى إلى صداقة روسيا لتحد من خطر اليابان .

من هذا نستطيع أن ندرك طائفة من الأسباب التى جعلت الجفاء يحل بين
روسيا وحلفائها القدامى محل الوئام الذى ساد بينهم فى أثناء الحرب . وكان هذا
الجفاء أول بادرة من بوادر الإخفاق للسلم الجديدة وأخوف ما تخافه الناس أن
يكون إخفاق السلام مقدمة الاستعداد للحرب الثالثة .

محمد رفعت

دستور فرنسا الجديد

يكاد يكون تقليداً من تقاليد الحكم فى فرنسا أن يحمل نظام الحكم القائم أوزار الكوارث التى تحل فى الميادين العسكرية وفى الميادين الاجتماعية على السواء . ولعل الحكمة فى ذلك أن الفرنسى يزاوج بسهولة بين العضو والوظيفة فيفرض التضامن بين العهد والقوامين عليه . فلما غلبت فرنسا على أمرها فى ميادين القتال فى أوائل صيف سنة ١٩٤٠ حكم العارفون لفرنسا على الجمهورية الثالثة بالزوال ، وانتظروا أن يلجأ الفرنسيون بعد أن يستعيدوا سلطانهم إلى شكل جديد من أشكال الحكم .

ولم يلبث الفرنسيون منذ استرداد حريتهم أن وجهوا همهم الأول لمعالجة نظامهم السياسى ، ولكن لمعالجته فى هوادة واعتدال . فلم يقبلوه « ملكية » أو « إمبراطورية » بل أبقوه « جمهورية » ، الشعب فيها مصدر السلطات جميعاً ، وتولوا دعم سياجها عن طريق تعديل الدستور تعديلا يقضى على أسباب الضعف الذى عرّض فرنسا لما عرضها له من تخاذل وتدهور .

وعهد بوضع مشروع الدستور الجديد لجمعية تأسيسية انتخبت انتخاباً عاماً ، على أن تعرضه على الشعب فى استفتاء يقر قبوله أو رفضه . وانتخبت الجمعية التأسيسية ووضعت مشروع الدستور وعرضته على الشعب فى الاستفتاء ، فأسفر الاستفتاء عن رفضه . فأجريت انتخابات جديدة لجمعية تأسيسية جديدة ، وضعت مشروع دستور جديد ، وعرضته على الشعب فى استفتاء جديد جرى يوم الأحد الثالث عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٤٦ فأسفر عن قبوله بكثرة ٩,٢٠٠,٤٦٧ صوت يقابلها ٧,٧٩٠,٦٧٦ صوت رفضه أصحابها ، على حين لم يتقدم للاستفتاء ٧,٧٧٦,٨٩٣ شخص . ويريد بعض المعقبين أن يفسر بلوغ الممتنعين هذا العدد الهائل بموقف المعارضة الذى وقفه الجنرال ديجول من المشروع ، والفرنسيون يعترفون للجنرال

ديجول بجميل موقفه طوال مدة الحرب ، ولا يريدون أن يظهروه خلال الاستفتاء بمظهر المبتعد عن رأيه ، فآثر ثلثهم الإيسام في الاستفتاء حتى لا يعاون قبولهم الدستور الجديد في إظهاره ذلك المظهر . وكان الجنرال ديجول يوجه معارضته إلى السلطات الضيقة التي يمنحها المشروع الجديد رئيس الجمهورية ، فهو يريدها له واسعة قوية تقر سلطان الحكم . لكن معارضته قد أضعفها ما هو معروف من رغبته في أن يتولى هو رياسة الجمهورية ، إذ ساعد هذا على ن يمزج الفرنسي العادي بين الرغبة في الإصلاح والإفادة من تحقيق هذه الرغبة .

أما الدستور الجديد فمؤلف من ديباجة واثني عشر باباً . أما الديباجة فقد تضمنت المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الجماعة الفرنسية الجديدة ، وأما الاثنا عشر باباً فقد تضمنت أحكام مؤسسات الجمهورية من سيادة وبرلمان ومجلس اقتصادي ، ومعاهدات دبلوماسية ، ورئيس جمهورية ، ومجلس وزراء ، ومسئولية جنائية للوزراء ، واتحاد فرنسي ، ومجلس قضاء أعلى ، وجماعات إقليمية ، وتعديل للدستور ، وأحكام انتقالية .

وقد كرست الديباجة حقوق الإنسان المعلنة في سنة ١٧٨٩ والمقررة في مختلف قوانين الجمهورية ، كما أثبتت حقوقاً جديدة تقتضيها ظروف الوجود الحديث « لكل كائن بشرى دون تمييز راجع للجنس أو الدين أو العقيدة » : فضمنت للمرأة مساواتها بالرجل في جميع الميادين ، وأنه يمنح حق الالتجاء إلى أراضي الجمهورية كل مضطهد بسبب عمله في سبيل الحرية ، ويفرض على كل شخص واجب العمل مع منحه حق الحصول عليه ، كما تصان حقوقه ومصالحه النقابية وبينها حرية اختيار نقابته ، ويقرر استعمال « حق الإضراب » في حدود القانون المنظم له ، واشتراك كل عامل بواسطة مندوبيه في تحديد شرائط العمل وفي إدارة المنشآت ، ويقرر انتقال كل منشأة لها صفة الخدمة العامة القومية أولها صفة الاحتكار إلى ملك من الأملاك العامة .

وكذلك نصت الديباجة على تحقيق وسائل التقدم للفرد وللأسرة : فتضمن الأمة للأفراد جميعاً ، ولاسيما الأطفال والأمهات والعمال المسنين ، الصحة والأمان المادي والراحة والفراغ ، كما تضمن المعرفة والثقافة والتكوين

المهنى للصغار والكبار بحيث يعتبر تنظيم التعليم العام مجاناً ومدنيا فى جميع درجاته واجباً من واجبات الدولة .

واعلن فى الديباجة تعهد الجمهورية الفرنسية ألاتلجأ إلى حرب هجومية، وأن تتضامن مع الهيئات الدولية فى بذل جهودها فى سبيل حفظ السلم والأمن فى ربوع العالم ، كما أنها تقيم اتحاداً بين الأمم والشعوب التى تتألف منها ، وتدفع بهذه الأمم والشعوب جميعاً إلى حكم نفسها بنفسها فى حرية وأنظمة ديموقراطية .

ويتميز الدستور الفرنسى الجديد بأن نص فى مادته الأولى على صفات الجمهورية فقال إنها : «مدنية ديموقراطية اجتماعية» إلى جانب كونها «لاتجزأ» ، فكرس جهود الجمهوريين الأحرار فى سبيل فصل الكنيسة عن الدولة وما أصدروه من قوانين جبارة ، وجارى التيار الحديث بخص الناحية الاجتماعية بالذكر ضمن عناصر الدولة الأساسية . واحتفظ فى مادته الثانية بما أصبح ملازما لاسم « فرنسا » ملازمة طبيعية وهو نشيد « المارسييز » نشيداً قوميا ، وعبارات « الحرية والإخاء والمساواة » رمزاً للجمهورية ، و « حكومة الشعب للشعب وبالشعب » و « السيادة القومية ملك للشعب الفرنسى » أصلا أساسيًا للحكم .

أما البرلمان فقد أقر الدستور الجديد تأليفه من مجلسين — على خلاف ما كان قد استساغه المشروع السابق الذى رفضه الاستفتاء الأول من قصره على مجلس واحد — لكنه حد من سلطان المجلس الأعلى على خلاف ما كان لمجلس الشيوخ القديم . وقد غيّر الدستور الجديد تسمية مجلسى البرلمان ، فدعا أولهما « الجمعية الوطنية » بدل مجلس النواب ، ودعا ثانيهما « مجلس الجمهورية » بدل مجلس الشيوخ . وتقوم « الجمعية الوطنية » على مبدأ الانتخاب العام المباشر ، وينبعث مجلس الجمهورية عن انتخاب عام غير مباشر عن طريق وحدات النواحى والمقاطعات . ويتناسب عدد أعضاء الجمعية الوطنية مع عدد السكان ، لكن عدد أعضاء مجلس الجمهورية لا يجوز أن يقل عن مائتين وخمسين ولا أن يزيد على ثلثمائة وعشرين ، وعلى أنه يجوز للجمعية الوطنية أن تنتخب هى أعضاء تبعث بهم إلى مجلس الجمهورية بشرط ألا يزيد عددهم على سدس عدد أعضائها المنتخبين بالانتخاب العام .

ومن المبادئ الطريفة التي جاء بها الدستور الفرنسي الجديد تحديد الوقت الذي تقف فيه أعمال البرلمان، فجعل مجموعه غير متجاوز الأربعة الأشهر بما فيها تأجيلات الجلسات إلى مدة أطول من عشرة أيام. ومنها أنه في فترة عدم انعقاد الجمعية الوطنية لعطلة أو ما شابهها تنتقل رقابة أعمال الوزارة إلى مكتب الجمعية الوطنية الذي يكون له حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع بناء على طلب ثلث أعضاء الجمعية أو بناء على طلب رئيس مجلس الوزراء.

ولرئيس مجلس الوزراء وأعضاء البرلمان جميعاً حق المبادأة باقتراح القوانين. وتودع اقتراحات أعضاء الجمعية الوطنية مكتب هذه الجمعية، كما تودع اقتراحات أعضاء مجلس الجمهورية مكتب هذا المجلس. وترسل اقتراحات أعضاء الجمعية الوطنية إلى لجانها المختصة لنظرها قبل المناقشة فيها. لكن اقتراحات أعضاء مجلس الجمهورية، يجب أن تبلغ لمكتب الجمعية الوطنية قبل أن ترسل إلى أية لجنة من لجانه وقبل أن تجرى عليها أية مناقشة فيه، بل يكون درسها في الجمعية الوطنية قبل كل شيء. ولا يقبل مكتب الجمعية ما يكون منطويا منها على تخفيض للإيرادات أو زيادة في النفقات.

أما دور مجلس الجمهورية في العمل التشريعي فمحصور في « إبداء رأيه » في المشروعات التي انتهت الجمعية الوطنية من تلاوتها التلاوة الاولى، ويجب أن يبدى رأيه في بحر الشهرين المنقضيين من تاريخ إحالة الجمعية الوطنية مشروعها إليه على الأكثر، إلا إذا قررت الجمعية نظر المشروع على وجه الاستعجال، وإلا في حالة قانون ربط الميزانية الذي يجب إبداء الرأي فيه بحيث لا تعوق مدته الجمعية الوطنية عن سرعة النظر فيه.

فإذا جاء الرأي الذي أبداه مجلس الجمهورية موافقاً للرأي الذي بدا خلال التلاوة الأولى في الجمعية الوطنية أو إذا لم يجيء الرد في حدود المدة المقررة فإن القانون يصدر حسب النص الذي انتهت إليه الجمعية. أما إذا جاء الرأي مخالفا لهذا النص فإن تعديلات مجلس الجمهورية هي التي تنظرها الجمعية الوطنية في تلاوتها الثانية وتقرر بشأنها ما تشاء، ويصدر القانون بما تقرره بكثرة الأصوات

وقد خص الدستور الفرنسي الجديد « المجلس الاقتصادي » بالذكر بين أحكامه. وهو مجلس سينظم قانون خاص طريقة تأليفه، ولكنه مختص بحكم

الدستور بالنظر — لإبداء الرأى — فى المسائل التى تحيلها إليه الجمعية الوطنية قبل الانتهاء من التصويت عليها ، وكذلك فى المسائل التى يطلب إليه مجلس الوزراء بحثها . على أنه يجب أن يؤخذ رأيه فى المشروعات الاقتصادية القومية التى يكون موضوعها استخدام الأفراد فى عموم أو استخدام مصادر الثروة المادية .

وقد وقف الدستور الفرنسى الجديد عند حدود النظام البرلمانى ولم يتجاوزه إلى النظام التمثيلى كما هو الحال فى الولايات المتحدة ، فأبقى انتخاب رئيس الجمهورية من اختصاص البرلمان لا عن طريق انتخابات عامة .

وكذلك أبقى مدة انتخابه محددة بالسبع السنوات القديمة ، وحرم عدم إعادة انتخابه إلا لمرة واحدة ثانية . كما أبقى تقليد رياسته لاجتماعات مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الأعلى ومجلس القضاء الأعلى . وأوجب وقف رئيس الجمهورية على تطورات المفاوضات الدولية ، ولقبه برئيس الجيوش ، وخصه بالتوقيع والمصادقة على المعاهدات ، وحق العفو يصدر فى نطاق مجلس القضاء ، وحق إصدار القوانين فى حدوده المقررة بالدستور ، وحق تعيين القواد وأصحاب المناصب الكبيرة فى نطاق مجلس الوزراء .

أما مجلس الوزراء فقد أبقى الدستور الجديد اختيار رئيسه من اختصاص رئيس الجمهورية « بعد إجراء الاستشارات » . لكنه جاء بجديد فى صدد تعيين ذلك الرئيس وزملائه الوزراء . فرئيس الجمهورية بعد إجراء الاستشارات يختار رئيس مجلس الوزراء . ورئيس مجلس الوزراء يختار كذلك زملاءه الوزراء ، ويضع « برنامج وسياسة المجلس الذى يعتزم تأليفه » ، ثم يتقدم ببيان هذا البرنامج وهذه السياسة للجمعية الوطنية ، فتناقشها الجمعية . فإذا أقرتهما كثرتها المطلقة صدر أمر رئيس الجمهورية بتعيين رئيس مجلس الوزراء والوزراء .

وقرر الدستور الجديد المسئولية الوزارية أمام الجمعية الوطنية وحدها دون تقريرها أمام مجلس الجمهورية على خلاف ما كان مقرراً فى الدستور القديم من مسئولية أمام مجلس النواب وأمام مجلس الشيوخ ، وإن كان العمل قد جرى على المسئولية أمام النواب وحدهم أو غالبا . وكذلك نظم الدستور الجديد أمر عرض الثقة على الجمعية الوطنية ، بأن جعله معلقا على مناقشته فى مجلس الوزراء وتقريره ،

وبأن جعل رئيس مجلس الوزراء وحده هو صاحب حق العرض على الجمعية الوطنية بعد تلك المناقشة وذلك القرار . وعلى أن يكون تصويت الجمعية الوطنية على أمر الثقة غير جائز إلا بعد مضى يوم كامل على عرضه ، وأن يكون بإبداء الرأى علنا . ولا ترفض الثقة بالوزارة إلا بالكثرة المطلقة لأعضاء الجمعية الوطنية جميعاً لا بكثرة الحاضرين منهم وحدهم . وكذلك الحال من حيث المدة الفاصلة ومن حيث الكثرة المطلقة بالنسبة لاقتراح بعدم الثقة يتقدم به عضو من أعضاء الجمعية الوطنية .

وإذا وقعت أزمتان وزاريتان فى بحر ثمانية عشر شهراً متوالية فإن لمجلس الوزارة أن يقرر حل الجمعية الوطنية بعد أخذ رأى رئيس هذه الجمعية .

وفى هذه الأحكام الجديدة التى جاء بها الدستور الجديد دعم لسلطان الحكم واستقراره ، وقضاء على تلك السرعة الهائلة التى كانت تتداول بها الوزارات الحكم فى فرنسا حتى أصبحت مضرب الأمثال .

ولعل جديداً آخر أتى به الدستور الفرنسى يجدر تسجيله ولفت الأنظار إليه ، وهو النظام الذى ابتكره للعلاقة بين فرنسا « الأم » والأقاليم التابعة لها فيما وراء البحار . وهو النظام الذى يخلق ما سمى « الاتحاد الفرنسى » مؤلفا من « الجمهورية الفرنسية » التى تشمل فرنسا الإقليمية والمقاطعات والأقاليم فيما وراء البحار من ناحية ، وأقاليم « الدول المشتركة » من ناحية ثانية .

وتقضى المادة الثانية والستون من الدستور الجديد بأن « أعضاء الاتحاد الفرنسى » يشاركون بكامل وسائلهم لضمان الدفاع عن مجموع الاتحاد . وتقوم حكومة الجمهورية بتنسيق هذه الوسائل وإدارة السياسة الخاصة بإعداد وتحقيق ذلك الدفاع .

ورئيس الجمهورية الفرنسية هو رئيس الاتحاد الفرنسى الذى يمثل مصالحه الدائمة . وللاتحاد مجلس عال يرأسه رئيس الاتحاد ، ويؤلف من مندوبين عن الحكومة الفرنسية ومندوبين عن كل دولة من « الدول المشتركة » ، ويختص بمعاونة الحكومة فى الإدارة العامة لشؤون الاتحاد .

وللاتحاد إلى جانب رئيسه وإلى جانب مجلسه جمعية مؤلف نصفها من أعضاء ممثلين لفرنسا الأصيلة ، ونصفها الثانى من أعضاء ممثلين للمقاطعات والأقاليم

فيما وراء البحار والدول المشتركة . على أن يجيء ممثلو فرنسا الأصيلة عن طريق انتخاب ثلثيهم بواسطة الجمعية الوطنية وثلثهم الباقى بواسطة مجلس الجمهورية ، وأن يجيء ممثلو المقاطعات والأقاليم فيما وراء البحار عن طريق انتخاب جمعياتهم النيابية الإقليمية . أما ممثلو الدول المشتركة فيحدد قانون خاص تصدره كل دولة منها شرائط اختيارهم وحدود اختصاصاتهم . ويدعو رئيس الجمهورية إلى اجتماع تلك الجمعية ، ويفض دور انعقادها ، ولا يصح اجتماعها أثناء فترات العطلة البرلمانية الفرنسية .

وتختص جمعية الاتحاد الفرنسى بالنظر فى المشروعات والمقترحات التى تعرض عليها لإبداء الرأى عن طريق الجمعية الوطنية أو حكومة الجمهورية الفرنسية أو حكومات الدول المشتركة . ولها أن تنظر فيما يعرضه عليها عضو من أعضائها ، على أن يبلغ مكتبها قراراتها فى هذا الشأن إلى الجمعية الوطنية كما أن لها أن تقدم مقترحات من قبلها للحكومة الفرنسية وللمجلس الأعلى للاتحاد الفرنسى ، على أن يكون ذلك كله متصلا بتشريع من التشريعات الخاصة بأقاليم ما وراء البحار ، وهى فى الأصل ملك لأنظمتها المحلية فيما عدا القوانين الجنائية والحريات العامة والتنظيم السياسى والإدارى ، وهذا من اختصاص البرلمان الفرنسى وحده .

وعلى رأس كل إقليم أو مجموعة أقاليم فيما وراء البحار ممثل للجمهورية الفرنسية هو رأس الإدارة فيها ومسئول عن أعماله لدى حكومة الجمهورية . على أن إدارة المصالح العامة فيها موكول بها إلى هيئة نيابية منتخبة . ولجميع التابعين لتلك الأقاليم صفة المواطنين التى يتمتع بها الفرنسيون الأصيلون فى فرنسا وفى أقاليم ما وراء البحار ، على أن قوانين خاصة ستحدد شرائط استعمالهم حقوق المواطن ، وهم على كل حال متساوون فى التمتع بالحقوق والحريات التى تكفلها ديباجة الدستور الجديد ، وإن كان لمن لم يكن قانون أحواله الشخصية هو القانون الفرنسى أن يحتفظ باتباع قانونه الخاص دون أن ينقص هذا الاحتفاظ حقا أو حرية متصلا بصفة المواطن الفرنسى .

وفى هذه الأحكام الجديدة محاولة الربط بين أجزاء فرنسا والبلاد الخاضعة لنفوذها بنوع من الرباط غير ذلك الذى يرجع إلى اعتبار الاستعمار

التقليدى ، ولا سيما ما كان متعلقاً فى ذلك كله بقيود الأحوال الشخصية والتمييز بين « المواطن » و « الرعية » ، وخص الأنظمة النيابية بأقاليم دون أخرى ، وعدم سريان مبادئ الحريات العامة عليها جميعاً .

ذلك تقديم للدستور الفرنسى الجديد فى مبادئه العامة وطرائقه الجديدة . وسيكون من أثر إقرار الأمة الفرنسية إياه فى استفتائها يوم الأحد الثالث عشر من أكتوبر أن تجرى انتخابات عامة جديدة فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر المقبل ، وأن يجتمع البرلمان فى اليوم الثامن والعشرين منه ؛ إذ يبدأ عهد الجمهورية الرابعة فيتطلع العالم كله إليها وإلى تعاليمها كما اعتاد أن يتطلع دائماً إلى فرنسا وتعاليمها .

محمود عزمى

كيف طارت منى أكسفورد

تركت دارى منقبض النفس تملكنى حيرة ... علىّ أن أدبّج الساعة مقالاً أشغل به المكان المخصص لى فى الصحيفة الأسبوعية التى أعمل بها ، وكنت أحس كأن رأسى قد أجدب ، وأن جعبتى قد خوت ... وسرت فى الطريق قاصداً مقر الصحيفة ، وأنا أتمثل رئيس التحرير ومساعديه ، كأنهم زبانية ينتظرون مقدمى ليلقوا بى فى قاع جهنم ... ومررت عفواً بـ « بار الفؤاد » ملتقى الطبقة الراقية من سراة أمس الدابر ، والطبقة غير الراقية من أثرياء الحرب المحدثين ... فتلكأت أتطلع إلى الوجوه فإذا بى أتبين بينها وجه صديقى عاطف بك فألفيت قدمىّ تقودانني إليه ، فلما رآنى هش لى وبش ، ودعانى إلى مجلسه ، فقلت وأنا أهزّ يده محييا :

سأمكث معك لحظات قليلة أستمتع فيها بك ، فإنى مرتبط بموعد لا بد لى من المضى إليه .

فقرّب منى مقعداً ، وقال :

— اجلس نثرثر وقتاً ، ونعرف ما عندك من جديد الأخبار .

وسرعان ما طلب إلى غلام الحانة أن يحضر لى كأساً من الويسكى ... وبعد هنيهة وجدت عاطف بك يقدم لى شخصاً عن كثب منه قائلا :

— سعادة عبد المولى بك السيوطى .

فانتبهت ، فألفيت شخصاً ضخم الجثة ، سمين الرقبة كأنها جذع شجرة ، يتناثر شاربه على جوانب فمه غزيراً مهوشاً كأنه الحسك الشائك . فأما وجهه فكان مفرطحاً قانى الحمرة يمثل فى ملامحه الشوهاء أحد تلك الوجوه المفزّعة التى تتخذ فى محافل التنكر .

وسمعت صديقى يقدمنى إليه قائلا :

— أخونا الأستاذ غندور ، صحفى كبير ...

فما كاد يبلغ سمع جليسنا السيوطى كلمة « صحفى » حتى تقلقلت أركانه فى مجلسه ، ورمق صديقى بنظرةٍ نكراء ، وصاح مُغضباً متحشرج الصوت :

— ألم أحرّم عليك أن تعرّفنى بهذا الصّنف من مخلوقات الله ؟

فتضاحك الصديق ملء شدقيه ، وقال :

— أخونا غندور صحفى حقّاً ، ولكنه ليس طويل اللسان !

فصحت على الأثر :

— كيف واللسان بِضاعتى ورأس مالى ؟

وأقبلت على السيوطى الثائر أقول :

— إنى أضع خبرتى رهن مشيئتك !

فلملم السيوطى أنحاء جسمه على مقعده وانفرجت أساريره شيئاً ، وقال فى غمغمة :

— يغنينا الله عن خدماتك .

وقَدِمَ غلام الحانة بالويسكى ، فجرعت من الكأس جرعة وافية وأنا أقول للسيوطى :

— على أية حال لا أتأخر عن خدمتك عند الحاجة . . . واطمئن الآن ، فلن تضيقَ بمجلسى طويلا . . . لقد أزِف موعدى .

وتناولت الكأس فجرعت منه أيضاً ، وأحسست نزعة إلى معاتبة وجيه أسيوط ، باتخاذ تلك اللجاجة الأصلية فى نفوسنا نحن رعايا صاحبة الجلالة الصحافة ، فواجهته بابتسامة مصنوعة ، وقلت :

— سعادة البك يكره الصحفيين .

فتجشأ بقوله :

— أكرههم كراهة الموت !

— أليس ثمة من سبب ؟

— بسبب أو بلاسبب . . . إنى أكرههم لله فى الله . . . أنا حرٌ فيما احب وما أكره !

— إنى صحفى ويحق لى أن أعرفَ سببَ كرهك لزملائى فى المهنة . . . ربما استطعت تحويلك عن رأيك .

— هيهات !

وملأ من قِنّينة البراندى أمامه كأساً ، فقذف فى فمه بما فيها دفعة واحدة ، وراح يمسح شاربه المنتفش ، ويبذل جهد الطاقة فى إخضاع شُعَبه الشائكة . ثم ملأ كأساً أخرى قذف بما فيها كما فعل بالكأس الأولى ، فازداد احتقان ذلك الوجه الشائه ، واتقدت جذوتا عينيه . ورأيت صديقى عاطف بك يضرب كَتِفَ السيوطى مداعباً وهو يقول فى إلحاح :

— ناشدتك الله إلا أخبرتنا لِمَ تكره رجال الصحافة ؟

فتراخى وجيه أسيوط على كرسيه ، فأحسست كأن ضخامته تفيض متدفقة على جوانب المَقْعَد ، وقال فى غير مبالاة :

— إنها لحادثة قديمة وقعتْ منذ خمسة وعشرين عاماً ، فى أعقاب الحرب العالمية السابقة . . .

فقلت له وأنا أنظر إلى الكأس متشاغلا بما فى قرارتها :

— لقد مضتْ حِقبة طويلة تغير فيها كل شئ يا سعادة البك حتى الصحفيون . . . إن طراز سنة ١٩٢٠ قد حل محله الآن طراز أرقى وأحسن . . . أهم مايمتاز به طراز سنة ١٩٤٦ هو السرعة والأمانة ، وحفظ العهد ، وصيانة الأسرار .

وانتفش شاربُ السيوطى ، فأخذ يقرض أطرافه بأسنانه الصفراء النخرة . وقال :

— أتقول حقًّا ؟ إن صديقى الصحفى الذى وقعتْ لى معه تلك الواقعة لم يكن حائزاً لأية صفة من هذه الصفات التى تذكرها الآن . . . لا حيَّا الله ذكراه !

فقال له صديقى عاطف بك :

— بالله عليك أخبرنا ، ماذا كان موقف هذا الصحفى منك ؟ . . .

والتفت إلىّ قائلا :

— إن عبد المولى بك محدث خلاب الحديث ساحر الدُّعابة سلس الكلام ، قلّ ان يكون له فى هذا الباب نظير . . .

فتضاحك وجيه أسيوط تضاحكا اهتز له كرشُه وتَرَجَّح . ثم ملأ من قِنّينَةِ البراندى كأسه ، وصبها فى فمه ، ثم تمكّن فى مجلسه ، وقال فى تعالٍ وهو يمطّ ألفاظه مطّا :

— إليكما قصتى . . . وإنى أدع لك أيها الصحفى أن تحكم على زميلك بما يمليه عليك ضميرك . . .

كنت وقتئـذ طالباً فى مدرسة المروءة الثانوية بالقاهرة أعيش فى «مَثْوى « پنسيون » عيشاً هادئاً لا غبار عليه . وكان والدى يعيش فى أسـيوط يدير أعماله وأملاكه . وقد وعدنى إذا نلت الشهادة الثانوية وحسن سـلوكى أن يرسـلنى إلى أكسفورد لإتمام دراستى هنالك ، فحَرَصْت على أن أنال رضاه لأحقق حلمى الـكبير فى الارتحال إلى انجلترا والاسـتمتاع بما فيها من مجالى الحياة الرفيعة والعيش البهيج ، فأقبلت على دروسى وسلـكت مسلك الاستقامة ، ولـكنى بليت بصداقة شخص صحفى من أمثالك ، غرنى ما أبداه لى من مودة وصفاء ، فتمكنت بيننا الألفة ، وتلازمنا نقضى معاً بعض السهرات . ولما كان الراتب الذى يبعث إلىّ به أبى كل شهر محدوداً كما هو الشأن مع الطلاب ، فقد توافقنا أنا وهذا الشخص الصحفى على أن نتناوب الإنفاق فى ليالى السهر . . . ولبثنا على تلك الحال قريرى العين ناعمى البال ، حتى حدث أصيل يوم أن كنت أقطع شارع توفيق فإذا بى أرى صديق الصحفى يواجهنى ، وبعد أن تطارحنا التحيات قال لى :

— إلى أين ؟

— إلى مثواى : الپنسيون . . .

— هكذا مبكراً ؟

— بى صداع . . . أرغب فى الراحة .

— وأنا أيضاً بى مثل ما بك . . . تعال نشرب كأساً تشفينا من الصداع . لن أؤخرك عن الاستمتاع براحتك . . . إنهم ينتظروننى فى الصحيفة لأكتب لهم مقالى . . .

وطرقنا أول حانة مررنا بها فى الطريق ، وكانت الحانات قد تـكاثرت فى ذلك الزمن كما تـكاثرت فى هذه السنوات . . . وانتحينا جانباً ، وكان بالحانة بعض نفر من رجال الجيش الأجانب لم يعيرونا أى اهتمام . . . وشربنا كأساً بعد كأس ، ونحن نتجاذب أطراف الأحاديث . ولما حان وقت دفع الحساب ألفيت صديقى يتلكأ ويتغاضى ، فقلت له :

— ألم يحن وقت الانصراف ؟

— كما تحب . . .

— ولكن . . . الحساب ؟

— الحساب ؟ . . . عليك أن تدفع هذه المرة !

فصحت به وأنا واثق مما أقول :

— بل عليك أنت . . .

— أؤكد لك . . . أن . . .

— إنك تغالط . . .

— بل أنت المغالط . . .

ونهضنا ، كلانا يرمق صاحبه كما تترامى الديكة بنظراتها ، وهى على اهبة العراك !

ومكثنا كذلك لحظة ، ثم صاح صديقى :

— نحن مختلفان . . . فليكن الحكم للقرعة !

وكنا نلجأ إلى هذا الأسلوب كلما نشب بيننا الخلاف على مثل تلك الحال . فأجرينا القرعة ، فكانت الواقعة على الصديق ، فأخذ يهرش رأسه وقال متلعثما :

— أرجو أن تدفع هذه المرة عنى . . . وسيكون ديناً علىّ . . .

فحدقت فيه محنقاً أدمدم ، فبادرنى بقوله :

— حقيقة الأمر أنه ليس معى نقود . . . إنى راجع من سباق الخيل حيث سلبنى الحصان « كحيان » كل ما ملكت يداى . . . أقسم لك على ذلك !

فجحظت عيناى ، وقلت صائحاً :

— وأنا أيضاً ليس معى نقود . . . أقسم لك على ذلك !

— كيف ؟ أخسرت مثلى نقودك فى حلبة السباق !

فخفضت من بصرى ، وهرشت رأسى هامساً :

— بل فى حلبة سباق آخر . . . فى منزل صاحبتك الست نعمات !

فانفجر صديقى يقهقه وهو يقول :

— لم تخسر شيئاً وحق السماء ، وإنما ربحت كل شىء !

— لا يحتمل الموقف أى مزاح . . . ألسنا فى ورطة ؟ ما العمل ؟

فقال عابثاً بكلماته :

— أية ورطة ؟ لا شىء !

— إن الأمر جد . . .

— المسألة هينة يا صديقى . . . إنها لا تخرج عن شيئين : إما أن نأكل « علقة » من صاحب الحانة وبطانته ، وإما أن نقضى ليلة على الأسفلت فى قسم البوليس . . . وإذا أسعدنا الحظ نعمنا بالأمرين معاً !

وأخذت تتوارد فى خاطرى مشاهد مختلفة : هراوة صاحب الحانة ، رجال الشرطة ، الأسفلت ، وجه والدى العبوس يَزفر ويصيح بجملته المعهودة :

— لن تفلح أبداً . . . أحلق شاربى إذا أفلحت !

فصحت مضطرباً واجفاً :

— كلا . . . كلا . . .

وضرب صديقى المنضدة بيده ، ورفع هامته يقول :

— وجدت لمشكلتك حلا . . .

— علىّ به . . . أدركنى . . .

فحدق فى وجهى وقال :

— أن نعاود الشراب فى إسراف !

فرفعت يدى كأنى أهم بلكمه ، فأنزل يدى فى هدوء ، وقال :

— لا تيئس . . . فرج الله قريب !

وسمعته ينادى غلام الحانة طالباً كأساً بعده كأس ، ولما ألفانى صامتاً لا أمد إلى كأسى يداً وكزنى فى جنبى ، وقال :

— إن سلوكك هذا لن يغير من الموقف شيئاً . . . العلقة تنتظرنا . . . والأسفلت مُعَدٌّ لاستقبالنا . . . فلماذا تحرم نفسك الاستمتاع بهذه الفرصة الذهبية ؟

فسرت القشعريرة فى جسدى ، وتراءى لى شارب والدى يتراقص غضباً على شفتيه الغليظتين . ودفع صديقى بالكأس فى يدى وهو يقول :

— إشرب . . . اشرب . . . لك الساعة التى أنت فيها . . . !

فصببت الكأس فى فمى دفعة واحدة ، وانطلقنا نشرب دون وعى ، وإذ بنا نتداول احاديث لا نلوى على شئ ، فأسمعنى صديقى الكثير من النوادر والحكايات والنكات ، ورويت له أنا أشتاتاً من حوادث وقعت لى أو لبعض أهلى ما ظهر منها وما بطن . . . وتعالت ضحكاتنا ونحن لا نرعى للوقت حساباً .

وبدأ غلام الحانة يحوم حولنـا ، وهو يقلب فينا نظر المستريب ، فكنا نزجّيه عنا كل مرة بمطلب جديد . . . ولمحنا نحن بعض جيراننـا من رواد الحانة يتمايلون على المقاعد لا يعون . فهمس صديقى فى أذنى :

— لو كنت ممن منحهم الله خفـة اليد وجرأة النفس لنشلت محفظة ذلك الضابط تنتشلنا من هـذه الورطة التى نعانيها . . . إن اللص لجدير بالتمجيد فى مثل هذا الموقف ! . . . إنه بطل !

واندفع يتحدث فى فلسفة السرقة ، وما يمتاز به اللص من جسارة جديرة بالإكبار . . . فضربت كتفه بيدى ، وقلت :

— لا تلق للأمر بالا . . . فرج الله قريب !

واستأنفنا الضحك والقهقهة وتبادل النكات والنوادر وأخلاط الأحاديث .

واسترعت انتباه صديقى حكاية كنت أرويها له ، فجعل يستزيدنى ويستوضحنى فى شأنها ، فلم أبخل عليه بشئ من خفاياها ، ورأيته ينهض وهو يقول لى :

تأذن لى أن أخلوَ بنفسى ربع ساعة إلى تلك المنضدة القريبة ؟

— ولِمَ ؟

— أرغب فى كتابة مقال الأسبوع هذه اللحظة !

— ما هذا الخلط ؟ أهذا وقته ؟

— لقد هبط علىّ الوحى ، ولا سبيل إلى العصيان !

فاندفعت أسفّـه وحيه متهكماً ، وقام صديقى وهو يقول :

— إذا استطعت أن أذهب بالمقالة الآن إلى إدارة الصحيفة نفحونى ثمنها فوراً . . . وفى ذلك انفراج الأزمة !

وانتقل صديقى إلى المنضدة القريبة ، وشرع يجرى قلمه ، وكنت أرقبه مهتما وغلام الحانة يكثر من تحويمه حولنا ومحاصرته إيانا بالنظر الشزر . . .

وبعد فترة رجع صديقى إلىّ ، وقال :

— أحسب أنى دبجت قطعة طريفة أثاب عليها . . . ولـكن عليك أن تساهم فى عملى . . .

— أنا ؟

— أنت ! . . . ليس عليك إلا أن توقع فى ذيل هذا المقال بالجملة الآتية :

« أدليت بهذه المعلومات بمحض اختيارى ولا مانع عندى من نشرها » .

— فقط ؟

— فقط !

وتناولت ثمالة الكأس ، ثم أسرعت إلى القلم فأجريته بتلك الجملة التى أملاها علىّ وأنا أبعث بالضحكات تتوالى ، دون أن أقرأ من المقالة أى حرف . . .

واندفع صديقى صوب الباب مهرولا ، فأمسكت بطرف سترته ، وقد لمحت فى رأسى فكرة راعتنى . فقلت له :

— أما إذا كانت هذه حيلة للهرب تتركنى بها أنام على الأسفلت وحيداً .

فقاطعنى وقد رفع هامته فى عزة وأنفة بقوله :

— أقسم بشرفى لأعودن إليك بالنقود ، أو لأشاركنك فى مرقدك الوثير على الأسفلت !

ومرق كالسهم ، وعدت إلى مجلسى وقد اشتدت رقابة الغلام لى ، فأخذ يسارُ صاحب الحانة ، وشُغلا معاً بأمرى ، وضربا علىّ نطاقاً من حصار منيع . . . وأخذ رواد الحانة ينصرفون حتى خلا منهم المكان . . . وبدأ الوقت يتثاقل فى سيره وأنا أتكلف ضبط النفس وأتظاهر بعدم المبالاة . . . يا لها من لحظات رازحة فادحة أطارت ما فى رأسى من نشوة الخمر . . . وتكاثر الرقباء من أتباع الحانة يحيطون بى من كل ناحية ، واستحكم الحصار من كل جانب . . . وأخذ جبينى يتفصد عرقاً بارداً ، وبدأت الحلقة تتدانى إلىّ وتضيق ، وشهدت صاحب الحانة يتقدم فى جِرمه الهائل بخطاه الغليظة وفى يمناه هراوة يقرع بها الأرض . وسمعته يتحدث إلى أعوانه عالى الصوت كأنه يُسمعنى قوله :

— إن موعد إغلاق الحانة قد حل !

وتراءى لى الأسفلت يلتمع فى غمرة الظلام ، وقد تصاعدت من رطوبته الشديدة سحب كثيفة تكاد تحجب ما حولى من المشاهد . . . ولا أدرى ماذا مضى علىّ من الوقت وأنا فى جلستى هذه ، وبغتة لمحت وجه صديقى يتخايل وسط هذه السحب الكثيفة وهو يلهث من الجهد والإعياء . . .

وتبددت السحب ، فإذا بى أجد صديقى جالساً على مقعده منتفخاً فى جلسته يصفق بيديه يطلب شراباً رفيعاً . . . وانطلق يتحدث فى لهجة طبيعية أحاديث تافهة . وجرع كل منا كأسه ، وصاحب الحانة وأتباعه ينظرون إلينا ذاهلين مشدوهين . . .

وأخرج صديقى محفظته فى كبرياء ، وصاح بالغلام صيحة خشنة :

— أين الحساب ؟ أسرع ، فليس لدينا وقت نضيعه فى الانتظار .

فهرول إليه الغلام برقعة الحساب ، فرمى له صديقى ببضع ورقات من فئة الجنيه . . . ولما رد إليه البقية قذف له بمنحة سخية ، ولم يحرم سائر الخدم من منح مناسبة . . . ونهض فتبعته على الأثر ، ومضى متثاقل المشية ، وأتباع الحانة يوسعون له الطريق ويومئون له بالتحية البالغة . وقد كنت أنا أثناء ذلك كله واجماً تعرونى الحيْرة .

وما كدنا نبلغ الشارع ، حتى وقف صديقى قبالتى ، وقال :

— لقد بقى من المبلغ الذى قبضته الساعة عشرة قروش . . . لك خمسة منها . . . ها كها . . .

فتراميت عليه أعانقه ، وأهتف بشكره . . .

ومر أسبوع لم ألق فيه الصديق ، وكدت أنسى ما كان ليلة الحانة . وعدت إلى المنزل ذات ليلة ، فإذا بى أجد برقية من والدى تنتظرنى ، وإذا هو يطلب إلىّ فيها أن أوافيه من فورى فى أسيوط ، فتكاثرت هواجسى واشتد قلقى ، ولعبت بى الظنون كل ملعب ، أنَزَلتْ بنا كارثة ؟ أفقدنا عزيزاً من الأسرة ؟

وفى ضحوة غد استقللتُ قطار الصعيد ، وقضيت ساعات السفر واجفاً مهموم الفؤاد . . . وما إن بلغت محطة أسيوط حتى هرعتُ إلى المنزل ، فلم يرعنى شئ . . . المنزل على حاله ، والأهل فى سلامة وخير ، وأخبرونى أن أبى فى حجرة مكتبه ينتظرنى ، فتشاءمت . . . لقد كانت حجرة المكتب فى عرف الأسرة كأنها قاعة المحاكمة لا يخلو فيها والدى بحبيس إلا ليحاسبه ويعاقبه . . . لقد كان والدى فى هذه الحجرة يحاكم الجانى ويحكم عليه وينفذ العقوبة فيه . وعند ما كنت أسمع قول أبى :

— هاتوا الولد إلى حجرة المكتب . . .

لا يبقى عندى ريب فى أنى واقع تحت طائلة العقاب !

ولكن ماذا حدث اليوم حتى يطلبنى إلى حجرة مكتبه بهذه البرقية ؟ أى أمر جلل حفزه ؟ لا أعرف لذلك علة ولا أذكر شيئاً وقع منى يستوجب المؤاخذة !

ولم أجد مناصاً من المضى إلى لقاء أبى فى حجرة القصاص ، وقد أخذت

أجند كل ما فى طوقى من أدب ولباقة وتظرف وابتسام . . . واقتحمت الباب ، ولكن نظرة واحدة أطلقها أبى فى وجهى دكت ما أعددته دكاً ولم تبق منه باقيـــة !

ووجدت قدمىّ تخطوان نحو قفص الاتهام فى غير تلكؤ ولا مراوغة ، وكان هذا القفص هو الركن الأيسر من المكتب ، ورأيت والدى — على عهده — يزحم كرسيه بجسمه الممتلئ . . . وبغتة جلجلت جملته الخالدة :

— لن تفلح أبداً . . . أحلق شاربى إن أفلحت !

وكان حين نطق هـذه الجملة ينتفض شاربه انتفاضاً بالغاً فى شكل بشع مرهوب . . . ولطالما تمنيت على الله من قبل أن أرى الحلاق وقد أطار ذلك الشارب العتىّ ، فأما فى هذه المرة فكنت أبتهل إلى الله أن أكون أنا ذلك الحلاق ! . . .

ودفع والدى إلىّ نسخةً من مجلة مصورة ، فرأيت فى الصفحة المبسوطة منها علامة غليظة بالمداد الأحمر ، وسمعته يقول :

— ما رأيك فى هذه النكتة اللطيفة ؟

وألقيت على الصحيفة نظرة خاطفة ، فتشابكت الصور والكلمات ، فلم أتبين منها أى شىء ، ولكنى قلت على الفور :

— نكتة لطيفة جداً . . .

وتصنعت الابتسام متظرفاً ، فأجابنى وهو يزأر بصوت محتبس :

— أتراها كذلك ؟

— ألم تقل حضرتك إنها نكتة لطيفة ؟

فضرب المكتب بيده ضربة كادت تهوى به ، وقال :

— غداً ستكون حبيساً فى القسم الداخلى من مدرسة أسيوط لا تبرحها إلا حين أريد . . . ولن أريد ! . . . أسمعت ؟ أفهمت ؟ . . . أأهلٌ أنت لأكسفورد ؟ لن تراها ما حييت !

فقلت وأنا فى غمرة من الدهشة والتعجب :

— فهمت . . .

— أخرج . . .

وأيقنت أن المحاكمة قد تمت ، وأن الحكم قد صدر ، وليس ثمة من استئناف !

فخرجت أجر قدمىّ إلى حجرتى ، والمجلة فى يدى ، وألقيت بنفسى على المقعد وقد اعتلجت فى نفسى ضروب المشاعر وتلاطمت فى رأسى شتى الأفكار . . . يا للنكبة ! . . . أأقضى أيامى فى مدرسة أسيوط حبيساً ؟ وفيم هذا ؟ . . .

ووقعتْ عينى على صفحة المجلة ، فصدمتنى العلامة الحمراء ، وتركز بصرى فى رسم هزلى تبينت فيه صورة مشوهة لأبى تمثله فى لبوس المهرجين : طُرطور طويل ، وسراويل فضفاضة منتفشة مُفوّفة ، وهو ماثل بباب أحد المسارح وبيده ناقوس يدقه قائلا :

« هلموا . . . هلموا . . . شاهدوا الراقصة المرّاكشية العالمية فاطمة الساحرة . . . نجم الشرق وعروس الأحلام ! »

وانهلتُ على المقال أقرؤه ، ونظراتى تتواثب على الجمل والسطور ، وأنفاسى تتلاحق . . . وضربت رأسى بيدى ، وقد اتقدت عيناى . . . إنها قصة مما أفضيت به إلى صديقى الصحفى ليلة الحانة ، وإنها لتتضمن حادثاً لأبى حين كان يطلب العلم فى فرنسا ، وقد وقع فى حبائل راقصة مَرّاكُشية تدعى فاطمة الساحرة . . . وذلك أنه قَبِلَ مرة أن يكون مهرجا لها فى إحدى قرى فرنسا ، فوقف أمام المسرح يجتلب لها الرواد !

وأكبر ما غاظنى من هذا المقال أن الصحيفة قدمته بالعبارة التالية :

« أدلى إلينا الشاب المهذب عبد المولى السيوطى بهذه القصة الواقعية الطريفة التى كان والده بطلها ، فننشرها راجين له مستقبلا زاهراً . . . »

وانكببت على يدى أعَضها ، وخيل إلى أنى لو لمحت فى هذه اللحظة صديقى الصحفى لأشبعته لكماً وركلا ، ولمزقته إرْباً إرباً . . .

وتراخى الوجيه عبد المولى بك السيوطى فى جلسته ، ومسح شاربه المنتفش ، وأرسل نحشْوَة منكرة الصوت وغمغم :

— لست بمنكر أن إفضائى بهذه القصة إلى الصديق الصحفى قد أنجانى من المبيت ليلة على الأسفلت . . . ولكن . . .

فقلت على الفور :

— ولكن طارت منك أكسفورد !

ونظر الوجيه السيوطى فى عُرْضِ الفضاء نظرات تائهةً ، وهو يهمهم :

— لشدَّ مَا جار أبى فى حكمه !

وألقيت بنظرة على ساعة معصمى ... لقد أبطأت عن موعدى فى الصحيفة التى أعمَلُ بها ... إنى لأتمثل رئيس التحرير ومن حوله زبانيته يرتقبون مَقْدَمى وهم يُكنُّون لى ثورة جامحة ... إن عمال صفِّ الحروف وقوف ينتظرون ، وإن آلة الطبع معطلة متململة !

ولمعت فى خاطرى فكرة سرعان ما شملتنى بفرحة جياشة ... فأمسكت بيد صديقى وجيه أسيوط وهززتها متحمساً وأنا أقول :

— أشكر لك ... أشكر لك حسن صنيعك ...

ونهضت على الفور مستأذناً ، فقال لى عبد المولى بك وعلى وجهه أمارات المتوجس والريب :

— أى صنيع تشكره لى ؟

ولم يكد يتم سؤاله حتى أخذ بطرف ثوبى لا يريد أن أفلت منه ... وواصل حديثه فى شىء من الاهتياج :

— ماذا تقصِد ؟ ... يبدو أنك معتزم ...

وتأتأ بكلمات تطايرت من فمه غير مبينة ...

وتضاحك عاطف بك مخاطباً عبد المولى بك :

— دعه يسترزق !

فأجابه بصوت متهدج :

— كيف يسترزق ؟ على حسابى ؟ والله لا أدعه يعيد المأساة ... أألدغ من جحر الصحافة مرتين ؟

فأفلتُّ من يده ، ووثبت إلى الطريق وثبة أبعدتنى عن متناوله ، ولكنها لم تبعد عن أذنى شتائمه ولعناته التى كان يصبها علىَّ فى ثورة وحَنق كأنها قذائف مدفع رشاش ! ...

وجعلتُ أعدو متجهاً إلى دار الصحيفة ، وأمام عينى يرتسم بخط الثلث الكبير عنوان مقالى الذى أزمعت كتابته على الفور :

« كيف طارت منى أكسفورد ؟ »

محمود تيمور

القرية والاصلاح الريفى فى مصر

فى مقال سابق [1] تناولنا حديث الفيضان وأثره فى الحضارة المصرية ، ورأينا أن هذا الفيضان ظاهرة طبيعية عاصرت الحضارة منذ نشأتها الأولى فى أرض وادى النيل ، وكان لها أكبر الأثر فى تكييف الحياة المصرية وإبرازها فى طابعها المعروف الذى احتفظت به على مر السنين . وقد كان الفيضان الحبشى وارتفاع الماء فى أواخر كل صيف وأوائل كل خريف مصدر خطر مشترك بالنسبة للمجتمع المصرى ، ومصدر خير مشترك فى الوقت نفسه ؛ وكان دفع هذا الخطر وجلب هـذا الخير مدعاة لأن يتكاتف المجتمع وتتضافر جهود أفراده ؛ فبعث ذلك روح الوحدة والنظام فى حياة المجتمع الريفى منذ البداءة ؛ وظهرت الجماعات التى كانت تعيش على ضفاف النيل بمظهر الأمة الموحدة قبـل أن يظهر غيرها من الأمم ؛ وتمثـل روح الوحدة والنظام فى العمل والنشاط الزراعى فى الحقول من جهة ، وفى حياة القرية والسكنى الريفية المستقرة من جهة أخرى . وقد عرضنا فى المقال السابق لبعض مظاهر النشاط الزراعى وارتباطها بفيضان النيل وتنظيم الإفادة من مياهه إفادة كانت أساس الحياة المادية ، بل أساس المدنية الزراعية فى مصر . وقد يكون من الخير أن نتابع الآن هذا البحث فيما يتصل بالقرية المصرية التى هى نواة المجتمع ، وتمثلت فيها حياة الاستقرار والانتقـال من المرحلة القَبَلية إلى المرحلة الحضرية ، التى كتب لها الدوام والاستمرار فى مصر خلال آلاف كثيرة من السنين .

وإذا كانت القرية المصرية قد مثلت نواة المجتمع الريفى ، فيها تركزت حياته وتكيفت معيشته ، واستقرت نظمه وتقاليده حتى اتخذت طابعها الذى لم يستطع الزمن ولا الأيام أن تمحوه أو أن تغيره ، فإن من الحق علينا ونحن الآن بسبيل إصلاح الريف وحياته القروية أن ندرس هذه القرية دراسة دقيقة ، قد لا يكون

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٣ (أكتوبر ١٩٤٦) .

هذا مجالها من الناحية الفنية الخالصة ، ولكن لها مع ذلك جانباً ينبغى أن يهتم له أكبر عدد من أبناء مصر الراغبين فى أن يتعرفوا على بيئتهم ، وأن يلتمسوا العبرة من دراسة تاريخهم الاجتماعى والقومى العام ؛ بل ينبغى أن يهتم له اكبر عدد من غير أبناء مصر ، والراغبين فى تعرف شىء عن تاريخ المدنية البشرية ، وتاريخ هذه الأمة العريقة التى ساهمت بحياتها الريفية وقراها المستقرة فى نشأة المدنية والاحتفاظ بتراثها على مر السنين . ولقد كانت القرية خلال أجيال طويلة عامل استقرار هام ، بل نواة دار من حولها نشاط الجماعات البشرية الريفية فى أرض الكنانة . . . وحق بذلك على من يهتمون بتراث الإنسانية وحضارتها المستقرة أن يدرسوا هذه المظاهر العريقة من حياة الإنسان فى هذه الأرض الطيبة ، التى كتب لها أن تكون أم المدنيات .

ولقد رأينا فى المقال السابق أن الحياة فى الريف المصرى بقيت على استقرارها القديم آماداً طويلة ؛ فكان المصريون يقسمون الأرض إلى حياض يرويها الفيضان بانتظام فى كل عام ، ثم يفلحها أبناء الوادى على طريقتهم المتوارثة التى احتفظوا بها حتى جاء العهد الحديث ، فظهر الرى الدائم ، وجاء ما يمكن أن نسميه الثورة الزراعية ، وانقلبت حياة الريف رأساً على عقب ، فامتد النشاط الزراعى ليشمل العام كله بدلا من الاقتصار على فصل واحد ومحصول واحد فى العام ، وتكاثر الخلق فى القرى ، وتشابكت مصالحهم المادية وامتدت فيما وراء حدود القرية ، بل تعدتها إلى جهات أخرى فى القطر أو خارجه فيما وراء الصحراء أو ما وراء البحار ؛ وخرجت القرية بذلك كله إلى حياة جديدة تتعدى الحوض أو الحياض التى تحيط بها ، وتتأثر بأمور بعيدة عن نطاقها وخارجة عن طاقتها ، تتصل بالحكومة المركزية القائمة فى عاصمة البلاد ، والتى يصدر عنها تدبير الاقتصاد الزراعى كله ورسم الخطة للتوسع الزراعى الحديث فى الرى والصرف واختيار المحاصيل وغير ذلك ، كما تتصل أيضاً بالعالم الخارجى ، بعد أن ارتبط اقتصاد الريف المصرى فى العهد الحديث بالأسواق الخارجية ، يغذيها بالقطن وغيره من المحصولات ، ويعتمد عليها فى استيراد غير قليل من المصنوعات .

وقد كان طبيعيًّا أن يترتب على هذه الثورة فى الحياة الريفية المصرية ، بعد أن دخلها الرىّ الدائم واتصلت بالعالم الخارجى اتصالا مس مقومات الحياة المادية وأسسها الاقتصادية مساساً قريباً . . . ترتب على ذلك كله وصاحبه غير

قليل من الاضطراب لا نزال نلمس آثاره ؛ فقد استلزمت الحياة الجديدة غير قليل من التغيير والتحوير فى نشاط الريف ومعيشته القروية المستكينة. وحاولت القرية المصرية وأبناؤها أن يلائموا بين ظروفهم القديمة وبين مقتضيات العصر الحديث محاولات لم تكن كلها سعيدة العواقب ولا موفقة السبيل. ثم جاءت هذه السنوات الأخيرة فظهرت فى البلاد اتجاهات جديدة تهدف إلى ما اصطلح الناس على أن يسموه الإصلاح الاجتماعى. بدأه الذين يبشرون بالحركة فى بعض أركان المدن وأحيائها الفقيرة ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى ضرورة إنفاذه إلى الريف وقراه النائية . . . ذلك أن سكان الريف يمثلون الكثرة الساحقة من شعب مصر ، بل هم يمثلون أكثر من ثلاثة أرباعه. ونحن بلا جدال أمة تعيش فى القرى أكثر مما تعيش فى المدن ، ويستند إنتاجها القومى إلى سواعد سكان الريف أكثر مما يستند إلى سواعد سكان المدن. وإذا نحن هدفنا إلى إصلاح حياتنا القومية فينبغى أن نبدأ بالريف وأهله ؛ فهم قوام الأمة ، وهم عماد إنتاجها ؛ بل هم القوامون الحقيقيون على تراث مصر القديم ، وهم الذين هزتهم الحياة الجديدة وصدمتهم أعنف الصدمات بما اقتضته ولا تزال تقتضيه من تغيير وتحوير.

ومع ذلك فقد يكون من الخير لأولئك الذين يعرضون للإصلاح الاجتماعى ، ويشاركون فى رسم خططه ، أن يبدءوا بالتعرف على المشكلة فى وضعها العلمى والتاريخى الصحيح ؛ إذ ليس الإصلاح الاجتماعى مما يمكن أو يجوز ارتجاله ، أو حتى نقل وسائله وأساليبه نقلا عن غيرنا من البلدان والأمم التى سبقتنا إلى إصلاح حياتها الريفيـة ودعمها قبل أن تتصدع أمام ضغط الحياة الحديثة. وإنما ينبغى أن تسبق الإصلاح دراسة عميقة لمشكلات الريف فى وضعها الطبيعى والبشرى. وإذا كانت هذه الدراسة ضرورية بالنسبة لغيرنا من الأمم التى أخذت بالإصلاح ، فإنها ألزم بالنسبة لمصر والمجتمع المصرى. فنحن أمة تعيش فى الماضى بقدر ما تعيش فى الحاضر أو فى المستقبل ؛ وليست حياتنا فى الماضى راجعة إلى أننا محافظون نستمسك بالقديم لمجرد قدمه ، وإنما نحن نعيش فى الماضى لأن كثيراً من نظمنا وتقاليدنا نشأت فى البيئة المصرية نشأة طبيعية ، ولم تكن مستعارة من الخارج استعارة طارئة ؛ فهى بنت البيئة ، نشأت فيها ، وتغذت بلبانها ، ثم عاشت وعمرت لأنها كانت صالحة للحياة والبقاء والتعمير. ولم تكن هناك ضرورة ملحة على المصريين خلال أجيالهم المتعاقبة فى أن يغيروا

حياتهم المادية ونظام زراعتهم ؛ فلم يغيروا شيئاً من ذلك إلا بقدر معلوم . كذلك الحال فى تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية التى تتصل بحياة الريف ؛ فقد بقيت كلها أو جلها على الزمن ، لأنها كانت صالحة للبقاء . وليس من العلم الصحيح ولا الروح العلمية السليمة ، بل ليس من الإنصاف ، أن نفسر احتفاظ الريف والحياة القروية المصرية بنظمها وحياتها القديمة على أنه راجع إلى حب المصريين للمحافظة على القديم ؛ فذلك تعليل ، إن صح فى بعض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر ما حدث فى تاريخ مصر الطويل ، وما اكتنفه من أحداث جسام ، اهتزت لها جوانب أخرى من حياة مصر والمصريين . وإذا كان المصريون محافظين على كل قديم فى حياتهم وحضارتهم ، فكيف نفسر تغييرهم لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون ؟ واستبدالهم بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ؟ وجمعهم بين القديم والحديث فى كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم القديمة والحديثة ؟ واقتباسهم عن العالم الخارجى ، واتصالهم بأممه وحضاراته فى الشرق والغرب على حد سواء ؟ الحق أن ما يقال عن الجمود وروح المحافظة على القديم فى مصر ، وتمسك المصريين بقديمهم لمجرد قدمه ، قول لا يجوز أن يطلق على علاته ، لأنه لا يطابق الحقيقة الواقعة مطابقة علمية صحيحة . ولعلنا أن نعود إلى هذا الموضوع يوماً فى مقال ما .

ولكن الشىء الذى يهمنا الآن إنما هو أن الحياة الجديدة والثورة الزراعية الحديثة فى مصر قد هزت الريف وقراه هزات عنيفة اقتضت كثيراً من التغيير بعد ثبات طويل فى بعض نواحى الحياة . وعلى من يريد أن يعرض للإصلاح والتجديد فى الريف أن يدرس المجتمع الريفى وحياته القروية فى ضوء ما اكتنف نشأة النظام الزراعى والقروى فى مصر من ظروف طبيعية وبشرية . وعليه فوق ذلك أن يدرس العوامل الجغرافية والتاريخية التى أثرت فى حياة المجتمع بل كيفتها منذ البداءة ، تلك العوامل التى ربما كانت مسئولة إلى حد بعيد أو قريب عما بدا لنا أول الأمر كأنه جمود فى حياة القرية المصرية ونظامها خلال أجيال طويلة . ومن الخير لمن يريد التجديد والتغيير أن يلم بعوامل الثبات التقليدية ، التى لا بد أن تدافعه فى جهوده ؛ وقد يتوقف على خطته إزاءها نجاحه أو إخفاقه . . . بل قد يكون من الخير المحقق ، ونحن بصدد الإصلاح ، أن نلم بقوى الطبيعة والمجتمع التقليدية ، فنجندها تجنيداً ، ونوجهها وجهة

الخير والحق توجيهاً ، فتغدو جميعاً فى جانب الإصلاح ، بدلا من أن تبقى فى جانب ما يسميه بعضنا جموداً ، وما يسميه بعضنا الآخر استمساكا بالقديم أو إعراضاً عن التجديد ، وقد يسميه فريق منا عدم اكتراث بما يستلزمه العصر الجديد من نزوع إلى التطور وأخذ بسبيل التجديد .

ولقد تأثرت القرية المصرية فى نشأتها وتطورها بعدد من العوامل الأساسية، نستطيع أن نختار منها الآن ما نجمله فى نقط أربع : هى الموقع المحلى والمكان الذى تحدد الظروف الطبيعية أن تقام فيه القرية . ثم المركز الجغرافى وعلاقة القرية واتصالاتها بغيرها من القرى فى البيئة الريفية . ثم المواد التى تبنى منها القرية وموارد الطبيعة المصرية من هذه الناحية ، وما يتصل بذلك من تصميم القرية تصميما يتفق وظروف البيئة وحاجات المجتمع القروى . ثم أخيراً معيشة القرويين فى قريتهم ، واتصال ذلك بشؤون الإدارة والأمن والنظام ، وعلاقتها بالحكومة الإقليمية أو المركزية . وجميع هذه النواحى قد تأثرت القرية فيها بالظروف الطبيعية والبشرية للبيئة المصرية . وهذا ماسنحاول أن نعالجه الآن فى شىء كثير من الإيجاز .

فأما عن الموقع والمكان فإن أرض مصر امتازت على غيرها من مواطن الحضارة القديمة بأنها أرض مستوية منخفضة ، يهددها فيضان النهر فى كل عام تهديداً مباشراً بالإغراق ، وغير مباشر بالرشح . وعند ما نزل المصريون أول ما نزلوا من الصحراء إلى الوادى ، بين الألف السادسة والألف الخامسة قبل الميلاد ، كان عليهم أن يتحولوا من الحياة القَبَلية ، أى التى تكون القبيلة فيها وحدة المجتمع ، إلى الحياة الإقليمية ، أى التى يكون فيها الإقليم أو الوطن الصغير رباط المجتمع . وكان هذا الإقليم فى العادة قسما من الوادى ، تحوّل فيما بعد إلى مجموعة من الحياض التى يغمرها الفيضان ويفلحها الناس بعد انحسار مياهه . وفى هذا القسم حاول السكان الأولون أن يقيموا قراهم ؛ فكان عليهم أن ينشئوا أول الأمر كومات كبيرة من التراب ، ترتفع فوق مستوى الفيضان وتثبت لتيار الماء الجارف وقت اندفاع المياه ؛ وكثيراً ما تبطّن جنبات هذه الكومات بالأحجار الجيرية البيضاء ، يجلبها القوم من حافة الهضبة إن كانت قريبة ، أو بأعمدة من جذوع الأشجار وجدائل من الأحراش والأعشاب إن كانت الكومة بعيدة عن الهضبة ومعرضة فى بعض جنباتها لتيار جارف ،

وذلك حتى لا تنهار الكومة ويجرفها الماء . وقد كانت إقامة هذه الكومات والمحافظة عليها ضرورية ، حتى يمكن إقامة مبانى القرية فى مكان أمين ، لايهدده الفيضان . كما كان من المستحيل عمليا على شخص بمفرده ، أو حتى على أسرة أو مجموعة صغيرة من الأفراد أن تقيم لنفسها كومة صغيرة تبنى بيتها فوقها ؛ لأن تلك الكومة الصغيرة يسهل أن يطغى عليها الماء ، وأن يصدع جوانبها التيار ؛ فضلاً عن أنها فى وقت الفيضان تصبح فى عزلة عن غيرها من أماكن السكنى ، فتصعب حياتها ، ويسهل السطو عليها ، لأنها لا تتمتع بما تتيحه القرية الكبيرة لأهلها الكثيرين المتضامنين من أمن وسلام . لذلك كله وجد السكان فى وادى النيل الأدنى ودلتاه أنفسهم مضطرين منذ بداءة الحضارة الزراعية المستقرة إلى أن يعيشوا فى قرى كبيرة ، تتوج كومات كبيرة منتثرة بين الأحواض ؛ بعضها قريب من الصحراء أو ملتصق بها ، ولكن أغلبها مجاور للنهر أو منتشر فى سهل الدلتا الفسيح ، حيث لا عاصم من الماء إلا هذه التلال الصناعية التى بنتها يد الإنسان ، والتى يعتصم بها وقت الفيضان كل من يسعى وما يسعى على الأرض من أحياء ، فهى ملجأ الإنسان والحيوان على حد سواء .

وهكذا تركزت الحياة الريفية كلها فى القرية التى أصبح تلها بحكم الضرورة مسرح النشاط البشرى كله خلال فترة الفيضان . وقد كانت ضرورة إقامة التل الصناعى مبعث الوحدة والتضامن فى المجتمع القروى ؛ وبقيت كذلك خلال أعصر التاريخ ، يحافظ سكان القرية على التل ، ويضيفون إليه من الأتربة مايحفظ كيانه ، ثم يعيشون فوقه متضامنين متكاتفين متشاركين فى الشعور بالخطر إبان الفيضان ، حتى إذا ما انجابت المياه نزلوا إلى الحياض يفلحونها ، ثم يحصدون مايزرعون ، ويجتهدون من جديد فى تطهير مسالك الماء ، وترميم جسور الحياض ، استعداداً لموسم الفيضان الجديد . بل هكذا قامت القرية والحياة الريفية كلها فى مصر على أساس التضامن والتعاون والمشاركة فى دفع الخطر وجلب المنفعة ؛ وطبع ذلك حياة أهل الريف على شىء كثير من مظاهر النظام والطاعة ، وهما صفتان ضروريتان لكل عمل إجماعى يشترك فيه عدد كبير من الأفراد . ولعل هذا كله هو سر القوة الأول فى حياة القرية المصرية ؛ وهو الذى استطاعت بفضله هذه القرية أن تعيش وأن تحتفظ بشخصيتها على مر العصور رغم تغير الزمن وتداول الأيام ، ورغم ما كان من غزوات أتت مصر وغيرت وجه التاريخ

فى مظهره ، ولكنها لم تغير أسس الحياة فى مخبرها الأصلى ؛ فكانت القرية ، وكان الفلاح ، عنوان الاستقرار فى الحياة المصرية ، بل عنوان الدوام والاستمرار فى مدنيــة مصر الزراعية . وهذا ما عبر عنه بعض من لايتعمقون الأمور بأنه محافظة على القديم !

ولكن ما قيمة هذا الكلام بالنسبة لما نحن بسبيله من إصلاح الحياة الريفية ؟ ربما كان مرجع العلة فى مجتمعنا الريفى الحديث (لا سيما فى الدلتا) أن نظام الرى الدائم قلل من أثر رى الحياض وضرورة إقامة القرية فوق كومة مرتفعة . فالأرض لم تعد تغمر بالمياه إلا فى مناطق محدودة فى جنوب مصر ؛ والقرى أصبح من الممكن أن تقام فى مستوى الأرض الزراعيــة ، دون أن يرفع مكانها على هيئة تل صناعى . وقد أفقدت الحالة الجديدة قرى مصر مقوماً أساسيًّا من مقوماتها الأولى ؛ إذ لم تعـد هناك حاجة لأن يتضافر السكان ويتعاونوا فى إقامة تل التراب وحراسته ؛ بل إنهم قد اندفعوا فى العهد الحديث إلى تخريبه ونقل أتربته لتسميد أراضيهم الزراعية ، التى ازدادت حاجتها إلى التسميد بسبب استمرار الزراعة طول العام . على أن الظاهرة التى لا ينبغى أن نغفل عنها هى أن إقامة التل كانت بالنسبة للسكان تمثل عملا إجماعيًّا يتضافر من أجله الجميع ، على حين أن هدمه ونقل أتربته وأسبخته إلى الحقول الخاصة أصبحت الآن عملا فرديًّا يقوم على الأنانية والأثرة أكثر مما يقوم على الشعور بواجب التضامن وإيثار الصالح العام . وإلى جانب ذلك فقد كانت القرى القديمة كبيرة الحجم متجمعة السكان ؛ أما فى العهد الحديث فقد كثرت العزب والقرى الصغيرة المنتثرة ، وأدى هذا إلى شىء من التفكك فى روح الاجتماع فى الريف . وعلى من يعالجون الإصلاح الإجتماعى أن يلحظوا مثل هذه الظاهرات الخطيرة فى فلاحى مصر : تعـاون لم يبق مايحفز إليه ، وتضامن لم يبق مايرغم الناس عليه ، وتفكك فى المجتمع القروى يقوم على الأثر حيناً ، وعلى اعتزال الجماعة الكبيرة ، وانفراد الجماعة الصغيرة بذاتها حيناً آخر . وتلك كلها معاول هدم خطيرة فى حياة الريف . ولا بد لنا فى رسم خططنا الإصلاحية أن نعوض أهل القرى وسكان الريف بعض ما فقدوه من مقومات بقيت على الزمن ، حتى أصابتها الثورة الحديثة بصدمتها العنيفة التى هزت بناء المجتمع من الأساس . وإذا صح هذا الفهم لأحد أسباب التفكك والانحلال فى

مجتمعنا الريفي ، فقد ينفعنا أن نعنى بكل ما يردّ إلى المجتمع روح التضامن والتعاون ؛ فنعلّم سكان القرية مثلا أن تتضافر جهودهم في بعض المشروعات القروية الجديدة من بناء أماكن الاستشفاء أو دور التعليم أو المراكز الاجتماعية أو ردم البرك والمستنقعات أو غير ذلك مما قد يكون على الحكومة المركزية أن تضطلع به لضمان سرعة الإنجاز ، ولكن من الخير أن يُعَوَّد الأهالي أن يشاركوا فيه بما يردّ عليهم روح الجماعة ، التي حفظت لمصر كيانها على مر الأعصر وكر الأيام .

كل هذا عن موقع القرية ومكان إقامتها ؛ فأما عن مركزها الجغرافي وعلاقاتها بغيرها من القرى فشأنه أيسر من ذلك . وقد راعى المصريون الأقدمون دواماً أن يتيسر على قراهم أن يتصل بعضها ببعض ؛ وكانت وسيلتهم في المواصلات نهر النيل ذاته من جهة ، ثم تلك الطرق الكثيرة التي تقطع الوادي ودلتاه طولا وعرضاً ، والتي كانت تتمشى مع الجسور التي تفصل الحياض بعضها عن بعض من جهة أخرى . والواقع أن مصر في تاريخها القديم والوسيط امتازت على الدوام بكثرة هذه الطرق التي تقطع أراضيها من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب في هيئة شبكة صغيرة العيون . ولكن العهد الحديث غيَّر من هذه الصورة بعض الشيء ؛ فلم تعد هناك حاجة إلى أن تقسم الأرض إلى مربعات وحياض ، ولا إلى أن يحتفظ بتلك الجسور التي تجرى من فوقها الطرق ؛ وإنما أزيلت الجسور وأزيل معها كثير من سبل الاتصال ، واستعيض عنها بقنوات تجرى كلها في اتجاه عام واحد من الجنوب نحو البحر ، وتتفرع على هيئة مروحة في أرض الدلتا التي تتفتح وتنتشر نحو الشمال . ومهما قيل عن صلاحية الطرق الحديثة التي تجرى فوق جسور القنوات ، فإنها لا تعتبر مسالك قروية بالمعنى الصحيح الدقيق للكلمة ؛ لا سيما أن المشروعات الحديثة لم يراع في شقها أن تخدم القرى ومناطق السكن ، وإنما روعى فيها أن تروى الحقول ؛ ولذلك فإن كثيراً من الطرق التي تساير الترع تتحاشى القرى ولا تمر بها ، وإنما تهدف مستقيمة وسط الحقول . وفضلا عن ذلك فإن ارتباط الطريق البرى بترعة لم تنشأ للملاحة والاتصال ، وإنما أنشئت لغرض آخر هو الرى ، قد خرج بالمواصلات البرية في ريف مصر عن هدفها الأصلي ، وانحرف بها عما كان ينبغي أن تسخَّر له من خدمة القرى

وتوصيلها بعضها ببعض . لذلك فإن معظم طرق الريف لا تزيد عن أنها مسالك قديمة جرى عليها الزمن ، وطغت عليها مطالب الزراعة والري الحديثة ، فهي لا تصلح لعصر أهم ما فيه تقصير المسافات وتوثيق الصلة بين الناس ، وربط أركان الريف وزواياه المنعزلة بعضها ببعض . . . وفي هذا كله مجال فسيح لمن يريد الإصلاح .

وأما عن موارد البيئة المصرية وما تجود به من مواد لبناء القرى ومساكن الريف ، فمن المفيد أن نلحظ أن ظروف المنـاخ في مصر ليست من القسوة بما عليه الحال في مناطق أخرى من العالم . لذلك لم يجهد المصريون أنفسهم في أن يقيموا مساكن قوية تقيهم غوائل الطقس وتقلباته ؛ وإنما اكتفوا بإقامة مساكن بسيطة تقيهم حرارة الشمس ووهجها حين ترتفع في الصيف ، وشدة الريح وثورتها حين تعصف في بعض أيام الشتاء . وكانت مصر فقيرة في الأخشاب ، فاقتصدت في استخدامها إلى أبعد الحدود . واكتفى المصريون بأن يقيموا منازلهم ومساكنهم من اللبن والطين المجفف . وكان هذا الطين مناسباً جداً لأحوال المناخ لأنه موصل رديء للحرارة ؛ فهو لا يسخن في الصيف ولا يبرد في الشتاء ؛ لذلك وجد المصريون فيه مادة مناسبة جداً لمناخ بلادهم القاري . ولعل من الطريف أن نلحظ أنه في مصر القديمة كانت مساكن الفراعنة نفسها تبنى من هذا اللبن ؛ أما الحجر فلم يكن يبنى به غير المعابد والهياكل والمقابر وما إليها من بيوت الله ودور البقاء . ولعل هذا هو السر في أنه لم يبق لنا من آثار السكن القديم في مصر غير القليل . وقد بقيت قرى المصريين ومساكنهم على مر العصور من نفس المادة ، لا لسبب إلا أنها أنسب ما تكون للبيئة والمناخ : حتى إذا ما جاء العهد الحديث وانتشر نظام الري الدائم تغيرت الأحوال ، فكثرت الرطوبة في الأرض وارتفع مستوى المياه الجوفية ؛ كما أن بعض القرى كما ذكرنا هجر أهلها الأكوام القديمة وبنوا مساكنهم في مستوى الأرض الزراعية ؛ وذلك كله جعل المساكن عرضة للرطوبة ، وأقل صلاحية للسكنى والإقامة ، لا سيما في أشهر الخريف والشتاء . والواقع أن كثيراً من قرى الريف وبيوته في الوقت الحاضر أصبحت لا تكاد تصلح لسكنى البشر في كثير من أشهر الشتاء ، بسبب الرطوبة الزائدة والأحوال الصحية غير المناسبة ، فضلاً عن تزاحم السكان وتكاثرهم بما يفوق طاقة المكان ، ثم تكاثر الحيوان أيضاً

وسكناه مع الإنسان بحكم ظروف الفلاح التي يلمسها كل من نشأ أو عاش في الريف . لذلك كله لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الثورة الزراعية كان لها من الأثر في حياة الريف المعيشية ، ما لا يقل في مداه ونوعه عما كان للثورة الصناعية من أثر في حياة الطبقات العاملة في مدن أوربا ؛ إذ الواقع أن سكنى الريف في مصر هي اليوم أقل في مستواها الصحي ، بل في مستواها الإنساني ، عما كانت عليه الحال قبل إدخال نظام الري الدائم . وقد تكون هذه من كبريات المعضلات التي يواجهها من يعرضون لإصلاح الحياة في الريف ، خصوصاً أن الحالة تزداد سوءاً يوماً عن يوم . والواجب أن يوجه التفكير في صرف المياه الجوفية توجيهاً لا يقتصر على مراعاة فائدة الصرف للأرض الزراعية ورفع مستوى غلة الفدان ، وإنما يمتد إلى مراعاة ضرورة تحسين الصرف كوسيلة من وسائل تحسين حالة السكنى في الريف . وإذا كان البناء باللبن والطين المجفف قد صلح فيما مضى ، فإنه في الظروف الحاضرة وبنظام الصرف الحالي لم يعد يصلح للسكنى الصحية . ولا بد من معالجة الحال بخفض مستوى المياه الجوفية ، أو بتغيير مادة البناء في إقامة أسس المساكن ، أو بغير ذلك مما قد تتفتق عنه حيلة المهندسين (١) .

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التي نعرض لها في هذا المقال ، فناحية العلاقات التي تسود بين سكان القرية وتحكم معاملاتهم واتصالاتهم بعضهم ببعض من جهة ، ثم اتصالاتهم كمجموعة بالحكومات الإقليمية والمركزية من جهة أخرى . وهنا نعرض بالطبع للأمن والإدارة . وقد رأينا فيما أشرنا إليه من تاريخ نشأة القرية أنها قامت منذ البداءة على شركة من المصالح المتشابكة والمنافع المتداخلة ، التي يحرسها تضامن اجتماعي قضت به ضرورات الحياة ومقوماتها الأولى ؛ وقد تمثل ذلك في القرية المصرية حتى في عصور ما قبل التاريخ . لذلك كانت الحكومة أو الإدارة القروية ضرورة من ضرورات الحياة ؛ فكان لكل قرية رئيس ينظم جهود الأفراد ويوجهها في إقامة كومة التراب مثلا ، وفي الدفاع ضد الفيضان في موسمه ، وفي تنظيم الدفاع عن القرية ضد ما قد يصيبها من سطو

(١) هناك نواح أخرى من هندسة القرية لا نعرض لها هنا لأنها فنية خالصة ؛ وهي التي تتصل بتصميم القرية وتحديد مواقع مرافقها العامة ورسم شوارعها وغير ذلك مما يحسن أن يترك الكلام فيه للمهندسين .

خارجى ، ثم تيسير اتصالها بالقرى الأخرى بوساطة القوارب أيام الفيضان أو الطرق أيام انحسار الماء ، وغير ذلك من مرافق الحياة القروية التى تركزت فيما بعد فى نظام الإدارة المعروف وعلى رأسه العمدة والمشايخ . ولقد كانت سلطة الإدارة القروية فى تاريخ مصر الطويل سلطة حقيقية مستمدة من مصالح أهل القرية وممثلة لإرادتهم فى صورة واحدة أو صور تتشابه وتتكرر من قرية إلى قرية . وبقيت الحال على ذلك ، فيما يبدو ، خلال معظم فترات التاريخ ، وإن تغيرت بعض تفاصيلها من عصر لعصر . ولكن المهم أن هذه الحال قد تغيرت فى عهدنا الحديث ، فقويت سلطة الحكومة المركزية على حساب السلطات الإقليمية والإدارات القروية ؛ وأصبح نظام الإدارة يفرض من العاصمة على البنادر ومن البنادر على القرى والدساكر ؛ وضاعت سلطة الحكومة القروية وهيبتها فى أعين أهل القرية إلى حد كبير ، وأصبح العمدة مثلا يتقرر تعيينه أو إعفاؤه عن طريق السلطات المركزية العليا ، فلا يستند اختياره والاستغناء عنه إلى إرادة أهل القرية إلا استناداً عرفيًّا أو شكليًّا فى كثير من الأحيان . وفى هذا مساس خطير بأساس هام من أسس القرية والحياة القروية التى عرفتها البيئة المصرية قبل الثورة الزراعية الحديثة . وقد أضعفت الحالة الجديدة ثقة المحكوم بحاكمه فى القرية من جهة ، وجعلت صلة الحاكم القروى برجال الحكومة الإقليمية أو المركزية أهم فى نظره وأدنى إلى منفعته فى بعض الأحيان من صلته بأبناء القرية ذاتها . وفى ذلك فساد يمس الأصل والأساس ؛ ولا يمكن إصلاحه إلا بإعادة السلطة إلى القرية ، بحيث يكون بناء الإدارة قائماً على القرية (الناحية) فالإقليم ، فالحكومة المركزية ، وبحيث تستند هذه الأخيرة فى سلطتها إلى السلطات المحلية والقروية ، ولا تستمد القرية سلطانها من المدينة كما هى الحال الآن . ولكن قصة الإدارة فى مصر قصة طويلة ، وقد تختلف فيها آراء المصلحين .

من كل هذا يتبين لنا أن موضوع القرية المصرية وإصلاحها موضوع خطير معقد ، يزيد من خطورته وتعقيده أنه يكاد يشمل الحياة المصرية فى جملتها ، وأنه يستلزم دراسة واسعة وعميقة لحياة مصر التقليدية . . . تلك التى يعرفها المؤرخون ، ويعنى بها الذين يدرسون حضارة البشر ، ويحرصون على ما فيها من تراث جميل . وريف مصر من هذه الناحية يمثل أقدم بقعة فى الأرض اتصلت فيها الحياة الدائمة المستقرة ، والحضارة القائمة المستمرة ، قد حباه الله بنيل كريم

يفيض بالخير ويجدد الحياة فى كل عام ، وهدى الله أهله إلى أن يعيشوا متكاتفين متضامنين ، فى قرى آمنة ، تجمع فيها الخلق ، واستجاب الفرد لمقتضيات التضامن الاجتماعى ، الذى هو خير ما تتكشف عنه نفس إنسان . وإذا كان صحيحاً أن الله قد جعل من مصر كنانته فى الأرض ، فقد شاءت حكمته أن يخرج من سكان قرى مصر أمة عريقة ومجتمعاً عرف كيف يحتفظ بوحدته وكيانه وطابعه الحضارى المميز خلال قرون وقرون . وليس عجيباً فى هذا المجتمع أن تكون القرية قد بقيت على الدوام نواة النظام الاجتماعى ودعامتـه التى يستند إليها بناء الأمة ، وأن يكون ما أصاب مدائن مصر وعواصمها من تغيير وتبديل فى مظهر المدينة فى بعض العهود لم يستطع أن يمحو ما رسمته الطبيعة ، ولا أن يهدم ما بنته يد الإنسان فى ريف مصر . ومع ذلك فليس من الحق ولا من الإنصاف أن نفسر ثبات الحياة فى الريف وقراه بأنه جمود أو تشبث بالقديم لا يفيد ولا يغنى فى العصر الحديث ؛ فقد يكون فى هذا الذى نسميه قديما بعض ما ينفع فى حاضر مصر ومستقبلها ؛ بل قد يكون من الخير أن نتنبه للأمر فلا نندفع فى التغيير والتبديل لمجرد التغيير والتبديل ، ولا ندع هذا التصدع الذى أصاب المجتمع فى أعقاب ثورته الزراعية الحديثة يستمر على غير هدى وفى غير ضابط . ومن يدرينا ! فقد يكون هذا التصدع الذى أصاب حياتنا الريفية والقروية منذ قرن أو يزيد ، والذى أشرنا إلى أمثلة منه فى هذا المقال ، سبب العلة فى ضعف مجتمعنا المصرى فى العهد الحديث . وقد تكون الثورة الزراعية ، على ما فيها من خير وبركة ، قد سارت بنا دون أن نحس إلى انقلاب خطير فى حياة مجتمعنا الريفى ، لا يدرك مداه إلا من درس تاريخ هذا المجتمع ومراحل تطوره دراسة جدية عميقة . وإذا كان هـذا كله صحيحاً - وهو ما نخشاه خشية محققة — فإن أمر الإصلاح الاجتماعى والريفى فى مصر يخرج عن كونه مجرد أمر يتوقف على الإرادة الطيبة والهمة الصادقة والرغبة الأكيدة فى تحقيق الخير والحق . . . يخرج عن ذلك إلى أنه أمر خطير يستلزم دراسة عميقة دقيقة ، لا لشؤون المجتمع فى الوقت الحاضر فحسب ، وإنما كذلك التاريخ المجتمع فى عصوره وأطواره الماضية . وإذا جاز لغيرنا من الأمم ذات التاريخ القصـير أن تعـرض عن الماضى ، فلا تعنى به فى رسم خططها الإصلاحية للمستقبل ، فإن ذلك لا يجوز بالنسبة لمصر ومجتمعها الذى يمتد

بأصوله إلى الماضى البعيد . بل قد يكون إهمال الماضى فى نظر كثير من الناس جرماً لا يغتفر ، وخسارة لا تعوض ؛ ففى تاريخ مصر ومجتمعها كثير من الثروة والتراث الطيب ؛ وفى ذلك التاريخ عبرة ودروس لمن شاء أن يعتبر او يتعلم . . . وربما كان أول هذه العبر والدروس أن النهضة الزراعية الحديثة لا تسير بنا بالضرورة فى الطريق القويم ، وأن الشر فى حياة الريف يزداد يوما عن يوم ؛ وقد لا ينقذنا من الكارثة إلا أن نردّ إلى حياة الريف شيئاً مما يعلمنا التاريخ . . . فنبعث فيه من جديد ، وفى صورة جديدة تساير الزمن ، روح التضامن والتعاون التى قامت على تأسيسها القرية المصرية فى عهودها الأولى ؛ ونقيم حياة القرية على أساس جديد من المنافع المحلية المشتركة والمصالح المتبادلة والنزعة الاستقلالية فى الحكم والإدارة . فنردّ بذلك كله إلى القرية اعتبارها المسلوب ، ونعود بها إلى ما كانت عليه أول الأمر ، وإلى ما كانت عليه فى عهود عظمة المجتمع المصرى وازدهار حياته بصفة خاصة ؛ ونجعل من القرية بحق نواة المجتمع تدور من حولها أفلاك نشاطه ، وتستند إليها دعائم كيانه ووجوده . . . بل نجعل منها رمز الخلود فى روح مصر علّه أن يبعث فتيًّا وأن ينشر قويًّا ، وعل مصر الخالدة أن تبقى على الزمن وتجدده ما بقيت على الأيام وتقلبها ، فتعيد فى مستقبلها بعض ما كان لها من سيرة خالدة فى ماضيها المجيد

سليمان حزين

هـ. ج. ولز

كان هـ. ج. ولز أديباً علمياً يكتب باللغة الانجليزية . ولكنه كان آخر من يرضى بأن يصف نفسه بأنه انجليزى فى قوميته ؛ فقد كان يكافح القوميات ويصف العالم بأنه « قريتنا الكبرى » وقد كتب كثيراً لهذه الدعوة العالمية التى نسير إلى تحقيقها على الرغم من الدعوات الانفصالية التى يزدحم بها عالمنا الحاضر من أثر العقائد والوطنيات واللغات والمذاهب والإمبراطوريات .

وربما ننسى أشياء كثيرة من ولز فى المستقبل . ولكن ليس شك فى أننا سنذكره بأنه الأب الروحى للعالم الجديد المتحد ، وبأنه أول من عمد إلى وضع التفاصيل لوضع حكومة عالمية ولغة عالمية وموسوعات عالمية ، بل ايضاً لوضع النصوص والشروط التى يستطيع أن يعيش بها أبناء هذا العالم وهم آمنون من استبداد الحاكمين والأولياء حتى الآباء .

وإذا شئنا أن نعين الطراز الذى ينتسب إليه ولز وجدناه أقرب إلى رجال النهضة الأوربية (من ١٤٠٠ إلى ١٦٥٠) منه إلى عصرنا . فهو من طراز دافنشى الرسام الجيولوجى البشرى المستقبلى . والاختلاف بينهما بسيط ، لأن الأول استعمل الريشة والثانى استعمل القلم ، ولكن كليهما عرف قيمة العلم ، وكان على وجدان بمغزاه فى مستقبل البشر وعلى تفاؤل بهذا المستقبل .

وقد روى عن دافنشى أنه حين مات حطت على رأسه حمامة ، فكانت رمزاً لطيران الإنسان ، هذه الأمنية التى فكر فيها هذا المفكر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكذلك مات ولز وهو يرى بعينيه فى العام الأخير من حياته هذا الكشف العالمى ، كدت أقول الكونى ، العظيم : الطاقة الذرية تخدم الإنسان . وصحيح أن هذه الخدمة كانت للشر والدمار ، ولكن ماذا [illegible] هذا ؟

أجل ! لقد اهتز ولز من هذا الكشف بل تزعزع وتكلم فى تشاؤم . ولكن

ما كان أحراه لو أنه عاش سنوات بعد هذا الكشف أن ينهض ويكافح ، وفق سيرته الماضية ، لاستخدام هذا العلم الجديد فى خدمة الإنسان . ولا بد أنه كان يظفر . فقد سبق أن حدثنا فى خيال علمى ، بديع مرعب ، عن غارة أبناء أحد الكواكب على أرضنا ، وكيف استولوا فى أيام قليلة على الأرض والبحر والجبل والسهل ، وكيف شرعوا يربوننا كما نربى نحن الأرانب ، فإذا جاعوا مصوا دماءنا ، ثم كيف نجونا منهم بالميكروبات ، هذه الميكروبات التى يزخر بها عالمنا وقد تعودتها أجسامنا ، ولكن أجسام هؤلاء الغرباء لم تتعودها ؛ ولذلك تعفنوا وهلكوا .

وجاءت الطاقة الذرية فى العام الأخير من حياة ولز ترمز إلى هذا الخيال ، كما حطت الحمامة على رأس دافنشى ترمز إلى صعود الإنسان إلى السماء . وقد تحققت الرؤيا الأولى ، رؤيا دافنشى ، فهل تتحقق رؤيا ولز فى استعمار الكواكب ؟

وهذا الطراز الجديد من الأدباء يتكاثر فى أيامنا . أجل ! أولئك الأدباء العلميون الموسوعيون الذين عرفوا القوة التحريرية فى العلم ، أى تلك القوة التى تحرر الناس من الكد وتبسط لهم آفاقاً فى الحياة الطويلة العريضة حين يكدّ لنا الحديد والكهرباء والذرة ، ولا يكون لنا بعد ذلك من هم واهتمام سوى الاستمتاع بالدراسة والكشف والاختراع والوقوف على أسرار الطبيعة . ولو أن ولز عاش أيام النهضة الأوربية حوالى ١٥٠٠ لكان واحداً من رجال النهضة ؛ لأنه كان يدعو فى حماسة إلى « البشرية » ، وكان يكافح « الغيبية » . وقد تغير معنى « البشرية » من أيام النهضة لأيامنا ؛ فكانت قبلا دعوة إلى قراءة مؤلفات الإغريق والرومان القدماء . أما الآن فهى ، فى معناها الامريكى ، دعوة إلى مقاطعة الغيبيات .

وليس غريباً أن تنشأ هذه الدعوة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث العلم مزاج نفسى وتطبيق عملى ومذهب دينى . وليس من شك أن لكل هذا نقائصه بل شروره . ولكن للحوادث حتمية تتجاوز النيات البشرية . ومن هنا الحاجة الملحة إلى مثل هـ . ج . ولز كى يعمل للتوفيق بين المعارف فلا يجعل إحداها تتمكن منا وتوجهنا بدلا من أن نتمكن نحن منها ونوجهها . وقد أوشك أن يحدث مثل هذا من الطاقة الذرية .

عمد ولز إلى القصة . وهو بلا شك قصاص ماهر ، ولكنه لو خير لآثر على القصة الشرح الموضوعى . وهناك قصص ألفها فى الفترة الأولى من حياته الأدبية يبدو أنه التذ كتابتها وسُرَّ بما فيها من براعة فنية . ولكنه فى السنين الأخيرة ، أو بالأحرى منذ بداءة الحرب الكبرى الأولى إلى الآن ، جعل القصة وسيلة إلى نشر بحوثه الاجتماعية العلمية . ولكن يجب ألا نخطئ فنزعم أنه اختار هذا الطراز من القصة ، لأن الاختيار لا مكان له . ذلك أنه حين ابتدأ يكتب فى العقد الأخير من القرن الماضى كان العصر والظرف ، كلاهما يتيح إلى حد ما ، نبوغاً فردياً أو اقتحاماً شخصياً ؛ فكان هناك مجال للبطل فى القصة ، ينوى فيعمل ، ويريد فينجح ، أو على الأقل كان هذا هو الفهم العام . والأغلب أنه كان فهماً مخطئا حتى فى ذلك الوقت . ولكن منذ بداءة هذا القرن أخذ الوسط يتغلب على الفرد ، وكان وسط القوات الاقتصادية الآلية ، فصارت الأعمال « تكيف » النيات وتوجه الإرادات . ولذلك أصبحت قصص ولز رسائل مسهبة فى التحليل النفسى أو التضخم الاقتصادى أو الاتجاه السياسى ، وانحط شأن الفرد فى القصة لهذا السبب .

سألنى ذات مرة أحد القارئين عن أحسن كتاب قرأته فى اللغة الانجليزية من حيث الأسلوب. فقلت له ببديهتى : كتاب داروين « أصل الانواع » . ولم أكن مازحا فى هذا ؛ لأنى أحس أن أسلوب التفكير الذهنى عند داروين خير ألف مرة من أسلوب العاطفة المزيفة أو الخالصة عند أوسكار وايلد ؛ لأن الفن الذهنى خير من الفن العاطفى .

وأسلوب ولز الأديب العلمى هو أسلوب داروين لا أسلوب أوسكار وايلد . ولو أن ولز نفسه سئل عن أسلوبه من أى الطرز هو لأجاب بقهقهة عالية ؛ لأنه لو استطاع أن يكتب بالعامية وأن يصل منها إلى غايته فى سعة الانتشار لما أحجم .

وقد استخدم ولز العلم بمهارة كبيرة فى القصة أكبر من المهارة التى استخدمه بها چول ڤيرن . ولكنه وجد أن القصة لا تؤاتيه على إيضاح أغراضه ، فتركها وعمد إلى ماوصفناه بأنه « رسالة مسهبة » فى شرح الموضوعات التى يتماس فيها العلمان : المادى والاجتماعى .

ولعل أعظم ماحمله على ترك القصة أنه رأى أن إغفال البطل منها يجعلها ماسخة ؛ لأن حيوية القصة بأشخاصها . وأغلب القصص ، يجعل مرتكز هذه الحيوية ،

الغريزة الجنسية ، فما تفتأ جميع القصص تتحرش بهذه الغريزة . والانتقال من هذا التحرش العامي إلى البحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة يحدث للقارئ صدمة لا تتفق وفن القصة . وهذه القصص الخطيرة التي عالج فيها ولز مشكلات المجتمع لن تعيش ؛ لأن هذه المشكلات تتغير ويجدّ غيرها بتغير الوسط الاجتماعي الاقتصادي . لأن مالنا من عواطف وأمان وما يرافقهما من سلوك وتفكير إنما هو كله ثمرة الوسط الاجتماعي الاقتصادي . ولذلك فإن القارئ لقصص ولز الاجتماعية بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف يجدها غريبة عن قلبه وعقله ، في حين أن تلك القصص الأولى التي تحوي « أبطالا » سوف تقرأ في لذة مهما طال عليها الزمن ، وخاصة تلك التي يعمد فيها ولز إلى فكاهاته التي تقارب بل أحياناً تطابق ماخلفه ديكنز أحد أمراء القصة في القرن التاسع عشر .

قال ولز في كتابه « طوالع الإنسان » ، وهو كتاب يبحث فيه مشكلات البشر ومستقبلهم

« لقد استغرق جزءاً كبيراً من حياتي الوجدانية ، كفاحي لأجل نشر المعارف المثمرة . فقد حاولت أن أجمع وألخص المعارف الراهنة كي يستطاع استغلالها في المعيشة البشرية ، وكي أحمل غيري ومن هم أكفى مني على أن يقوموا مثلي بهذا العمل . وكذلك عملت كي أجمع بين النظم غير المتناسقة من التفكير بشأن الحقائق ، وهي نظم ، يتجاهل كل منها الآخر ، في بلادة الذهن وإضاعة الفرصة ، كما أن كثيراً من التشوش الذهني في التفكير البشري يعود إليها . ذلك أن هذه الفلسفات والغيبيات المتناقضة ، التي لم تتناسق ، تزحم الذهن البشري . وعدم تناسقها هذا يرجع إلى أن كلاً منها يتجاهل الآخر . وأنا لا أطيق هذه المتناقضات ؛ لأني حين أعالجها أجد أنها تقلقني وتربكني . . . وما لذهني من ميزة خاصة أو نقص خاص إنما يرجع إلى صفة واحدة . فاذا مدحت قلت إن عقلي يجابه المشكلات ، وإذا ذممت قلت إنه لايفطن للخفي . فأنا لا أطيق التفاصيل المربكة أو الأكاذيب العرفية لأني أخشاها جميعاً . . . وأنا أطرق فكرتي كما لو كانت سنداناً . . . »

أجل ! لقد طرق ولز طائفة من الفكرات ودق عليها في تكرار ، ولكن في كل مرة ، يختار ناحية أخرى منها غير تلك التي دق عليها من قبل . ولذلك

انتقل من القصة إلى المقال الاجتماعى ، ثم جعـل القصة تتناول بحوثا اجتماعية مختلفة . وأخيراً ترك القصة أو كاد إلى تأليف الكتب الضخمة فى الاجتماع .

وقد نجح كل من أبسن وشو فى استخدام الدرامة للبحوث الاجتماعيـة . واحتفظ الأول بمئة فى المئة من فن الدرامة ، واحتفظ الثانى بأكثر من خمسين أو ستين فى المئة . ولـكن لا يمكن أن يقـال إن ولز نجح فى استخدام القصة حتى إلى الحد الذى بلغه شو . والحق أن المسرح يتيح للمؤلف معالجة المشكلة الاجتماعية أكثر مما تتيحه القصة ؛ لأن الأشخاص على المسرح يجسمون المشكلة بلا شرح مسهب لما تحويه من عُقَد . ولـكن مؤلف القصة يضطر إلى مثل هذا الشرح فتنقلب القصة إلى بحث اجتماعى كثيراً ما يتعارض مع أصول الفن فيها .

عندما أتامل حياة ولز ومؤلفاته أحس أن شهوته الذهنية الأولى هى العلم . فقد تتلمـذ للعظيم توماس هكسلى (والد چوليان وألدوس) ، الذى جعل من نظرية التطور مذهبا جهاديا ، وقضى حياته فى مكافحة المظلمين والغيبيين كى يجعل هذه النظرية مألوفة تتحدث عنها الصحف ويسلم بها العامة . وقد نجح فى ذلك . وشىء من هذا الروح الـكفاحى قد انتقل إلى ولز ؛ فإنه حين ألف « خلاصة التاريخ » بل حتى فى أواخر السنين من عمره لم يكن ينسى أن ينبه إلى أننا كنا سمكا قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون سنة ، فكيف نكون بعد مثل هذه الملايين فى المستقبل ؟ وقد نبعت تكهناته المختلفة ، الخيـالية والحقيقية ، من هذه البؤرة . فمن التكهنات الخيالية هاتان القصتان : « حرب العوالم » و « ناس كالآلهة » . ومن التكهنات الحقيقية الحرب الأوربية الـكبرى الثانية ، والدبابات والطائرات ، والقنبـلة الذرية . وكانت بصيرته ، لسوء حظ البشر ، صادقة فى كل ذلك .

ولـكن ولز انقطع عن البحث العلمى ؛ لأنه اضطر عقب حصوله على درجة « بكالوريوس فى العلم » إلى ان يسعى لرزقه ، فاختار القصة الخيالية والفكاهية أولاً حتى إذا زالت عنه الحاجة الملحة عمد إلى البحوث العلمية الاجتماعية ، أو ، كما قال هو ، محاولة التنسيق بين المعارف المادية والنظام الاجتماعى . وكأنه بهذه البحوث قد استأنف إشباع شهوته العلمية الأولى ولـكن فى الميدان الاجتماعى .

وكتاب « خلاصة التاريخ » يعد حسناً من حيث إنه محاولة أولى فى اعتبـار

العالم أمة واحدة تسير متساندة فى موكب الحضارة : الكتابة فى مصر ، والورق فى الصين ، والمطبعة فى ألمانيا ، ثم بعد ذلك انفجار الثقافة على العالم كله . أو ، من قبل ذلك : الزراعة فى مصر ، ثم نقود الأسكندر وجيوشه وفتوحاته ، ثم انفجار الحضارة الإغريقية المصرية الرومانية فى البحر المتوسط . ثم يتصل العالم ويتشابك ، حتى إننا نرى ملكا هنديًا فى بداءة القرن الثانى قبل الميلاد يبعث إلى الأسكندرية يدعو المصريين إلى البوذية . ثم يزداد التشابك بمخترعات القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين إلى أن يعود استقلال الأمم وانفرادها مستحيلا بل ضارًا . إذ يجب التوحيد السياسى للعالم بحكومة واحدة .

وقد عاش ولز أيام طفولته فى بدروم ، وكانت أمه خادمة للأسرة التى تعيش فى الطبقتين العليين . وكانت أمه ، كما هو الشأن فى الخادمات ، تخشى صعوده إلى إحدى الطبقتين . ولذلك هو يذكر من أيام طفولته ذلك البعبع الذى يسكن فى الطبقة العليا. وقد أتاح له نجاحه أن ينتسب بعد ذلك إلى الطبقة المتوسطة ، ولكن بقى فى نفسه خوف الفقر إلى يوم وفاته . وعندى أن هذا الخوف هو ، فى سيكلوجية الأعماق الفرويدية التحليلية ، السبب لكراهته للاشتراكية الماركسية أو حرب الطبقات ؛ لأنه أبى أن يمثل طبقات العمال الذين ولد معهم فى ظلام البدروم ، وأصبحت دعوته إلى الاشتراكية هى الدعوة الفابية أى اشتراكية التطور السلمى بالإصلاحات المتدرجة التى يقبلها أبناء الأمة جميعهم فقيرهم وثريهم .

وقد زار روسيا مرتين ، فلم يرتح إلى اشتراكيتها ، وفهم منها مثلما فهم برنهام الأمريكى فى كتابه « الثورة الإدارية » أى إن القائمين بإدارة المصانع والمزارع والمكاتب قد أخذوا فى النظام الجديد مكان المالكين فى النظام القديم من حيث التمتع بامتيازات الأجور أو الرواتب العالية وغيرها . ولكن ليس شك فى أن حجة ولز ضعيفة جدًا فى مكافحته للماركسيين . وقد أنفق كثيراً من جهده فى هذه المكافحة العقيمة ، وكان فى مستطاعه أن يتركها ، وخاصة لأن موضوعه الأصلى وهو « الحكومة العالمية » لا يحتاج إلى مثل هذه المكافحة . فقد آمن هو بالاشتراكية ، ووجد أنها ضرورية للسلام والطمأنينة للأفراد والأمم . ومشاجرته هنا للماركسيين الإشتراكيين تشبه مشاجرته القديمة فى ١٩٠٦ حين وقف فى الجمعية الفابية ، وهى جمعية تدعو إلى الاشتراكية

السلمية التدرجية ، يدعو إلى الكفاح السياسى ، فى حين كان زعماؤها قانعين بالكفاح الثقافى . ووجد نفسه أيضاً أنه ضد مبادىء ماركس أى ضد حرب الطبقات ، والمنطق الكلامى ، والدوليات ؛ مع أن هذه « الدوليات » كانت الطليعة للبرنامج العالمى الذى انتهى إليه بعد ذلك . ولكن يمكن الدفاع عن ولز هنا بأنه أيقن فى تلك السنين أن المزاج الانجليزى أقرب إلى المبادىء الفابية السلمية منه إلى المبادىء الماركسية . وحكومة العمال القائمة الآن ، بعد أربعين سنة من مشاجرته مع الفابيين ، تدل على أنه قد صدق هنا أيضاً فى تكهنه السياسى ، كما سبق أن صدق فى تكهناته العلمية . وفى تلك الفترة وضع كتابه عن الاشتراكية « عوالم جديدة للقدامى » ، وغايته أن يثبت أن الأثرياء والمتوسطين يجب أن يقبلوا النظام الاشتراكى مثل العمال ؛ لأن مصلحتهم تقتضى ذلك .

ولكن ولز سيعرف فى السنين القادمة بجهاده لأجل التوحيد العالمى . وأول ما نجد هذا الاتجاه واضحاً فيه هو فى كتابه الذى ألفه فى ١٩٢١ « استنقاذ الحضارة » . وفهرست الكتاب تدل عليه : المستقبل المرجح للبشر ، مشروع الدولة العالمية ، التوسع الوطنى إلى الدولة العالمية ، إنجيل الحضارة ، تعليم البشر ، الكلية والجريدة والكتاب .

وهذه الفهرست لا تحتاج إلى شرح . فهو يقترح إيجاد حكومة عالمية تهيىء البشر جميعهم بتعاليم موحدة إلى وطنية عالمية .

وفى ١٩٣٢ وضع كتابه « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » وهو دراسة موضوعية للحال القائمة للعالم فى تلك السنة كأنها الجغرافية الاجتماعية . اعتبر الفهرست أيضاً : كيف أصبح الإنسان حيواناً اقتصاديًّا ، كيف تعلم الانسان التفكير والتسلط على القوة والمادة ، التسلط على المسافات ، التسلط على الجوع وكيف يغتذى الإنسان ، التسلط على المناخ ، كيف تشترى السلع وتباع ، كيف ينظم العمل ، لماذا يعمل الناس ، كيف يكافأ العمل وكيف تجمع الثروة ، الغنى والفقير وخصومتهما التقليدية ، مهمة المرأة فى عمل العالم ، حكومات البشر والقتال الحربى والاقتصادى ، عدد البشر وصفاتهم ، الطاقة الفائضة للبشر ، كيف يعلم البشر ويدربون ، طوالع البشر .

ثم كتابه « أشكال الأشياء القادمة » وهو تعقيبات وشروح وتكهنات عن الكتاب السابق . وقد وضعه فى ١٩٣٣ .

وأخيراً كتابه «طوالع الإنسان» وقد ألفه فى ١٩٤٢ . وهو أيضاً مثل الكتاب السابق تعقيبات وشروح .

وصفحات هذه الكتب الأربعة تبلغ نحو ألفى صفحة كبيرة . وهى جميعها حافلة بالإحصاءات والإشارات إلى دراسات أخرى .

ومن هذه العجالة يرى القارئ أن ولز طراز جديد من الأدباء . أجل ! هو أديب علمى ، سوف نرى فى هذا القرن مئات يسيرون على الطريق الذى شقه . ولن يكون هذا للتقليد ، ولكن لأن أدباء القرن العشرين سيجدون من واجبهم أن يقفوا حياتهم على حل المشكلة القائمة ، وهى التقدم الرائع فى العلوم المادية مع الجمود التام فى العلوم الاجتماعية ، وما ينتجه هذا من الرعب فى جميع المتبصرين المتكهنين الذين يرون الطاقة الذرية تصطدم بالغيبيات .

سلامه موسى

إلى البلبل

أيهـــا البلبـل المغنِّى سلاما ... ما أرقَّ الغـناء والأنغاما !
شاقنى صوتك الجميل ، وأحيا ... فى حياتى الأفراح والأحلاما
وسبانى الصياح يطلق فى الآف ... ق ســناه مغرداً بساما
والطيور التى تبــادلك الألـ ... حان حبًّا وألفـة وانسجاما
والزهور التى تزيد جمـــالا ... حين تلقــاك شاديا مستهاما
كعذارى يسمعن همساً رقيقاً ... من شـــفاه تبثهن الغراما

أنت يا بلبلى تغنى غنـــاء ... يجعـل النفس تستعيد الرجاء
ويزف الربيع للقـــلب حتى ... لا يرى القلب فى الحياة شتاء
أنت روح علوية تعشق النو ... ر ، وتهوى الآفاق والأرجاء
وترى غاية الحياة غنـــاء ... يملأ الـكون فرحة وبهـــاء
ورســـول من السماء إلينا ... يبعث الحب والمنى والرجاء
لنرى كيف نجعل الحياة نعيما ... وسلاما وبهجـــة وصـــفاء

أنت تحيـا فى غبطة وحبور ... بين أيك وربوة وغـــدير
لك ما تشتهى الحيـــاة إذا جا ... شت بسر المنى، وروح الشعور
إنما أنت فى الحيـــاة طليق ... لست مثلى تعيش عيش الأسير
فتنقّـل بين الرياض طـروبا ... أو فحلّـق بين الفضاء الـكبير
وإذا ضمك المساء فطر شو ... قاً إلى عشك الجميـــل الوثير
فاقض فيه ليـل الصبابة حتى ... يقــبل الفجر هاتفاً بالطيور

يا سليل الحياة ، يا ابن الزمانِ ... صوتك العذب رنَّ فى وجدانى
أنت علمتنى الغنـــاء فأصبحـ ... ـت أغنى بهجتى وكيـــانى
إننى دائمـــاً أذوِّب روحى ... فى قواف تموج بالألحـــان
أنا فى مهجتى مشاعر ما زا ... لت تعانى فى سجنها ما تعانى
فادنُ منى كيما أبثـــك أفرا ... حى ، وأشكو إليك من أحزانى
وكفانى أنى أعيش غريبـــاً ... بشعورى فى عالم الإنسان

ليتنى بلبل يعيش ســـعيدا ... يقطع العـــمر طائراً غرِّيدا
أنا فى عالم يقيـــد روحى ... وهى تشتاق أن تفك القيودا
غير أنى لم أعرف اليـأس يوما ... لا ، ولم أفقد الرجاء الوليدا
إننى دائمـــاً أطل بروحى ... نحو أفق يضم فجراً جديدا
سوف يبدو سناه يوما لعينى ... فأرى فيـــه حلمىَ المنشودا ١
وترفُّ الحيـــاة فى قلبىَ البا ... كى ســلاما وفرحة ونشيدا
أمل ساحر أراه قريبـــاً ... فأغنِّى ، وقد أراه بعيـــدا

ابراهيم محمد نجا

صورة من عهد النهضة الأوربية

البابا والمثال

عند ما قابل البابا يوليوس الثانى المثّال لأول مرة ، كان كل منهما قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه . فلم يكن البابا شبحاً من تلك الأشباح العابرة التى جلست على كرسى القديس بطرس وتركت أسطراً على صفحات التاريخ ضئيلة ، بل برزت مواهبه منذ نصبه عمه البابا سستو الرابع كردينالا ، فكان من أقوى ذوى القبعات الحمراء شخصية ، ومن أمضاهم عزيمة ، وقد عرف بالسخاء فى تشجيع العلوم والفنون ، كما عرف بشدة العارضة واللّدَد فى الخصومة إذا غضب . فما إن مضى به الزمن وامتدت به الحياة حتى صار فريق من الناس يعتقدون أنه أولى من غيره بالجلوس على كرسى البابوية وأجدر رجال الدين بأن يملأ هذا العرش الكبير .

لكن إسكندر السادس ، أو إسكندر بورچيا إذا أحببت ، فاز بالانتخاب دونه بعد وفاة نيقولا الخامس . ولم يقنع اسكندر السادس ، أو لم يقنع أبناؤه ، بأن يكون جالساً على العرش الرومانى للمسيحية والمدنى لروما وتوابعها من بلاد وأراض واسعة فى إيطاليا ، بل أراد أن يؤسس ملكا لبنيه ، وطمع ابنه شيزارى بورچيا فى أن يكون ملكا على إيطاليا بأسرها ، جاعلاً نواة هذا المطمح العظيم أن ينتزع أرض الكنيسة من الكنيسة .

وكان من الطبيعى أن يكون الكردينال دى روڤيرى ، الذى نذكره تحت اسم يوليوس الثانى ، أشد خصوم البابا وأبنائه فى مشروعاتهم ، وأكثر الناس تنديداً بمطامعهم ، وكان آل بورچيا لايتورعون عن محاربة خصومهم بجميع الوسائل . حتى الوسائل التى تعد جرماً من فرد عادىّ بَلْهَ رجلٍ من رجال الدين ، بل بَلْهَ بابا أو كرادلة ، فكانوا مثلا — هكذا أثبت ذلك التاريخ ، أو لم يثبت وإنما هكذا قال معاصروهم — يلجأون أحياناً

إلى طريقة بسيطة فى التخلص من خصومهم : فكأس من الشراب مشوب بمادة يعرف آل بورچيا سرها كفيلة بذلك .

لذلك رأى الكردينال دى روڤيرى مع خصومته وشدة عارضته — كما رأى غيره من كرادلة — أن حياته ليست بمأمن فى روما ، واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى ملك فرنسا ، يعيش فى أرضها ويقيم فى الوقت نفسه حرباً عواناً على بابا بورچيا .

فإذا مات البابا إسكندر السادس فى ظروف غامضة ، إذ كان الناس لا ينتظرون وفاته ، توقع الناس أن يليه الكردينال دى روڤيرى غريمه . ولكن ذلك لم يحدث ؛ لأن الكرادلة كعادتهم يُؤْثرون البابا الضعيف على القوى ، وانتخب الكردينال بيكولمينى باسم پايوس الثالث ، ولكنه لم يعمر غير بضعة أشهر ، وانعقد مجلس الكرادلة ، فلم يكن بد من انتخاب يوليوس الثانى .

ولسنا نريد أن نسرد تاريخ هذا البابا العجيب ، فقد برزت قوته بمجرد توليه كرسى البابوية ، فهو لم يقنع بأن استخلص أراضى الكنيسة من شيزارى ، واضطره إلى التشرد والنفى والموت فى بلاد بعيدة ، بل أخذ يستخلص غيرها من الأراضى التابعة للبابا ، فشن الحروب وسير الجيوش على مدينة پيروچيا ، ثم على مدينة بولونيا ، وكان يسير مع جنوده فى ثياب أقرب إلى ثياب القواد منها إلى ثياب البابا ، وهو يستحث جنوده على القتال ويدخل فى طليعتهم إلى المدن إذ تسلم إليه .

ولقد نعجب إذ نرى أن المؤرخين والكتاب من الفرنسيين إلى اليوم يحبون أن ينحوا باللائمة على البابا يوليوس الثانى ، ويزعمون أنه نبذ ما يليق بالبابا من وقار ، وأنه كان يسلك مسلك القواد المرتزقة — الكوندتييرى — الذين كانوا يؤجرون أنفسهم وجنودهم لأمراء الدول الإيطالية ، وللبراطرة والملوك الذين كانوا يطمحون دائماً إلى الاستيلاء على المدن والبلاد الإيطالية . ولكن لعل الكتاب الفرنسيين متأثرون حتى الآن بموقف البابا نحو بلادهم . فلقد عرفنا أنه لجأ إلى فرنسا وهو كردينال . ويجب أن تعرف أن الكرادلة الفرنسيين أيدوه ، وعملوا على انتخابه لكرسى البابوية ، وكانوا ينتظرون منه أن يؤيد سياسة فرنسا ومطامعها ، ولكنه لم يفعل ، بل سلك سياسة مستقلة غرضها

الأول حماية ما للكنيسة من نفوذ سياسى . وكان طبيعيًّا أن يصطدم فى مبدأ حكمه بملك فرنسا ؛ فقد تحدى الملك فى أغراضه ، ولم يتردد فى قتال الفرنسيين ، وعرف كيف ينهزم أمامهم ، ثم كيف يهزمهم .

أما المؤرخون الألمان فإنهم جميعاً ، أو أكثرهم ، يعتبرونه أعظم رجل جلس على كرسى البابا فى عصر النهضة . ولعل ما اتصف به من روح الحرب والقتال ، مما يخرج به عن موقف رجل الدين ، قد صادف هوًى فى نفوسهم وفى طبيعتهم المناضلة . ولكن ما لنا نحن الشرقيين لا ننظر إلى هذا البابا وزملائه من الذين حكموا روما فى عصر النهضة نظرتنا إلى النظام القائم عندئذ فى الشرق ! ألم يكن الخليفة من بنى العباس رجل دين ودنيا معاً ؟

على أن ما يهمنا فى السنوات الثمانى من حكم البابا يوليوس الثانى ، ليس حروبه ، فتلك قصة رائعة لذيذة ، وليس هذا موضعها ، ولكن ما يهمنا هو ذلك النشاط الفنى العظيم الذى ظهر فى عصره نتيجة لتشجيعه . فالبابا يوليوس الثانى حوّل روما من مدينة خربة من مدن القرون الوسطى ، إلى مدينة من مدن الفن الخالدة ؛ فقد جذب إليها أكبر رجال الفن فى عصره ، وكان من حسن طالعه أن عصره يعج بالرجال النابغين فى مختلف الفنون ، فجذب إلى روما أكبر المهندسين ، وأكبر المصورين ، وأكبر المثّالين .

ولقد خدمه حشد منهم ، نذكر من بينهم برامنتى ذلك الذى أشرف على العمل فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، فصارت تحفة نادرة من تحف الفن كما نراها اليوم ، وهو الذى عرف ما فى الصبىّ رفاييل من مقدرة على التصوير ، فعهد إليه أن يضع تلك الرسوم الخالدة التى نراها إلى اليوم فى شرفة من شرفات قصر الفاتيكان ، ولكن الصفحة البارزة فى حياته الفنية ، هى قصته مع ميكل أنجلو ذلك المثال الخالد .

لقد نشأ المثال ميكل أنجلو بوناروتى فى مدينة فلورنسا ، من أسرة عريقة ، وفى عصر لورنزو دى مديتشى الفخم ، وظهرت مواهبه الفنية وهو لا يزال طفلا ، وبدت هذه المواهب جلية لوالده ، فلم ير بدًّا من الاستجابة لميول الصبى ، فعهد فى تعليمه الرسم إلى جريلاندايو من أكبر المصورين فى فلورنسا ، فأظهر فى وقت قصير مقدرة فى فن التصوير وأثار اعجاب أستاذه ، حتى قال ذات مرة إنه ليعرف أكثر مما أعرفه أنا .

وكان لورنزو دى مديتشى محبًا لفن التماثيل ، فجمع مجموعة عظيمة من التماثيل القديمة ، وأنشأ فى حديقته بساحة سان ماركو مدرسة يتعلم فيها الشبان هذا الفن ، واتخذ برتولدو المثال لها رئيساً . فطلب من جريلاندايو أن يختار له من بين تلاميذه من يميل إلى فن التماثيل أكثر من التصوير ، فاختار له ميكل انجلو الذى أخذ بعد بضعة أيام فى احتذاء بعض التماثيل القديمة مع أنه لم يلمس الرخام من قبل . وأعجب لورنزو برأس رجل شيخ نقله المثال الشاب إعجاباً شديداً . وكان الشاب فى دقته قد فتح فم التمثال ووضع داخل الفم لسانا والأسنان كاملة . فقال له لورنزو ضاحكا : ألا تعلم يابنى أن الشيوخ يفقدون دائما بعض أسنانهم ! وكان الشاب يحترم الأمير احتراماً كبيراً . ولم يأخذ الملاحظة على أنها دعابة ، فكسر بعض الأسنان وعدّل من اللثة . فلما شاهد الأمير ذلك زاد ضحكه وزاد إعجاباً بمهارته ، وأرسل فى طلب والده واستأذنه فى أن يقيم الصبى فى القصر ، ويطعم من طعامه ، وكان عندئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، وقد ظل مقيما فى القصر إلى وفاة لورنزو .

لم يكن الشاب ليقتنع بما ظهر من مهارته ، فأخذ يحاول أن يتعرف الجسم الانسانى ، وكان فى ذلك الوقت يصنع صليباً من الخشب لكنيسة روح القدس بفلورنسا ، فأنزله رئيس الكنيسة فى غرفة مناسبة ، وسمح له فى تشريح بعض الجثث ليقف على تكوينها ، وبذلك زاد خبرة ومعرفة بتركيب الجسم الإنسانى وما فيه من عضلات .

ثم سافر قبل طرد أسرة مديتشى من فلورنسا بقليل إلى البندقية ، فلم يجد عملا ، فرحل عنها إلى مدينة بولونيا حيث أقام أكثر من سنة بين أسرة كبيرة عرفت قدره ، ثم عاد إلى وطنه . وحدث فى ذلك الوقت أن صنع تمثالا للقديس يوحنا لأحد أفراد أسرة مديتشى ، ثم صنع تمثالا من الرخام لإله الحب وهو نائم . فلما شاهده أحد العظماء قال له : إنك لو أرسلته إلى روما على أن يدفن فى الأرض ثم يخرج منها ، لظنوه تمثالا قديماً ، ولدفعوا لك أضعاف ما تجنيه من ثمنه فى هذه المدينة . وقد فعل ، وجاز الأمر على الكردينال سان جورجيو ، فاشتراه بمائتى دينار ذهباً . وشاع الأمر بعد ذلك فى مدينة فلورنسا ، واضطر إلى رد النقود ، وإن كان المشترى لم يسلم من النقد لأنه لا يهتم للفن الحديث مهما كان إتقانه .

وكان فى فلورنسا قطعة من رخام أفسد مثال من مقاييسها فلم تعد صالحة لشئ ، وظلت ملقاة لا نفع منها ، إلى أن استأذن ميكل أنجلو فى أن تعطى له ، فوضعتها إدارة المدينة تحت تصرفه ، فاذا به يصنع من تلك القطعة التى كانت لا تصلح لشئ ، تمثالا خالداً يمثل صورة البطل داڤيد ، فكان هذا التمثال وسيظل دائماً فخراً للمثال ولموطنه .

إذن كان كل من البابا والمثال قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه ، عند ما أرسل البابا يوليوس الثانى فى طلبه ، وكان المثال مع كل ما بلغه من شهرة حول الثلاثين من عمره ، ولا يزال فى شرخ شبابه ، وهو متوسط القامة نحيل متوتر الأعصاب ، أكتافه عريضة على أنها متناسبة مع قامته ، وكان وجهه كبيراً ، وتبدو فى عينيه الصغيرتين مظاهر الطيبة ، وهو غير قبيح الصورة مع أن أنفه كان أفطس إذ كسر عقب حادث وقع له فى صباه . وكان ميكل أنجلو سريع الغضب سريع الرضا . أما البابا فكان يبدو ، كما نراه فى صورته التى رسمها له رفاييل ، طويل القامة نحيلا بعينين متوقدتين نافذتين ، ويبدو كما نراه فى هذه الصورة أيضاً ، متوثباً سريع الغضب أيضاً وسريع الرضا . وكان البابا قد عرفه لا بشهرته فقط ، بل لأنه شاهد شيئاً من أعماله الخالدة . فقد رأى ذلك التمثال الرائع الذى يمثل حنو الأم المقدسة نحو ولدها الجريح ، والذى نشاهده ونعجب به إلى اليوم فى الركن الأيمن من كنيسة القديس بطرس . فلما جاءته دعوة البابا أسرع إلى روما ووصل إليها فى شهر مارس سنة ١٥٠٥ ، فوجد فى البابا أكبر عاهل يقدر رجال الفن ويحفظ لهم كرامتهم . وكان البابا يتابع أعمال الفنان فى اهتمام كبير ، ويلح عليه فى إتمام مابدأ به من عمل الحاح الطفل فيما يرغب فيه . ولا ينتهى الفنان من عمل حتى يكل إليه البابا عملاً آخر . وكان البابا والفنان متفاهمين كل التفاهم ، ولكن كل منهما كان حاد الطبع عنيفا ؛ فكانا على ما لديهما من حب واحترام متبادل ، تقع بينهما مصادمات ومشادات لا يلبث أثرها أن يزول ، ويتغلب عليها ما طبعا عليه من طيبة قلب وحب للفن وتقدير له .

عهد إليه البابا أول ما عهد فى إنشاء بناء فخم يكون من الرخام يوضع فوق قبره ، وقد أراد البابا أن يتم ذلك فى حياته ، فأعد ميكل أنجلو عدة رسوم واختار البابا إحداها ، ووقع المثال عقداً فى أن يتم ذلك النصب فى خمس

سنوات، على أن ينقد ثمنا قدره عشرة آلاف دينار ويمنح فى هذه السنوات الخمس راتبا شهريا قدره مائة دينار . وتحمس ميكل أنجلو لهذا العمل، وسافر إلى تلال مدينة كارارا المشهورة بصفاء رخامها ليختار الأحجار بنفسه وظل يراقب العمال حتى أتموا إستخراج قطع الرخام التى نقلت إلى روما بالبحر، وكانت تزن نحو عشرة ومائة طن، واستغرق هذا العمل ثمانية أشهر.

عاد إلى روما بأحجاره التى وصلت بعد صعوبات كبيرة، فأقام مصنعه فى ساحة سان بيترو، واستعد للعمل فى هذا البناء التذكارى الذى لو أنه تم كما بين فى الرسم لكان أعجوبة الزمن.

ولكن ميكل أنجلو كان يدبّر لعمله والبابا يدبّر لعمل آخر: ذلك أن أفكار البابا أخذت تتجه وجهة جديدة؛ فقد رأى قبل أن ينشىء هذا النصب الذى ليس له مثيل والذى كان يقدر وضعه فى كنيسة القديس بطرس، أن يجدد الكنيسة نفسها ويعيد بناءها، بحيث تصبح جديرة بمقر المسيحية وموئل رئيسها. وإذن فقد رأى أن يوقف بناء النصب مؤقتا إلى أن يشرع فى تجديد الكنيسة، كى يكون هنالك تناسق بين فخامة البناء وفخامة النصب التذكارى. وفى الوقت نفسه كان البابا يدبر عملا فنيًا آخر لميكل أنجلو، وهو أن يغطى حوائط المصلى المعروفة باسم البابا سستو بالرسوم، وكان ميكل أنجلو قد ترك فن التصوير منذ صباه واتجه بميله نحو النحت، فتلكأ فى إجابة البابا إلى رغبته، واعتذر بانه لايتقن التصوير، وأنه وقد بدأ فى العمل الذى تعاقدا عليه، واستأجر أعوانا من رجال الفن من فلورنسا بعد إذن البابا، ونقدهم نقوداً من عنده، وأنفق فى سعة على العمل غير منتظر الأقساط التى تدفع إليه، لا يستطيع الآن أن يترك هذا العمل. وطلب مقابلة البابا شخصيًا، ليشرح له الظروف ويقنعه بالسير فيما اتفق عليه، لاسيما أنه نمى إليه أن البابا صرح لبعض رجاله بأنه لن ينفق فلسا على الأحجار. على أن البابا لم يقابله بل أجل مقابلته أسبوعا، فلما ذهب فى الموعد المضروب قيل له إن البابا مشغول عن مقابلته فى ذلك اليوم، فاستشاط غضبا وصاح قائلا: « أخبروا البابا بأنه إذا أرادنى فليجدنى إذا استطاع ذلك ». وخرج مسرعا من القصر، فطلب من أتباعه أن يبيعوا متاعه وامتطى جوادا ورحل عن روما وهو لا ينتوى الرجوع إليها.

أخبر البابا يوليوس بفرار ميكل أنجلو وكان ذلك فى اليوم السابق للاحتفال

بوضع الحجر الأساسى فى بناء كنيسة القديس بطرس ، فأمر بأن يجدّ بعض جنوده فى أثر المثال الهارب وأن يأتوا به ولو قسراً إذا اضطروا إلى ذلك . ولكن المثّال كان يسرع العدو ، ولم يهدأ باله حتى وصل إلى حدود دولة فلورنسا . وهنالك أدركه الرسل وسلموه رسالة البابا التى يأمره فيها بالعودة وإلا غضب عليه . ولكن الفنان الغضوب لم يكن ليذعن فى هذا الظرف ، بل كتب إلى البابا رسالة يقول فيها : « إننى لم أكن أستحق بعد ما قدمته لقداستك من خدمات أن أطرد من القصر كما يفعل بخادم حقير ، وما دمت قد عدلتَ عن إقامة النصب التذكارى فقد تحررتُ من العقد ، ولا أريد أن أرتبط بعمل آخر . »

رأى أصدقاء من مواطنيه فى خدمة البابا أن يتوسطوا فى الأمر ، وكاتبوا ميكل أنجلو طويلا فى ذلك ، فكان يتمنع . وقد ذكر له أحد هؤلاء الفنانين فى رسالة أنه كان جالساً فى حضرة البابا مع الفنان برامنتى ، الذى وضع رسوما لتجديد كنيسة القديس بطرس ، وكان برامنتى لا يحب ميكل أنجلو ويغار منه ، فقال له البابا وهو يشاهد الرسوم سأرسل غداً صديقنا هذا سان جالو ليأتى بميكل أنجلو كى يبدى لنا رأيه ، فتضايق برامنتى وقال : « إن ميكل أنجلو لن يأتى فأنا على علم بطباعه » ، ثم أبدى أن ميكل أنجلو لا يحسن التصوير ، ولذلك فرّ من عمل الرسوم .

وكانت هذه الأنباء تحز فى قلب ميكل أنجلو ولكنه ظل على موقفه .

وحاول البابا محاولة أخرى ، فأرسل رسالة إلى مجلس الحكم فى فلورنسا يقول فيها : « أبنائى الأعزاء إليكم تحيتى وإنى لأباركم . وبعد فقد بلغنا أن ميكل أنجلو المثال الذى تركنا بغير سبب ولمجرد نزوة خائف ، من العودة . أما نحن فلسنا غاضبين عليه ، لأننا نعرف نزوات الرجال ذى المواهب . ولكى نبعد كل مظاهر القلق نعتمد على إخلاصكم فى إقناعه باسمنا بأنه إذا عاد فلن يصاب بسوء ، بل سيستمتع برضانا كما استمتع به من قبل . »

ومع ذلك ظل ميكل أنجلو على موقفه ، وكان قد وجد عملا فى صب اثنى عشر تمثالا من البرنز للرسل كى توضع فى كنيسة فلورنسا الكبرى .

وجاءت رسالة أخرى من البابا إلى سودرينى رئيس مجلس الحكم ، فدعا المثال وقال له : لقد سلكت نحو البابا مسلكا لا يجرؤ عليه ملك فرنسا ، فلينته هذا

الأمر ؛ فإننا لا نود أن نجر إلى حرب ونعرض الدولة للخطر من أجلك ، فاتعزم أمرك على الذهاب إلى روما .

ومع ذلك ظل الفنان ممتنعا ، بل فكر فى الرحيل عن إيطاليا بأسرها والذهاب إلى سلطان تركيا الذى دعاه إلى تنسيق جسر بين القسطنطينية وحى پيرا .

فى هذه الأثناء كان البابا قد قام بحملته على مدينة بولونيا فاستولى عليها ودخل المدينة فى موكب حافل فى شهر نوفمبر سنة ١٥٠٦ ، ورأى أن يخلد هذه الذكرى بتمثال تذكارى ، وكان فى أعماق قلبه لا يرغب فى أن يصنع هذا التمثال غير ميكل أنجلو . ولذلك عاد الكردينال اليدوزى ، نائبه فى حكم المدينة ، إلى السعى لدى حكومة فلورنسا كى ترسل الفنان إلى بولونيا ، وقد وُعد بأنه لن يقابل إلا بما يحبّ . وأخيراً رضى المثّال وسافر إلى بولونيا مزوداً برسالة من رئيس مجلس الحكم . ولم يكن الفنان راضياً كل الرضا بهذا الخضوع ؛ فقد قال عن ذهابه : « لقد سافرت بعد أن وضعوا النير فى عنقى » .

وقابله البابا مقابلة عاصفة وقال له : « كان من واجبك أن تبحث عنا ، ولكنك انتظرت حتى جئنا على مقربة منك — أى إلى بولونيا — لكى نبحث عنك » . فركع أمامه الفنان واعتذر إليه فى صوت عالٍ قائلا : إن فراره لم يكن مقصودا بل إنه اندفع فيه فى سورة الغضب ، إذ لم يحتمل حجبه عن القصر . ولم يجب البابا بل ظل مقطب الجبين مطاطئا إلى أن تدخّل أحد الكرادلة بكلمة يريد بها تهدئته فقال : « لعل قداستك لا تشتد على ما ارتكبه ميكل أنجلو من خطأ ، فهو رجل لم يتعلم قط حسن السلوك ، فهؤلاء الفنانون لا يعرفون كيف يتصرفون ولا يعرفون غير فنهم » . فما نطق بهذا الكلام حتى استشاط البابا غضبا على هذا المتدخل وصاح به : « لقد جرؤت على أن تقول لهذا الرجل أشياء لم أحلم أنا بقولها ! إنك أنت الذى لا تعرف حسن السلوك ! فلتذهب من أمامى أيها الجاهل التعس » . ومد يده إلى ميكل أنجلو وعفا عنه وأمره بصنع تمثاله .

هكذا عاد البابا والمثال إلى الصفاء بعد القطيعة . وكان البابا يتردد عليه فى مصنعه ليشاهد عمله كل يوم تقريباً . وتم التمثال بعد سنة وبضعة أشهر ، وكان تمثالاً عظيما يمثل البابا فى ملابسه الرسمية ، وهو أكبر من حجمه الطبيعى ثلاث مرات ، وكان تمثالا يظن أنه خالد ، ولكن حياته كانت من أقصر ما تكون

حياة هذه الآثار ؛ فلم تمض على إقامته ثلاث سنوات حتى خرجت المدينة من يد البابا ، واستولى خصومه عليها ، فكسروا التمثال بين سخرية الجمهور ، وصب منه مدفع أطلق عليه چوليا تحقيراً للبابا .

عاد ميكل أنجلو بعد انتهائه من هذا العمل إلى فلورنسا ، فما لبث أن دعاه البابا ، لا ليتم النصب التذكارى للقبر ، بل ليصور سقف المصلى . وأراد المثال أن يمتنع ويقاوم ، ولكن إرادة البابا الحديدية تغلبت فى آخر الأمر وتم الاتفاق على العمل . ووضع الفنان الرسوم ، ولكنه مالبث أن تصور فكرة أجل وأضخم مما قدّر فى بادئ الأمر ووضع لها رسوماً ، وعقد اتفاق ثان ولم يأت شهر مايو من سنة ١٥٠٨ حتى كانت العمد والحوامل الخشبية تملأ المصلى .

أراد الفنان أن يجد أعواناً يساعدونه فى عمله ولكنه وجدهم دون ما ينتظر فصرفهم جميعاً ، ورفع عبء العمل بأكمله على كاهله . وكان مما يزيد فى متاعبه أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يزوره البابا فى مكان عمله ، ملحفاً عليه أن يسرع . وكان البابا الشيخ يتسلق أحياناً تلك الحوامل الخطرة لكى يشاهد بنفسه ما تم عمله ، وكثيراً ما تحدث بينهما مشادات عنيفة ولكنها لا تلبث أن تزول . وقضى الفنان بقية تلك السنة وشتاء السنة التى تليها فى عمل متواصل . وفى شهر مايو تمكن من إجازة قصيرة قضاها فى فلورنسا ثم عاد إلى العمل .

كان البابا فى هذه الأثناء قد دخل فى نضال حياة أو موت من أجل تحرير إيطاليا من الفرنسيين . لذلك اضطر إلى مغادرة روما للتفرغ للقتال ، وكانت الحرب تبتلع كل ما يأتى من مال . فما جاء شهر سبتمبر حتى وقف صرف النقود إلى الفنان . فكتب للبابا مرة يطلب نقوداً ، ثم رأى أن يسافر ويذهب ليراه شخصيا فى بولونيا ، فأمر البابا بأن يزود بالمال ، فكان القائمون على الأموال يدفعون إليه بعض الدفعات ولكن فى غير انتظام . وظل هو من جهته يصور السقف بالرسوم يوماً بعد يوم ، وكان يفعل ذلك وهو مستلق على ظهره فوق الحوامل الخشبية والألوان تتساقط فوق وجهه ، حتى قيل إنه بعد الانتهاء من هذا العمل ظل زمناً ما لا يستطيع قراءة رسالة إلا إذا رفعها فوق رأسه .

لكى نقرب إلى الفكر شيئاً من التعب الذى يحتاج إليه مثل هذا العمل ،

لا نريد الآن أن نذكر جمال هذه الصور كما رآها الناس منذ خمسمائة سنة وكما يرونها حتى الآن ، ولا ما فيها من نبوغ وقوة ، بل نريد فقط أن نذكر أنه غطى ما تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع بالرسوم ، وأنه صور من صور الأشخاص ما يربى على ثلاثمائة وأربعين صورة ، كل منها فى وضع غير وضع الآخر ، بعضها يبلغ طوله اثنى عشر قدما ، وبعضها يبلغ ثمانية عشر قدما ، وكلها دقيقة حتى فى تفاصيلها من شعر الرأس إلى أخمص القدم .

وكان البابا عندئذ فى أحرج الأوقات ، فقد انتصر عليه ملك فرنسا ، ولكن نفسه لم تقهر . وقد عاد إلى روما فى أواخر يونيه سنة ١٥١١ فرأى أن أكثر العمل تم . وظل ميكل أنجلو يعمل سنة أخرى بجد واهتمام . وكتب فى هذه الفترة يقول إننى أعمل عملا أشق مما عمله أى إنسان من قبل ، وأشعر بتدهور صحتى ولكننى عازم على الصبر والعمل إلى النهاية . وفى أكتوبر من سنة ١٥١٢ كتب إلى أبيه يقول إنه أتم العمل . وفى أواخر ذلك الشهر احتفل البابا بإزالة الستار عن هذا العمل الخالد ، فوقعت أعين العظماء الذين حضروا الحفل على تلك الصور التى لا تزال تثير الإعجاب ، حتى هذا الزمن بالرغم مما أحدث بها مر السنين .

لم يكن وقتئذ أمام ميكل أنجلو مانع يحول دون استئنافه العمل فى النصب التذكارى الذى علق على إتمامه آماله ، وكانت الصعوبة فى هذا النصب أنه لم يتقرر بعدُ المكان الذى يقام فيه من كنيسة القديس بطرس .

ويظهر أن المثال كان ينتوى حسب رسومه أن يقيم بناء يكون فيه النعش فى قالب من الرخام طوله أربعة وخمسون قدماً وعرضه ستة وثلاثون قدماً ، وتقوم حوله تماثيل ومجموعات تمثل فنون الرسم والنحت والبناء ، وهى أسيرة حداداً على البابا الفقيد ، حيث إنها لن تجد مشجعاً بعده ، ثم تماثيل للنصر وأمامها الولايات التى استولى عليها راكعة تدل على خضوعها للكنيسة ، ثم فى القسم الأعلى تماثيل أربعة ، يمثل اثنان منها النبى موسى والقديس بولس ، وفوق هذه التماثيل صورة للبابا وهو نائم يحمله ملكان ، فيكون ارتفاع هذا البناء الضخم نحو ثلاثين قدماً ، وفيه أكثر من أربعين تمثالا غير صور لحوادث حياة يوليوس الثانى .

لو أن البابا عاش بضع سنوات لأتم ميكل أنجلو هذا العمل الضخم الذى

ليس له مثيل ، ولكن البابا كان يسرع عاجلا إلى الموت مع ما كان من مظهر الصحة التى تبدو عليه ، ومع أنه ظل يعالج مهام الأمور بنشاطه المعروف ، فكانت وفاته فى ١٩ فبراير سنة ١٥١٣ ، وكان طبيعيًّا أن لا يتم هذا العمل الضخم ، فإن خلفاءه على كرسى البابا كانوا يهتمون للاستفادة من مواهب ميكل أنجلو فى أمورهم ، وكان الفنان يحاول عبثاً أن يتم هذا العمل وفاء للرجل الذى أحبه وقدره ، فلم يستطع ، ولكنه مع ذلك ترك أثراً خالداً فى صورة ذلك التمثال الرائع للنبى موسى ، الذى نشاهده الآن على قبر البابا يوليوس الثانى فى كنيسة سان بيترو دى ڤينكولى بروما ، وهو الذى يمثل النبى فى جلسة عظيمة ، وهو يهم بالقيام ويكاد ينطق . وكذلك نجد أثره فى تمثالى الأسيرين العظيمين ، فى أرض فرنسا حيث وجدا مأوى فى متحف اللوفر .

حسن محمود

البارونة فون كريدنر

والمعاهدة المقدسة

١

كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصراً عجيباً حافلا بمختلف النزعات والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ فهو عصر ڤولتير وروسو ، وهو عصر ازدهار الجمعيات السرية من البناء الحر (الماسونية) وغيرها ، وعصر الدعوات السرية الغامضة ، والدعاة السريين الذين تملأ سيرهم العجيبة صحفاً ممتعة أمثال البارون فون اوفنباخ (يعقوب فرنك) ، والكونت سان جرمان ، وكاليوسترو وغيرهم ؛ وهو أخيراً عصر الثورة الفرنسية التى دكت صروح المجتمع الفرنسى القديم ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة فرنسا وحياة القارة الأوربية .

فى ظل هذا المجتمع الذى تهب عليه ريح الغموض والخفاء ويحدوه شغف التطلع إلى المجهول والخارق ، نجد المزاعم والدعوات السرية والأساطير الدينية تتمتع بنفوذ مدهش ، ولا يقف أثرها عند جمهور الكافة بل يتعداه فى أحيان كثيرة إلى القصور والحكومات ، فيوجه أعمالها ، ويطبعها بطابع خاص .

وتقدم إلينا صحف هذا العصر أمثلة عدة من هذه الشعوذة الدينية أو السياسية . وربما كان من أغربها وأعجبها جميعاً مثل البارونة فون كريدنر التى استطاعت بتأثيرها الروحى المدهش أن تسيطر حيناً على عقل ملك من أعظم ملوك عصره ، وأن تنفذ بوساطته إلى معترك الحياة السياسية الدولية العليا ، وأن تؤثر فى توجيهها من وراء ستار .

كانت البارونة فون كريدنر[1] ، واسمها العذرى بربارا يوليانا فتنجهرف ،

---

(١) Von Krüdener .

سيدة من الارستقراطية الألمانية الروسية : ولدت فى مدينة ريجا بمقاطعة ليفونيا فى سنة ١٧٦٤ ؛ وكان أبوها هرمان فون فتنجهوف ضابطاً كبيرا فى جيش الإمبراطورة كاترين الثانية ، ومستشاراً للمقاطعة ، وكان سيداً واسع الثراء. ونشأت يوليانا نشأة أرستقراطية بين مظاهر النعماء والترف مع عدة من الإخوة والأخوات ، وتلقت من ألوان التربية ما كان يتلقاه بنات الأسر الشريفة فى هذا العصر : اللغة الفرنسية وشيئاً من الموسيقى والتطريز وبعض المعلومات العامة . وما كادت تبلغ الثامنة عشرة وتبدو فى ذروة جمالها وسحرها حتى خطبها البارون بوركهارت فون كريدنر ، وهو أرمل فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وتم الزواج على الأثر . وكان البارون من رجال السلك السياسى ، كثير الاتزان والتحفظ . وكانت البارونة الفتية من جانبها كثيرة الخفة والمرح ، تعشق السرور والبهجة ، وتشغف بالظهور والحفلات ، ويطربها المديح والغزل ؛ وكان هذا التباين فى الخلال يثير بين الزوجين كثيراً من الخلاف والكدر . ولم يمض عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابن سمى پول . ورقى البارون فى الوقت نفسه إلى مرتبة سفير وأرسل إلى البندقية ، ثم نقل إلى كوپنهاجن سنة ١٧٨٦ وكانت البارونة خلال ذلك عرضة لبعض الآلام النفسية والعصبية التى تزداد على كر الأيام . وفى سنة ١٧٨٧ وضعت ابنة سميت چولييت وعلى أثر ذلك تفاقمت آلامها العصبية ، ونصح لها الأطباء بالسفر إلى الجنوب تنتجع الصحة والعافية ، فنزلت على نصحهم وسافرت مع ابنتها الطفلة وابنة زوجها صوفى .

ووصلت إلى باريس فى ربيع سنة ١٧٨٩ وقت اجتماع نواب الطبقات ، وكانت طلائع الثورة الفرنسية قد أخذت تبدو فى الأفق ؛ ثم سافرت فى العام التالى إلى الجنوب واستقرت بمدينة مونپلييه ، وهنالك تعرفت بضابط شاب يدعى شارل دي فرانجڤيل ؛ وكانت البارونة يومئذ فى السادسة والعشرين من عمرها ، وافرة الشباب والسحر ، فهام بها الضابط الفتى وهامت به حتى إنها لما عادت إلى كوپنهاجن عاد معها العاشق المفتون . وكان منظراً غريباً حينما تقدمت البارونة إلى زوجها تقص عليه قصة حبها وتنبئه بأن قلبها لم يعد ملكا له ، فاستمع البارون فى حلم وأناة ولم يبد اكتراثا لهذا الحدث الغرامى ، ولكنه لم يرتض الطلاق ، وآثر أن يعقد مع البارونة نوعا من الوفاق الحر ؛ وسهل عقد هذا التراضى رحيل الضابط العاشق ليلحق بفرقته . ولكن البارونة رفضت أن تبقى

إلى جانب زوجها فى كوبنهاجن وعادت إلى التجوال والسفر ، فزارت ريجا وبطرسبرج وبرلين وسويسرة ، ولم تقبل أن تعود إلى زوجها إلا حينما عين فى سنة ١٧٩٨ سفيراً فى برلين ، فصحبته إلى العاصمة البروسية ، ولكنها لم تلبث أن سئمت برود المجتمع البروسى وتحفظه ، وضاعفت حياة البذخ نفقاتها وديونها ، ثم تحرج الموقف بمقتل القيصر بول ، وقد كان البارون يتمتع بعطفه وحمايته ؛ فاضطربت أحوال البارون ، ولم تصبر البارونة على البقاء فى هذا الجو الكدر ، فغادرت زوجها إلى الجنوب لتقضى الشتاء ، وشاء القدر ألا ترى زوجها بعد ذلك لأنها لبثت هذه المرة بعيدة عنه حتى توفى فى صيف سنة ١٨٠٢ دون أن يراها .

٢

فى ذلك الحين كانت البارونة تعيش فى باريس فى جو من المرح وتستقبل فى بهوها الأنيق علية القوم ؛ وكان يحدوها عندئذ شغف بالأدب والكتابة ، ولها صلات وثيقة بأكابر الكتاب والأدباء ، وكان شاتوبريان وغيره من أساتذة العصر فى مقدمة أصدقائها وزوارها . وقد عرضت عليهم قصة وضعتها بعنوان « ڤاليرى » وهى قصة عاطفية تصف فيها طرفا من حياتها وعواطفها فى شخص بطلتها ، فشجعوها على نشرها . وبالرغم من أن البارونة كانت قد بلغت يومئذ السادسة والثلاثين من عمرها ، وأخذ سحرها يذبل ويتضاءل ، فإنها كانت تشغف بالمديح والغزل ، وتلتمس كل سبيل للشهرة ولفت النظر . وقد قال عنها سانت بيف بهذه المناسبة : « إنها كانت تشعر بحاجة كبرى لأن يهتم العالم بها . الكبرياء . . . الكبرياء دائماً . »

وفى سنة ١٨٠٤ عادت البارونة إلى وطنها ليڤونيا . وهنا وقع لها حادث عجيب كان سبباً فى تغيير مجرى حياتها إلى وجهة لم تكن تتصورها . ذلك أن سيداً من أصدقائها كان ذات يوم يهم بتحيتها ، فسقط ميتاً عند قدميها ، فارتاعت البارونة ، وتفاقمت اضطراباتها العصبية ، واستحالت إلى نوع من الهيام الدينى ؛ وكان صانع أحذيتها رجلا مشعوذاً من جمعية « إخوان موراڤيا » الدينية ، فلقنها التوجيهات الأولى ، وأضحت منذ ذلك الحين تستمع إلى كل دجال ومشعوذ ، وزارت البارونة مدينة كينجزبرج ، وهنالك حظيت برؤية الملكة لويزة

ملكة بروسيا ومحادثتها . وكان ملك بروسيا فريدريك وِلهلم الثالث ، وزوجه الملكة لويزة يقيمان فى كينجزبرج منذ هزيمة يِنَا ، وسقوط بروسيا صريعة الغزو الفرنسى .

ولقيت البارونة فى الوقت نفسه مشعوذا يدعى آدم ميلر يزعم أن السيد المسيح كلفه برسالة لدى الملك فردريك ولهلم ، وأن بعث المسيح قد أضحى على وشك الحدوث . وكانت نظرية البعث chiliasm وخلاصتها أن المسيح سيبعث ويحكم العالم ألف عام ، تهب يومئذ على كثير من المجتمعات الأوربية ، وكان نابليون يعتبر عدوًّا للمسيح منتهكا لتعاليمه ، وكان الاعتقاد سائدا بأن أوان البعث قد اقترب . ويذكى الرهبان هذه الخرافة ويبثونها فى القصور بين علية القوم كما يبثونها بين الفلاحين والكافة ، ويزعمون « أنه سيقوم رجل من الشمال ، من مطلع الشمس » وأن عدو المسيح سوف يهزم ، وسوف يقوم المسيح ليحكم الأرض مدى ألف عام .

كان لتلك المقابلة وتلك المزاعم أعمق الأثر فى إذكاء خيال البارونة، فعكفت من ذلك الحين على استقصاء آثار الدعوة والاتصال بالدعاة والمشعوذين فى كل مكان ، فهرعت إلى كالسروه حيث كان الراهب المتصوف هينريخ شتلنج يبث دعوته ، وكان أستاذا بارعا فى ضروب الخفاء ، وكان له نفوذ كبير فى قصور بادن وستوكهلم وبطرسبرج ،فلقنها أصول نظرية البعث وخفايا العالم الآخر . ثم نمى إليها أن راهبا آخر فى منطقة « الڤوج » يدعى فونتين يأتى بالعجائب والمعجزات ، فقصدت إليه بمقره ببلدة سانت مارى أومين تصحبها ابنتها چولييت وابنة زوجها صوفى وخادم روسى ، وأقامت هناك عامين . وكان فونتين مشعوذا ودجالا بارعا ، وكانت تعاونه فى بث تعاليمه مشعوذة بارعة تدعى مارى كومر كانت تخلب لب البارونة بأحلامها وجلساتها الروحية . وكانت البارونة تعيش فى هذا الجو الذى يغمره الدجل والخفاء مضطربة الذهن هائمة النفس ، تعتقد فى صدق رسالتها الجديدة ، وهى أنها سوف تكون المبشرة بعود السيد المسيح . وكانت مكانتها الاجتماعية ، وصدقاتها الوفيرة ، وفصاحتها المؤثرة ، تخلق حولها جوا من العطف والإعجاب ، وتحدث فى جمهور الفلاحين والكافة أعظم الأثر .

ولما شعرت البارونة أن دعوتها أخذت تحدث أثرها ، اعتزمت أن تنشئ للمؤمنين بعودة المسيح مستعمرة خاصة بمعاونة فونتين ، فهرع اليها كثير من

السذج والفلاحين بعد ان باعوا كل ما لديهم ، وأنشأت هذه المستعمرة الغريبة في سنة ١٨٠٩ فى بلدة كاترنن بليزير بمقاطعة ڤرتمبرج ، ولكن الحكومة ما لبثت أن أمرت بإلغائها وتفريقها .

وعندئذ أخذت البارونة تتحول من مكان إلى مكان فى أنحاء بادن تبشر بعود السيد المسيح ، وكانت حماستها فى بث تعاليمها وهباتها وصدقاتها الجمة تجذب إليها الجماهير من كل فج ؛ وكانت كلما حلت بمكان كثرت حولها المزاعم والروايات الخارقة . ثم رحلت إلى جنيف فى سنة ١٨١٣ فاجتمع حولها بعض الهائمين المتحمسين ولا سيما هنرى أمپتاز الذى غدا فيما بعد أعظم أنصارها ومعاونيها . وعادت بعد ذلك إلى شتراسبرج حيث كان لها بعض الصحب والأنصار ، وهناك انضم إليها داعية يدعى فرانز فون بركهايم وهو الذى تزوج فيما بعد من ابنتها جوليت .

٣

فى أواخر سنة ١٨١٤ سافرت البارونة مع ابنتها وأمپتاز معاونها الجديد إلى بادن . وشاء القدر أن تكون القيصرة اليزابيث الروسية يومئذ فى كالسروه ؛ وكان القيصر إسكندر يعانى منذ حين بعض الاضطرابات النفسية ، ويحاول أن يجد راحة الذهن والروح فى ظل الإيمان والتعاليم المسيحية . فخطر للقيصرة أن القيصر قد يشفى من نزعاته العصبية ويجد الراحة النفسية المنشودة على يد البارونة فون كريدنر ، خصوصا بعد أن أخفق الراهب شتانج فى القيام بهذه المهمة . والواقع أن البارونة كانت تسعى إلى لقاء القيصر ، وقد كتبت إلى حاشيته غير مرة ترجو هذا اللقاء ولكن دون جدوى . ولم تحقق أمنيتها سوى المصادفة المحضة . ففى ربيع سنة ١٨١٥ كانت البارونة تقيم فى شليختزن على مقربة من بادن تبث دعوتها بين الفلاحين . وفى الرابع من شهر يونيه نزل القيصر إسكندر وحاشيته فى بلدة قريبة تسمى هايلبرون ففى مساء ذلك اليوم التمست البارونة مقابلة القيصر ، وأجيبت فورا إلى طلبها .

وكان منظرا عجيبا : كان القيصر وحيدا يلقى نظراته الشاردة على صفحات التوراة ، فلما دخلت البارونة خيل إليه أن مقدمها كان استجابة لأمنيته . ولبثت

البارونة معه ثلاث ساعات تعظه وتلقنه تعاليمها ورسالتها بأسلوب عذب وفصاحة مؤثرة، على حين كان القيصر — أعظم ملك فى أوربا — يجلس معتمدا رأسه بين يديه، وهو يصعد الزفرات كالطفل المحزون؛ وأخيرا هدأت نفسه وأعلن أنه لقى السلام المنشود.

شعر القيصر إسكندر أن هذه المرأة المؤمنة الهائمة تغزو نفسه المضطربة بقوة عجيبة فقربها، وأسبغ عليها عطفه وحمايته، وتبعته البارونة إلى هيدلبرج نزولا على رغبته، ثم سار إلى پاريس والبارونة فى ركبه. وكانت موقعة واترلو قد توجت يومئذ نضال الأمم المتحالفة ضد ناپليون وسحق الإمبراطور وسحق جيشه الذى لبث خمسة عشر عاما أداة الطغيان والاعتداء على حريات الأمم الأوربية. واحتل الحلفاء پاريس، ونزل القيصر مع حاشيته فى قصر الإليزيه ونزلت البارونة فى فندق مونشنى المجاور للقصر، وكان يصل بينهما باب خفى. وكان القيصر يذهب كل مساء ليشهد الصلاة التى تقيمها البارونة ومعاونها أمبتاز.

وكانت نظرية البعث (عود المسيح) قد ذاعت يومئذ وشقت طريقها بعد الكافة إلى قصور أوربا وحكوماتها. واضحت البارونة فون كريدنر زعيمة هذه الدعوة إلى جانب نفوذها الروحى، قوة سياسية يعتد بها. وكان يهرع إلى اجتماعاتها مذ حلت بپاريس صفوة من أكابر المفكرين والسادة مثل شاتوبريان وبنچمان كونستان ومدام ركاميه والدوقة بوربون ومدام دى دوراس وغيرهم، هذا عدا جمهور من المؤمنين الذين خلبتهم دعوة البارونة ونبوءاتها.

فى هذا المعترك الفياض بالخفاء والهيام الدينى نشأت فكرة « المعاهدة المقدسة » وهى أغرب وثيقة دولية عرفت فى العصر الحديث. ولم تمض أسابيع قلائل حتى نضجت الفكرة ووضعت المعاهدة، ووقعها القيصر، وفرانز الأول إمبراطور النمسا، وفردريك ولهلم ملك پروسيا. وفى يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أعلن القيصر نصوص « المعاهدة المقدسة » فى حفل عسكرى من جنود الحلفاء أقيم بميدان ڤرتى على مقربة من پاريس.

وتبدو هذه المعاهدة الغريبة سواء بديباجتها أو نصوصها كأنها وثيقة كنسية محضة لا وثيقة دولية. فقد سميت « بالمعاهدة المقدسة » وقد بدئت بهذه العبارة: « باسم التثليث الرفيع الذى لا ينفصم » واستهلها الموقعون عليها بالإشارة إلى البركات التى شاءت العناية الإلهية أن تغدقها على دولهم وإلى

اقتناعهم « بوجوب تسوية الخطوات التى تتخذها الدول لتنظيم علائقها المتبادلة وفقا للحقائق السامية التى دعا إليها السيد المسيح »، وأنهم يعلنون عزمهم الثابت على إدارة دولهم وتنظيم علائقهم مع الحكومات الأخرى وفقا لتعاليم الدين المقدس ، أعنى مبادئ العدالة والصداقة المسيحية والسلام .

وقد صيغت مواد المعاهدة الثلاث بهذه الصيغة الدينية ، فنصت الأولى على أن يبقى الملوك الثلاثة مرتبطين برباط الأخوة الذى لا ينفصم ، وأن يتبادلوا المساعدة، وأن يعتبروا أنفسهم نحو شعوبهم وجيوشهم كآباء أبرار ويقودونهم بنفس الروح الأخوية لحماية الدين والسلام والعدالة . ونصت الثانية على « أن الملوك الثلاثة يعتبرون أن العناية الإلهية قد بعثتهم ليحكموا ثلاث شعب من أسرة واحدة ، وأن العالم المسيحى الذى يكونون جزءا منه ليس له سيد سوى « الله » وهو وحده القوى القادر ، وفيه تجتمع كنوز المحبة والعلم والحكمة » . وأما الثالثه فقد نصت على دعوة جميع الدول التى تؤمن بهذه المبادئ إلى الانضمام إلى هذه المعاهدة المقدسة .

تلك نصوص المعاهدة الغريبة التى تمخضت عن نزعات القيصر الدينية . وتجمع الروايات على أن البارونة فون كريدنر كانت مصدر الإلهام والوحى فى إعدادها وعقدها . بل تقول لنا البارونة إنها هى صاحبة الفكرة كلها ، وإن القيصر عرض عليها مشروع المعاهدة لإقرار نصوصه ؛ وهذا ما ترجحه كل الدلائل والروايات . وقد استاء القيصر فيما بعد ، حينما استرد رشده وصوابه، من خفة البارونة وأحاديثها حول المعاهدة ، وأنحى باللائمة عليها ، وأخذ يفطن شيئاً فشيئاً لما يحيط به من ضروب الشعوذة والدجل ، وأخذ نفوذ البارونة يتقلص تباعا ، وأخذ القيصر يتبرم بعلاقتها ، ويشعر بما يحيط بها من سخرية لاذعة . وبالرغم من أنه أذن قبل رحيله من پاريس للبارونة بجواز سفر إلى روسيا ، فإنه لم يعجل باستدعائها . وسافرت البارونة إلى سويسرا فى أوائل أكتوبر فى طريقها إلى روسيا ، وبقيت هنالك تنتظر دعوة القيصر ، بيد أنها لم تره مرة أخرى .

وقد كان لإذاعة المعاهدة المقدسة وقع عميق فى أوربا ، وقد وقعها الملوك الثلاثة فى البداية ، وكان القيصر إسكندر تحدوه الحماسة الإنجيلية ، ولكن قيصر النمسا ، وملك پروسيا وافقا عليها دون حماسة ، ووصفها مترنيخ وزير

خارجية النمسا بأنها « شيء طنان لا قيمة له » . ووصفها كاسلريغ وزير خارجيه انجلترا بأنها « قطعة من التصوف السامى والسخف » . ولم توقع انجلترا المعاهدة ولكن وصى المملكة بعث بكتاب أعلن فيه موافقته على المبادىء التى قامت عليها ، ثم وقعتها دول أوربا بعد ذلك تباعا عدا السلطان والبابا . ولبثت الأمم الأوربية مدى حين ترى فى المعاهدة المقدسة بالرغم من صيغتها المسيحية أداة رجعية لقمع الحركات التحريرية ، وتعاون الملوك الثلاثة على تأييد النظم الطاغية .

٤

استقرت البارونة فى سويسرا مدى حين ، وهناك وقعت تحت تأثير مشعوذ جديد يدعى كلنر ، وأخذت تطوف معه من مكان إلى مكان وهو يبشر بدعوتها ويدعو الناس إلى اتباعها . وكان يتبعها أينما سارت رهط من المتشردين والمتسولين تغدق عليهم من الأموال التى تجمعها باسم الدعوة . وكانت السلطات السويسرية تنظر إلى هذا التجوال بعين السخط ، وتخرجها من الولايات تباعا ، حتى اضطرت آخر الأمر أن تغادر سويسرا مع كلنر وبعض المؤمنين إلى موطنها ليڤونيا وذلك فى سنة ١٨١٧ .

وفى سنة ١٨٢٠ ذهبت البارونة إلى بطرسبرج . وجاءت الأنباء يومئذ عن قيام حركة الزعيم ابسلانتى فى المجر وزحفه على الولايات التركية الدانوبية ، فعندئذ أعلنت البارونة فى الحال رسالة القيصر الإلهية فى أن يقوم بحماية النصرانية وتأييد زعمائها . ولكن القيصر لم يحفل بهذه الحركة ، ولم يخطر له أن يعلن حربا مقدسة ، وكان قد تحرر نهائيا من نفوذ البارونة ، وأخذ يتأثر بنصائح مترنيخ ، ورد على البارونة بخطاب يفيض رقة وأدبا ، ولكن يطلب اليها فيه أن تغادر بطرسبرج فورا .

وكانت هذه الضربة مؤلمة للبارونة ، وكانت عندئذ تدنو من عامها الستين وتذبل صحتها تباعا من جراء التجوال المستمر ، والاضطرابات النفسية العنيفة ، وكان القيصر قد سمح لدعاة البعث بانشاء مستعمرة لهم فى إحدى بلاد القرم ، فقصدت البارونة إلى القرم بالرغم من اعتلال صحتها لتزور صحبها المؤمنين ، وهناك وافاها القدر المحتوم فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٥ .

وهكذا اختتمت البارونة فون كريدنر حياتها الحافلة بصنوف المغامرات والشعوذة الدينية العجيبة بعد أن وصلت بحماستها وقوة تأثيرها الروحى إلى السيطرة على ذهن أعظم ملوك العصر، واستطاعت أن تؤثر فى سير السياسة الدولية من وراء ستار. بيد أن البارونة شهدت فى أواخر حياتها أحلامها ودعواتها تنهار تباعا، وأخذت الغشاوة التى طمست على عقلها ونفسها تنقشع ببطء، وأصبحت ترى أن ما كانت تعتقده من صوت الله لم يكن سوى الخيال المغرق والكبرياء المضللة العقيم.

وقد كانت حياة البارونة فون كريدنر مستقى خصبا لأقلام كثيرة، فصدرت عنها كتب وتراجم عديدة بالألمانية والفرنسية والانجليزية. هذا عدا ما دونته كتب التاريخ بصفة عامة عن صلتها الوثيقة بعقد «المعاهدة المقدسة» وهى ألمع نقطة فى سيرتها العجيبة.

محمد عبد الله عنان

الكتاب ونقادهم

دراسة فى سوء الفهم [1]

فى آخر كتاب أصدره الأستاذ هنرى پير ، وهو كتاب عميق تغمره الحيوية ويفيض علماً وحدّة قريحة ، يعرض المؤلف مشكلة من الخطر بمكان عظيم ، أو على الأقل يبدو خطرها هذا بالقياس إلى أعضاء « جمهورية الأدب » ، وهى مشكلة الصلات التى تنشأ بين الكاتب والجمهور ، وبصفة خاصة بين الكاتب والنقد الأدبى .

والنقد الأدبى الذى صار لوناً خاصًّا من ألوان الأدب مستقلا عن غيره ، قد اتخذ لنفسه خلال القرن التاسع عشر مكانة وأهمية تَطّردان فى النمو . على أن هذا الأمر طبيعى ؛ فقد كان من نتيجة الازدياد الضخم للإنتاج الأدبى [2] وازدياد عدد القرّاء على مدى أوسع (وهم قرّاء يفرض فيهم قراءة الآثار الأدبية ، ولكنهم فى الواقع يقرءون الروايات الهزلية والبوليسية ، كما يذكر ذلك الأستاذ پير فى شىء من الدهاء) أن الجمهور الحائر الذاهل سرعان ما أدرك أن ليس لديه من الوقت أو من الوسائل ما يتيح له القيام بنفسه بالانتقاء والاختيار . لذلك قوى شعوره يوماً بعد يوم بالحاجة إلى هيئة من الإخصائيين ترشده ، فأخذ شيئاً فشيئاً يسلم إلى هؤلاء الإخصائيين مهمة إصدار الحكم على تلك الآثار ،

(١) كتب هذه الدراسة خاصة « للكاتب المصرى » الأستاذ ألكسندر كواريه أستاذ الفلسفة بجامعة باريس الآن ، وبجامعة فؤاد الأول بالقاهرة سابقاً ، وهو يستعرض كتاباً أصدره حديثاً الأستاذ هنرى پير أستاذ الأدب الفرنسى بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، وهذا الكتاب هو :

HENRI PEYRE, *Writers and their Critics, A Study in Misunderstanding*, in 8°, XII + 340 p., Cornell University Press, Ithaca, N.Y. 1944.

(٢) على أن هذا الانتاج يحتفظ منذ نحو سبعين عاما بمستوى متعادل تقريباً ، فهو يتراوح فى فرنسا بين ١٢ و ١٤ ألف مؤلف ، وفى انجلترا بين ٨ و ١٥ ألف (ص ٥) . ومجموع هذا خلال سبعين عاماً يبلغ نحو مليون مؤلف . . .

وعهد إليهم أمر التمييز بين الصحيح منها والزائف ، بين الجيد والردىء ، بين الصالح والطالح . ويقول الأستاذ پير فى ذلك : « ويظهر أن الجمهور أصبح أسلس قياداً فى ميدان الآداب والفنون بقدر حصوله على حقوق أوسع مدى فى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية . . . ونحن لا نقتصر على مطالبة الناقد بإرشادنا إلى بعض الكتب الجديدة ، بل نريد أن يدرس لنا المؤلفات التى تشق علينا ، وأن يذكر لنا ماذا يجب أن يكون رأينا فيها ، ثم ما الذى يجب أن نقوله لجارنا على المائدة أو فى المرقص أو فى ملعب الجولف » (ص ٣) . ويضيف فى موضع آخر : « إن الأدب والفن الحديثين يفرض فيهما أنهما أصبحا (بالقياس إلى الجمهور) من الغموض بحيث لا يستطيع الرجل المتوسط أن ينفذ إليهما دون عون » (ص ٦) . والجمهور يلجأ إلى النقد يستعين به على الفهم والذوق . ومما يحمل على الأسف أن هذا النقد بدا عاجزاً عن القيام بالمهمة الخطيرة التى وكلت إليه ، وهى تجمع فى نفس الوقت بين وظيفة المحكّم ووظيفة الرائد المربى .

على أن الأمر كان (أو كاد يكون) كذلك دائماً . وقد قال شوپنهاور (وكان هو نفسه إحدى ضحايا النقد) إن الناقد الجيد « أندر من العنقاء التى تظهر كل خمسمائة عام . »

والاستعراض النقدى الذى يقدمه لنا الأستاذ پير فى الفصول الثلاثة الأولى لكتابه يؤيد كل التأييد هذا الرأى السديد الذى أبداه الفيلسوف المتشائم العظيم . وإذا استثنينا بوالو الذى أصاب دائماً فى حكمه ، فقد امتاز وحده فى عصره دون غيره ببصيرة نافذة لم يتسرب إليها الخطأ ، حين أبدى رأيه فى المؤلفين وفى كتبهم ، وقد جاء الخلف من بعده فأيّدوا حكمه أو اتخذوا لنفسهم هذا الحكم . وإذا استثنينا بودلير أيضاً (ص ٨٥ وما يليها) — فإن أعظم المفكرين شأناً وأوسعهم آفاقاً ، أمثال جوته (ص ٧٥ وما يليها) وڤولتير ، حين أصدروا حكمهم على الإنتاج الأدبى والفلسفى لمعاصريهم ارتكبوا أخطاء شنيعة (تبدو لنا غير مفهومة بحال ولا نجد لها تفسيراً أو تعليلاً) . ذلك أنهم من ناحية لم يقدروا أعظم آثار عصرهم أو انتقصوا من قدرها ، ومن ناحية أخرى رفعوا من قدر آثار رديئة أو كانوا مصدراً لهذه الآثار التى خيّم عليها اليوم ما تستحقه من النسيان (ص ٨٦ وما يليها) .

أما النقاد الذين هم أقل شأناً من هؤلاء ، ولا سيما النقاد المحترفون أمثال

لاهارپ ، ونيزار ، وبرونتيير ، وفاجيه ، وليمتر فى فرنسا ، ونظراؤهم فى انجلترا وأمريكا (ولابد أن يكون الأمر كذلك فى غير هذه البلاد) ، فنستطيع أن نقول إنهم مع استثناء قليل أخطأوا على نحو مطّرد ، فأنكروا فى جميع الأحوال تقريباً الآثار المبتكرة القوية ، وأثنوا فى جميع الأحوال تقريباً على آثار من الطبقة الثانية أو الثالثة ، بل على آثار شديدة الفراغ والفتور . وسانت بيڤ نفسه ، وهو بلا جدال أعظم النقاد الفرنسيين ، لم يقدر بلزاك وستندال وبودلير ومريميه وميشليه الخ . . . (ص ١٢٥ وما يليها) .

وما أطرف ثبت السخف النقدى الذى جمعه الأستاذ پير . على أنه ليس أدعى للأسف أيضاً مما يظهرنا عليه هذا الثبت من قصور مطبق عن الإدراك وعجز مطلق عن الحكم وزهو مسرف محدود الأفق . فكل الآثار العظيمة وجميع المؤلفين الكبار ، هؤلاء الذين نعتبرهم « كلاسيكيين » أنكروا وهوجموا وأهينوا . فإن وردسورث وشيلى وكيتس ومريديث فى انجلترا (ص ٢٦ وما يليها ، ٣٠ وما يليها ، ٣٥ وما يليها ، ٣٩ وما يليها) ، وهاوثورن وملڤيل فى أمريكا (ص ٦١ و ٦٢) وستندال وبلزاك وفلوبير (ص ٩٢ وما يليها ، ٩٦ ، ٩٩) ، وڤكتور هوجو وبالطبع بودلير وپروست (ص ١٠١ وما يليها ، ١١٣ وما يليها) — اتهموا بإفساد الخُلق وبإهدار اللغة ، وبأن عقولهم مجدبة وأن ليس إلى فهمهم من سبيل . والعصور الأرستقراطية ، خلافاً لما تذهب إليه خطأً بعض الأحكام النقدية المقررة الذائعة الانتشار ، لا تتميز بحال فى هذا الصدد عن عصور الحضارة الشعبية . لا ريب أن الأولى لا تعد الخروج على الأخلاق من المآخذ التى توجه إليها النقد (فإن التكلف الخلقى من خصائص العصور البورجوازية) ولكن معاصرى شكسپير كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك عظمته (فلم يعترف بها إلا بعد مرور مائة وخمسين عاما) ، وكثيراً ما كانوا يؤثرون عليه مؤلفين لا نجرؤ أن نقرن أسماءهم باسمه . ومعظم آثار ملتون مرت دون أن تلفت النظر الخ . . . الخ . . . (ص ١٧ وما يليها ، ص ٢٠ وما يليها) . كذلك الحال فى فرنسا ، فإن حظ شاپلان من التقدير كان أعظم من حظ راسين ، وكان الجمهور يتردد فى الاختيار بين پيير وتوما كورنىّ ، فلا يعرف أيهما يؤثر . وعدم تقدير المعاصرين يمكن تفسيره فى رأى الأستاذ پير بمجموعة من المقررات المبتسرة الخاطئة يتألف منها نموذج تقليدى مطّرد (وما أفيد المعجم

الجديد « للآراء المتوارثة » الذى وضعه الأستاذ پير — ص ١٣٧ ومايليها) .
وهذا النموذج من شأنه أن يظهرنا على ألوان من السخف وضروب من الاتهام يوجهها النقاد إلى الفن فى العصر الذى يعيشون فيه ، وتكررها وتعيدها أجيال متتابعة من النقاد . وبعض هذه العيوب (مثل المساس بالخلق ، والاتسام بطابع الانحلال ، والخفة وعدم الاستقرار) مصدرها العقائد السياسية والدينية التى يعتنقها النقاد ، على حين أن غيرها (منها أن الأسبقين كانوا يعرفون كيف يكتبون بينما العصر الحاضر لا يعرف ، وأنه كانت توجد مدارس فيما مضى بينما الآن تعم الفوضى . . . الخ . . .) مردها إلى موقف متحيز من شأنه إيثار الأجيال الماضية على الأجيال المعاصرة (نعيش فى عصر انحطاط أو عصر انتقال) بدعوى أن الأجيال المعاصرة غامضة يستعصى فهمها . هذا إذا لم يكن التحذلق وذكرى أخطاء السابقين من شأنهما أن يدفعا طائفة من النقاد (ومن الجمهور الذى يريد أن يكون فى الطليعة دائماً) إلى الإعجاب بأشد الآراء تقدماً وتطرفاً ، هذا الإعجاب الذى لا يقل سخفاً عن النقد المتكلف . وأشد خطراً من ذلك أن طائفة كبيرة من النقاد ، وهم النقاد الجامعيون ومؤرخو الأدب خاصة ، بعد أن بحثوا عبثاً عن المقاييس التى تتيح لهم الحكم على الآثار المعاصرة تخلوا عنها ، وأمسكوا فى حذر وحيطة عن إبداء الرأى بشأنها ، وفوضوا أمر الحكم عليها للخلف من الأجيال اللاحقة . أما بالقياس إلى الجيل المعاصر فانهم يتركون المجال حراً للصحافة ونشر الدعوة . هذا العجز فى النقد الجدى يأسف له الأستاذ پير أشد الأسف . لذلك يرجو ، ويضرب بنفسه المثل فى ذلك[1] ، أن يعين تحليله النقاد على التخلص من تحاملهم — ومن استحيائهم أيضاً — وعلى القيام بالمهمة التى يجب أن يضطلعوا بها . أما المقياس الذى يجب أن يكون أساساً لحكمنا فهو مقدار ما استطاع المؤلف أن يستوعبه أثره من حياة قوية خصبة .

ويخيل إلىّ أن الأستاذ پير مسرف فى التفاؤل . فهو يشترط فى الناقد صفات خاصة متعددة : منها أن تكون حاسته فى إدراك الجمال حادة دقيقة حتى يستطيع إزاء أثر عظيم رائع أن يشعر « بوقع » المتعة والاستكشاف ، وأن

---

(١) فى كتابه « رجال القرن العشرين وآثارهم » ، باريس سنة ١٩٣٨ .

يكون فى وسعه أن يشرح السبب فى إعجابه بالأثر ويبين نواحى روعته ، وأن يتبين بطبيعة الحال نقائصه وأوجه ضعفه ، فيظهر المؤلف عليها ويكون بذلك عوناً له ، وأن يعين مرتبة الأثر ذى القيمة المتوسطة فيحدد له مكانه فى طبقته ، وأن تكون له دراية واسعة بالماضى ، ثم أن يكون هو نفسه كاتباً مجيداً فى وسعه أن يقوم بعمل إنشائى ، وأن تكون لديه الشجاعة فى التعبير عن رأيه وأن يجازف بتعريض نفسه للخطأ . . . الخ . . . فإذا ما رأينا الشروط التى يشترطها الأستاذ پير فى الناقد كان من حقنا أن نتساءل عن مجلة النقد التى يرجو أن تنشأ فى أمريكا أيجد لها من الأعوان عدداً كبيراً ؟

وإنى آسف كل الأسف لأنى لا أستطيع أن أنقل هنا الصفحات الرائعة اللاذعة التى تفيض بملاحظات دقيقة عميقة نافذة ، والتى يهاجم فيها الأستاذ پير النقد ، ولا سيما فى عيبيه الأساسيين وهما : امتناعه عن كل مجهود فى سبيل فهم الأدب الحديث بحجة أنه غامض يستعصى فهمه ، وامتناعه عن إصدار حكمه على الآثار الأدبية بحجة أن هذه مهمة الخلف من الأجيال التالية .

ولا يؤمن الأستاذ پير بالخلف وبحكمهم ، إذ يقول : « حكم الخلف هو الحكم الذى يفرضه بعض المتحمسين على الخلف » . وفى هذا كل الصواب . والأستاذ پير محق بلا شك حين يحذِّرنا من الإسراف فى الاطمئنان إلى الخلف . على أن الخطأ فى الحكم والتقدير قد يقع أيضاً على الأجيال الماضية كما يقع على الأجيال المعاصرة ، وليس مؤكداً أن ما يتمتع به الآن بعض شعراء الماضى من صيت ذائع (موريس سيف مثلا [1]) له مايسوّغه أكثر من ذيوع صيت بعض الشعراء الحديثين . غير أن الأستاذ پير يعلم حق العلم أن الزمن « ليسْ رجلا كريم الخلق رفيع الشمائل » على الرغم مما قاله مازاران ، وأن ليس أشد قسوة من اختبار الزمن . وقد يبهرنا أثر من الآثار فيفتننا ويستهوينا ، لأنه يتفق مع مشاغلنا الحالية ، ومع أساليبنا فى فهم الحياة وفى التفكير وفى الحديث . . . فإذا ما قرأناه بعد مضى عشرة أعوام بدا لنا فارغاً مملاً سطحيــاً . . . وقليل جداً من الكتب تخرج ظافرة من هذا الاختبار حين تخضع له . ولا أظن أنه يمكن

(١) شاعر فرنسى من النصف الثانى للقرن السادس عشر ، صاحب شعر غرامى فيه كثير من الغموض (المترجم) .

الاستعاضة عنه بأى مقياس آخر . فممارسة الأثر وحدها هى التى تبين متانته وثراءه وخصبه . والآثار التى نعتبرها كلاسيكية هى التى تثبت على مر الزمن فلا تستنفد قيمتها قراءة الأجيال ، وإنما تزيدها قراء على قراء . والواقع ، كما يلاحظ الأستاذ پير وهو يوضح بطريقة مستحدثة طريفة جداً فكرة هيجل عن تطور الأثر فى الزمن وبفعل الزمن ، أننا كثيراً ما نعجب بآثار الماضى لأسباب لا تتصل بتلك التى كانت تدعو معاصريها إلى الإعجاب بها ، كما أننا كثيراً ما نجد فى بعض الآثار أشياء غير تلك التى يكون كتابها قد ضمنوها إياها ، أو خيل إليهم أنهم ضمنوها إياها ، بل قد نجد فيها أشياء تختلف عنها كل الاختلاف (ص ٢٣٦) . ونتيجة كل ذلك أن الخلف ، أو توالى الأجيال من الخلف ، يتمتع بحظ أكبر من المعاصرين يتيح له إصدار حكم موضوعى عن الأثر ، وإدراكه وفهمه على وجهه الصحيح ، ويتيح له بصفة خاصة إمكان الحكم عليه .

وهذا يعود بنا ثانية إلى مشكلة إدراك الأثر وفهمه . فليست الأحكام المقررة الخاطئة وحدها التى تجعل الآثار المبتكرة مستعصية الفهم على المعاصرين (وكثيراً ما تكون هذه الأحكام المقررة لها مايسوّغها وتصدر عن شعور حميد : فبعض الآثار التى ناهضها النقاد كانت فعلا مسيئة إلى الدين فى عصرهم ، وبالقياس إلينا تبدو هذه الأحكام المقررة سخيفة ضيقة الأفق ، لذلك نتحامل على النقد الذى وجه إليها . ونحن من غير شك مصيبون . ومع ذلك فليس مؤكداً أنه يجوز للنقد حين يصدر حكمه بشأن كتاب ما أن يهمل تأثير ذلك الكتاب) بل قد يرجع عدم فهم الأثر إلى عوامل تتصل بتكوين الإنسان نفسه . هذا إلى ما فى الأدب الحديث من جنوح متعمد وتعصب مقصود إلى الغموض والعسر . ويرى الأستاذ پير أن أسباب هذا التحول متعددة : منها ضرورة تقتضيها طبيعة الأدب نفسها (فاللغة الشعرية لا تستطيع أن تستغنى عن شئ من الابهام وعن ضوء يتراوح بين الوضوح والإظلام) . ومنها الجنوح إلى ضرب من المخاتلة والتلاعب بالأذهان (مؤداه الرغبة فى أذهال البورچوازيين وفى الاستهزاء بالنقد) . ومنها أيضاً اصطناع صيغ جديدة للتعبير الشعرى والفنى ، ونبذ الصيغ القديمة التى أصبحت جامدة ، والثورة على مذهب التكلف الفكرى والذهنى ، والسعى إلى التعمق والابتكار (أنظر ص١٩٦

وما يليها) والغموضية تصور من ناحيــة التعارض المطرد القائم بين رجل الفن والهيئة الاجتماعية ، ومن ناحية أخرى ثورة رجل الفن الذى تؤذيه حماقة الجمهور وينفــره قصوره عن الإدراك فيعكف على نفسه ويتحدث حديثاً خفيًا غامضاً ، كأنه يريد بذلك أن ينتقم لنفسه من الهيئة الاجتماعية . ويلاحظ الأستاذ پير أن هذه ظاهرة حديثة خاصة بلا شك بعصر تحضُّر الجماهير وهو العصر الذى نعيش فيه (ص ٢٠٠ وما يليها) . غير أن الأستاذ پير يرى أن صعوبة الفن الحديث أو غموضه (وهما حقيقتان واقعتان لا مجرد ظاهرتين شكليتين) لا يمكن اعتبارهما عيباً يؤخذ على هذا الفن ؛ فما يزال أفلاطون وهيجل أشــدِ عسراً ، وتوسيديد كان مستعصى الفهم فى العصور القـديمة نفسها ، ولا شك أن پندار ليس أيسر إدراكا من ملارميه أو ڤاليرى ، ونحن جميعاً نعلم أنه لا يمكن قراءة دانتى دون الاستعانة بتفسير (ص١٩٢ وما يليها) . أما تحرى انتقاء اللفظ وتنميق الأسلوب فلا يجب أن يغيب عن بالنا مذهب « الجونجورزم » [1] .

وإنى آسف أن لم أتفق مع الأستاذ پير فى جميع آرائه . ومما لا ريب فيه أن الفن (لا سيما الفن الأدبى) ينبغى من حين إلى حين أن يجدد أساليبه ؛ فإن الألفاظ والصور والاستعارات تبلى وتذوى ويزول تأثيرها ، وإيلاف الشىء يلغى من قوة وقعه . ومما لا ريب فيه أيضاً أننا حين نقدم للناس خمراً جديدة يحسن ألا نفرغها فى دنان قديمة . على أنه مما لا شك فيه من ناحية أخرى (والأستاذ پير يعلم ذلك حق العلم ويجيد التعبير عنه إجادة خاصة) أن الدنان الحديثة كثيراً ما تــكون بالخمر الرديئة المغشوشة ، وأن البحث عن الطرافة قلما تصحبه طرافة حقيقية (بل قد لا تصحبه هذه الطرافة أصلا) ، وأن مستكشفات الذين يتوغلون من رجال الفن فى أعماق حياتهم الداخلية (الشعورية واللاشعورية) كثيراً ما تــكون قليلة القيمة . لذلك أرى أن صعوبة الأدب الحديث وغموضه (والشعر بصفة خاصة) ليس لهما ما يسوّغهما بحال ، وأن أوجه المقارنة التى أتى بها الأستاذ پير ليست من الإقناع فى شىء .

(١) نسبة إلى « جونجورا » شاعر أسبانى عاش أواخر القرن الســادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وعمد فى كتابته إلى اصطناع أسلوب متكلف . ونشأ مذهب باسمه .

فيخيل إلىّ أن الفن المعاصر، وذلك بلا شك على أثر مالفت إليه الأستاذ بير من انقطاع الصلة بين رجل الفن والجمهور، (وأنا أعرف ما فى الرأى الذى أعرضه من ادعاء ومجازفة) — هذا الفن يتجه اتجاها خاطئاً، وتبدو عليه جميع أعراض الاختلال، بل الفساد. ولو كنت ماركسيًّا لقلت إنه يعكس عكساً صحيحاً انحلال الجماعة البورجوازية وتفككها، وإن هذا ما يحمله على إيثار التفكك على غيره من الاشكال: تفكك فى الصيغ الشعرية، وتفكك فى قواعد النحو، وتفكك فى الأشكال والأجسام فى فن التصوير... الخ ولو كنت فقيها من فقهاء الدين لقلت إن هذا الفن الحديث تفسده من أساسه خطيئة الكبرياء، وإنه فن إبليسى، فنٌّ يثور فيه الفنان على الخالق وعلى العالم الذى خلقه، فيحاول أن يستعيض عنه بعالم آخر من إنشائه.. وإلى هذا ترجع بعض ظواهر خاصة مثل محاولة إنشاء لغة خاصة (جيمس جويس) والامتناع عن الاتباع والتقليد، وتصوير المصورين للأشياء فى تشويه بشع... ولأضفت إلى ذلك أن هذه المحاولة الشيطانيّة الجديدة لم تصب نجاح المحاولة الأولى (فليس الإنسان ملاكا). فمما لاشك فيه أن الفن المعاصر مخالف لأوضاع الكون. وإذ لم أكن ماركسيًّا ولا فقيهاً من فقهاء الدين، فإنى أقول فى كل بساطة إن الفن الحديث يمثل فى رأيى ثورة على المعانى والألفاظ والمشاعر جميعاً.

ومن هنا نشأ مذهب الدادايزم وما أتى به من تخبط سخيف، ومذهب السوريالزم وما يعتريه من طفولة سقيمة ثقيلة يملؤها الغرور. ومن هنا نشأت محاولات فن التصوير الحديث فى إظهارنا على الأشياء من جميع نواحيها فى نفس الوقت... الخ.

وقد فقد الفن الحديث مركزه ومهمته فى الحياة. لذلك أصبح شاعراً بنفسه، كل الشعور (كما يشير إلى ذلك الأستاذ بير ص ٢٨٣). فقد الثقة بنفسه فحاول أن يصير شيئاً آخر غير الفن: أن يصير سحراً أو فلسفة فيما بعد الطبيعة، أو غير ذلك من الأمور. وهذا ما يحمله على القيام بتجارب، ويدفعه إلى أن ينسى أن الشعر إنما يقرض ليحفظ عن ظهر قلب لا ليملأ صفحة من صفحات المطابع بالأشكال الزخرفية، وأن الفن القصصى يجب أن يشتمل على شىء يُقص على حكاية، وأنه إذا انعدمت الطرافة فى هذه الحكاية انعدمت بذلك قيمة

القصة نفسها [1] ، وأن صور المصورين إنما ترسم لينظر إليها ، وأن ألحان الموسيقى إنما توضع لتسمع ، وأخيراً وليس آخراً أن الأثر الفنى ينبغى أن يروقنا ويلذنا وأن يكون مصدر متعة لنا [2] . أما الفنان الحديث فلا يريد أن تروقنا آثاره ، وإنما يريد أن يتجه الاهتمام إليه باعتباره هو هو ، واعتبار ما يعبر عنه هو ، وأن يكون فنه مصدر إعجاب . ولما كانت الاعترافات لا تحمل طرافة إلا إذا كان لدى صاحبها شىء يعترف به (وهذا قلما يحدث) فإن الفن الحديث ، فن القوم الذين ليس لديهم شىء يقولونه ولكنهم مع ذلك يجيدون القول على نحو مستحدث مبتكر ممتع ، هذا الفن يفقد فنيته ويصير تكلفاً بيانياً ، إن صح هذا التعبير الذى تظهر عليه الغرابة .

على أن من المقرر أن الفلاسفة لا يفقهون شيئاً فى الفن ، وأن الأساتذة (ولاسيما المؤرخين منهم) لا يفقهون شيئاً فى أمور الأجيال المعاصرة . لذلك يجدر بى أن أقف هنا ، وأنا أحيل القارىء إلى كتاب الأستاذ پير وما فيه من خصب وثراء ، ومن حذق وإيحاء ؛ فإنه سيجد فى قراءته — كما وجدت — أعظم المتعة وأقوم الغناء .

ألكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

---

(١) وعلى ذلك فإذا كان « حب سوان » لا يزال يحتفظ بطرافة ممتعة جداً ، فذلك لأنه يقص شيئاً يستهوينا إلى أقصى حد ، فهو يقص «قصة غرامية» ، فى حين يصعب جداً أن نقرأ دون أن يعترينا السأم ، الأجزاء التى لا تنتهى ، المتعلقة بأسرة جرمانت . (يشير الكاتب بذلك إلى مؤلفات بروست — المترجم) .

(٢) ومسيو پير يلح بحق فى هذه النقطة .

بدعة المحاريب

[ننشر هذا البحث القيم غير محتملين شيئاً من تبعاته الفنية والتاريخية والدينية أيضاً . ونعتقد أن المختصين خليقون بأن يتعقبوه بالنقد والتمحيص .]

١

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فيما تحتفظ به من نفائس الكتب والآثار ، بمخطوط غريب أسماه مؤلفه « كتاب إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » . والكتيب أو الرسالة وريقات معدودات ، كتبها ناقلها بخط حسن مقروء ، وأدخلها فى مجموعة من الرسائل المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى ، صاحب « تاريخ الخلفاء » ، و « تفسير الجلالين » ، و « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » . وهى مصنفات شهيرة لعالم جليل ، ومؤرخ واسع الاطلاع . كان مولده بمصر سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥) ، وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥) . وقد يسر علينا السيوطى نفسه سبيل البحث عنه ، والتفتيش عن أعماله ، فأورد فى كتابه « حسن المحاضرة » كشفاً بمصنفاته ، وذكر لنا أنها بلغت ثلاثمائة كتاب « سوى ما غسله ورجع عنه » ، وأنه كتب فى فنون التفسير والفقه والحديث وتعلقاتها ، وفى فنون العربية والأصول والبيان والتصوف والتاريخ والأدب ، وأنه كتب إلى هذا فى « مسائل مخصوصة » منها رسالة فى « تحريم الاشتغال بالمنطق » ، وأخرى عنوانها « أنموذج اللبيب إلى خصائص الحبيب » ، وثالثة فى « فصل الخطاب فى قتل الكلاب » . ولم يذكر لنا السيوطى أنه كتب رسالة بالعنوان الذى يحمله مخطوط دار الكتب ، أو أنه شغل بموضوع المحاريب مثل ما شغل بتحريم المنطق ، عملا بفتوة سمعها من ابن الصلاح . ولهذا فإنى أشك فى صحة انتساب هذه الرسالة إليه بالرغم

مما انطبع فيها من مظاهر أسلوبه وتفكيره، غير أنى سأتمهل فى الرفض وأنظر فى موضوعها.

الرسالة بحث فى موضوع حديث يُعزى إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وللحديث، كما نقله السيوطى، نصان: النص الأول «اتقوا هذه المذابح»، والنص الآخر «لا تزال هذه الأمة — أو قال أمتى — بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى». وحاول السيوطى جهده أن يثبت صحة سند هذا الحديث، ونقل فى ذلك أحاديث أخرى عن قوم من الأوائل، قال البعض فيها إنه لم يكن بمسجد المدينة محراب قط على عهد الرسول، ولا فى زمان الخلفاء الأربعة، وأورد البعض الآخر أن المحاريب من شأن الكنائس، وأن اتخاذها فى المساجد من أشراط الساعة، وأخرج أحدهم عن على بن أبى طالب أنه كره الصلاة فى «الطاق». وأجمعوا كلهم على ذكر «المذابح»، وهم فى ذلك يقصدون «ما أخرجه عبد الرازق فى (المصنف) عن كعب قال: يكون فى آخر الزمان قوم يزينون مساجد، ويتخذون مذابح كمذابح النصارى، فان فعلوا ذلك صب عليهم البلاء».

حديث السيوطى ينصب إذن على المذابح، لا على المحاريب، أو إنه فسر هذه بتلك، وجعل منها عنوان رسالته. وفى الأحاديث علماء، ولست أشك فى أنهم لا يترددون فى إسقاط حديث السيوطى، معنى وتركيباً وسنداً. والذى أجزم به، على كل حال، هو أن رسالة السيوطى مرفوضة علما، مستنكرة تاريخا حتى لو كانت مخطوطة بيده. إذ لا يستطيع المؤرخ، مهما بلغت حماسته فى الرأى أو مقدرته على الاستنباط أن يعترف برواية نقلها الراوى بعد تسعة قرون طويلة من تاريخ حدوثها، مهما أضفى عليها راويها من صحة المظهر واستقامة المعنى. وماذا تقول فى راو يطلع علينا اليوم، من غير مرجع أو سند صحيح بحديث مبتكر عن المستنصر العبيدى خليفة الفاطميين فى مصر، أو بقصة مطوية عن القائم بأمر الله، خليفة العباسيين فى بغداد، أو برواية منسوبة إلى السلطان ملكشاه السلجوقى، وكانوا جميعاً أحياء منذ تسعمائة سنة؟

والأمر شبيه بهذا فى حديث السيوطى؛ فانه لم يأت بذكره راو من رواة الأحاديث، ولم ينقله قبله مؤرخ من مؤرخى الإسلام. وإذا كان العلماء

يرمون بالشك أحاديث كثيرة من أحاديث البخارى ، مع ما نعرفه عنه من دقة البحث ، وقرب العهد ، نسبياً ، بالرسول — إذ عاش بعده بمائتى سنة — أليس حديث السيوطى أولى بالشك وأبعد عن التصديق ؟

والذى ذكره رواة الأحاديث وعلماء الفقه قبل السيوطى لا ينصب على المحاريب ، فلم يتعرضوا لها بخير ولا بشر ، وإنما كرهوا زينتها ، حتى لا يشغل الإمام بها عن الصلاة . فقد ذكر ابن الحج فى « المدخل » نهياً عن زخرفة المحراب ، وقال إن ذلك من البدع ومن « أشراط الساعة » ، ونقل عن الطرطوشى عن الإمام مالك أنه كره ما كانوا يعلقونه من خرق كسوة الكعبة فى المحراب وغيره ، فإن ذلك كله من البدع « لأنه لم يكن من فعل من مضى » .

وذكر كثير من العلماء الذى سبقوا السيوطى ، أمثال الكاشانى ، وقاضى خان ، والزيلعى . والطرابلسى ، ما يدل على أن المحاريب كانت شائعة فى مساجد الإسلام ، وأنه لم يكن هنالك من حظر فى بنائها ، أو نهى عن استعمالها . بل إنهم أجمعوا على ذكر محاريب نصبها الصحابة فى القرى والأمصار التى فتحوها ، وإن كانوا لم يبينوا لنا أشكالها . إلا أنهم أوصوا باعتبارها دلائل لتعيين القبلة والتوجه فى الصلاة .

وبالرغم من هذا ، فقد تعلق كثير من المستشرقين وعلماء الآثار بحديث السيوطى ، وأولوه ثقتهم ، وقالوا معه ، أو على الأصح محتجين به ، إن المحراب بدعة ، وإنه من عمل الكنائس . أما الشق الأول مما ينادى به المستشرقون فيكاد الإجماع ينعقد عليه ، وحديث السيوطى لا يغنى فى ذلك قليلا ولا كثيراً . وقد جاء فى رحلة ابن بطوطة أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو الذى صنع المحراب لمسجد المدينة ، وأضاف ابن بطوطة إلى ذلك أنه « قيل إن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد » . غير أن المقدسى والسمهودى ، وغيرهما من المؤرخين ، قالوا إنه لما تولى عمر بن عبد العزيز بناء مسجد المدينة « وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ لمهاجرين والأنصار فقال احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غيَّرها ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . وفى هذا بعض الدلالة على أنه كان بالمسجد محراب قبل ذلك . ويقول السمهودى فى وصفه الشامل وتحليله الدقيق لمسجد المدينة فى كتابه « خلاصة

الوفى » إنه كان بجدار القبلة « إزار رخام مخلق بخلق ، فيه الوتد الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول » . فكأنه يدلنا على أنه كان بمسجد المدينة محراب على حياة الرسول . أما فى غير هذا المسجد ، فقد ذكر الكندى وابن عبد الحكم وغيرهما من المؤرخين القدماء أنه « لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وإنما قرة بن شريك جعل المحراب المجوف » . وقرة بن شريك ولى إمرة مصر بين ربيع الأول سنة تسعين (يناير ٧٠٩) وربيع الأول سنة ست وتسعين (ديسمبر ٧١٤) ، وكان عمر بن عبد العزيز قبيل ذلك عاملا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، ولاه سنة ست وثمانين (٧٠٥) وعزله سنة ثلاث وتسعين (٧١١) . وقد أخذ العلماء برأى غالبية المؤرخين ، وأجمعوا على الحكم بأنه لم يكن لمسجد من مساجد الإسلام محراب مجوف قبل سنة سبع وثمانين للهجرة . غير أنى أرانى مضطراً إلى الخروج على هذا الاجماع ، فهناك أثر ثابت ، قد تحققت حديثاً من وجوده ، ولا سبيل إلى الطعن بعد اليوم فى صحته ، وهو يناقض هذا الرأى الأخير .

والواقع أن مؤرخى العرب لم ينكروا إطلاقاً وجود المحاريب قبل سنة سبع وثمانين فى غير مسجدى الرسول بالمدينة ومسجد عمرو بالفسطاط . بل إنا قد رأيناهم يترددون فيما يتصل بمسجد المدينة ، واختلف رأيهم فى محرابه ، فقال أحدهم : كان للرسول محراب فى ذلك المسجد ، وقال آخر إن عثمان هو أول من جعل له محراباً . ثم إنهم لم يتحدثوا عن المساجد الأولى فى الإسلام ، فلا نعرف من رواياتهم إذا كان المحراب قد أدخل فى بناء مساجد البصرة والكوفة وزمام ، ولكننا نعرف على كل حال أنه كان فى نظام مسجد القيروان ، وهو الذى أقامه عقبة بن نافع سنة خمسين (٦٧٠) .

حدثنا كثير من المؤرخين عن تاريخ بناء مسجد القيروان ، وذكروا كيف أن عقبة بن نافع بدأ ينشىء هذه البلدة بعد دخوله إفريقية ، وكيف اختط فيها دار العمارة والمسجد الأعظم . وذكروا أن الناس كانوا يصلون فى المسجد قبل أن يحدث فيه بناء ، وأن أمرهم اختلف فى القبلة . وقيل إن آتياً أتى عقبة فى منامه ، وأن صوتاً من عند الله أسمعه أين يضع محرابه من المسجد ، وتناقل الناس هذا الحديث إلى اليوم ، وإليه يرجع ما يحملونه من الاجلال للرجل

ولمسجده . ذكر هذا جمهرة من المؤرخين من بينهم ابن عذارى والنويرى وابن خلدون وابن حوقل والبكرى . ولا شك أن ما نقله عبيد الله البكرى هذا عن القيروان هو أصدق صورة وضعت عن تاريخ هـذه المدينة ، وكتابه عن المغرب مشهور ، والثقة به عظيمة . وإن يكن وصفه للجامع غير شامل فهو وصف دقيق ، يسهل تحقيقه ومراجعته . وإن يكن البكرى قد عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى ، فقد نقل كثيراً من أخباره عن أصدق مارواه المؤرخون السابقون ، وأكثرهم ثقة بالرواية . وقد أثبت البحث العلمى الحديث ، كما أثبتت المقارنة التاريخيـة ودل التحقيق الأثرى ، على أنه لا مجال للشك فيما نقله البكرى إلينا من تاريخ المغرب والقيروان .

يحدثنا البكرى أن عقبة بن نافع أقام مسجده وأقام محرابه ، وأن حسان ابن النعمان هدم هـذا المسجد وشيد عليه بناء جديداً ، وكان ذلك بين سنتى ثمان وسبعين وثلاث وثمانين (٦٩٣ — ٦٩٧م) ، ويحدثنا أن بشر بن صفوان زاد فى هذا المسجد زيادة كبيرة سنة خمس ومائة (٧٢٤) ، وأن يزيد بن حاتم هدم المسجد مرة ثانية وبناه من جديد ، لما ولى إفريقية سنة خمس وخمسين ومائة (٧٧٢) . ويؤكد لنا البكرى أن جميع هؤلاء الولاة والبناة لم يمسوا محراب عقبة ، وأنهم تركوه على ما كان عليه حتى كانت سـنة إحدى وعشرين ومائتين (٨٣٦) . فى تلك السنة ولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمرة إفريقية ، وهدم جامع القيروان كله ، ثم أراد أن يهدم المحراب فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فألح فى ذلك ، ولـكنه حيل بينه وبين هدمه ، ويقول البكرى ، منعه الناس من المساس بالمحراب « لما كان قد وضعه عقبة بن نافع ومن كان معه » . فقد كان هـذا المحراب ، كما قرأنا ، موضع إجلال القوم وتقديسهم ، وكانوا إلى عهد زيادة الله ، ماز الوا يتناقلون حديث الوحى الذى أبان لعقبة موقع محرابه من المسـجد . ويروى البكرى أن صانعاً ذا حيلة من الصناع ، تقدم بعدئذ إلى زيادة الله برأى يوفق بين رغبته فى بنـاء محراب جديد ، وبين إجماع القوم على الاحتفاظ بمحراب عقبة ، وأن هذا الصانع صنع لأميره حلية من لوحات الرخام المنقوش المخرم ، وألصق هذه اللوحات على جدار المحراب القديم ، فبدا فى ثوب بديع قشيب ، ولم يصب محراب عقبة بسوء .

وقد كنا نستطيع أن نقنع بهذه الحجة ، فإن فى رواية البكرى هذه من الثقة والاستقامة ما يفتقر إليه حديث السيوطى ، وما يغنينا عن استزادة الإيضاح . ولكننا نفند آراء معمارية ، فلندع العناصر المعمارية نفسها تحاج وتتكلم ؛ لأن محراب عقبة هذا ما زال كما قال البكرى منذ تسعمائة سنة ، قائماً « على بنائه إلى اليوم » . وإنا لنراه من بين خروم لوحات الرخام التى صنعها الصانع النبيه فى عهد زيادة الله ، وكسا بها جدران ذلك المحراب المبجل .



محراب مسجد القيروان (سنة ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م)

يرى الناظر خلال هذه الخروم أنها تخفى من ورائها جداراً مقوساً . على هيئة جوفة فى جدار القبلة ، غير أن الفراغ الضيق الذى يلمحه الناظر من ثنايا

هـذا الجدار يحول دون تبين شكله كاملا . ولهذا لم يشأ أحد من المشتغلين بالآثار أن يعترف بطبيعة هذا المحراب المجوف العتيق ، وادعى أحدهم أن قيام هذا الجدار ، أو هذه الجوفة أمر طبيعى ، إذ أن لوحات الرخام المخرم تتطلب إيجاد فراغ من خلفها حتى تظهر نقوشها ، وقال إن هذا الاحتيال البسيط ، أدى إلى نشأة أسطورة المحراب ، وإلى اختلاق القوم لحديث محراب عقبة .



تفصيل من اللوحات الرخامية بمحراب مسجد القيروان

ولهذا لم أر بدا من العودة إلى القيروان ، وقمت منذ ثمانية أعوام بدراسة هذا المحراب دراسة جديدة وافية . وقدم لى أصدقائى التونسيون معاونة جليلة أذكرها لهم هنا بالشكر والتقدير ، وقمت بنقر جدار القبلة فى المسجد فى

مواضع مختلفة ، وأزلت طبقات الجير التى تكسوه فى مواضع أخرى ، وتبين لى بصفة قاطعة أنه بنى من حجارة كبيرة منتظمة القطع ، تطابق فى استطالتها وفى استوائها وفى حجمها وفى رصها نوع الحجارة التى بنيت منها مئذنة المسجد فى الجزء الأوسط من برجها . وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن هذه المئذنة أقيمت سنة خمس ومائة ، أثناء ولاية بشر بن صفوان ، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك .

أما جدار المحراب فكان أبعد منى منالا ، وكانت عملية تحقيقه أدق سبيلا ، ولم يكن انتزاع لوحات الرخام بالأمر اليسير الهين ، فاكتفيت بلوحتين متباعدتين وتحايلنا على نزعهما من موضعيهما فى حيطة بالغة وحذر شديد . فبدا لنا جدار المحراب مكسوا بطبقة كثيفة من التراب ، قاتمة اللون ، عطنة الرائحة ، وأسرعنا فنقرنا نقرات هينة وأزلنا بعضاً من الغلاف الجيرى ، فتبين لنا أن حائط المحراب هذا قد صنع طرف فيه من قطع من حجارة متبعجة ، لا استواء فيها ولا اعتدال ، وأنه فى طرف آخر ، قد رصت فيه قطع منتظمة من الآجر ، وأنه فى بنيانه وفى مظهره وفى تكوينه لا يتصل بجدار القبلة طبيعة ولا زمنا .

لا شك فى أن جوفة محراب القيروان أقيمت فى غير السنة التى أقيم فيها جدار قبلته أيام بشر بن صفوان . ولا شك فى أن هذه الجوفة شيدت فى غير الوقت الذى أمر فيه زيادة الله ببناء المحراب الجديد ؛ فإن عناصر بنائها تنفى القول بوحدتهما الزمنية . وقد ذكر أبو عبيد الله البكرى أن زيادة الله قد أولى محرابه وقبته التى تليه كل عناية ، وأنه حرص على أن تكون موادها ثمينة وصناعتها بديعة ؛ والأمر عكس ذلك فى بناء هذه الجوفة ، فهى غليظة المظهر والعنصر ، وهذا وحده يكفى للدلالة على أن هذه الجوفة لا تنتمى إلى عصر زيادة الله ، ولا بد أن تكون أقدم من ذلك عهداً .

وقيل إن هذه الجوفة شيدت خلف لوحات الرخام لتكون هذه لتلك ستاراً يزداد بها بيان نقوش اللوحات وضوحاً وإبداعاً . ولو أن الأمر كان كذلك لروعى أن يكون بناؤها منتظماً ، وأن يكون بينها وبين اللوحات فراغ فاصل متسع ، والحال على عكس ذلك أيضاً ؛ فسطح هذه الجوفة يقترب من لوحات الرخام حتى لمسها فى مواضع عديدة ، فالنظر فيها لا يخترق خرومها ، والهواء

لا يمرح ولا ينفذ فى فضائها ، وأنت ترى اللوحات لا تتدلى أمام هذه الجوفة فى خفة ورشاقة ، فهذه عائق لوضوح جمال تلك اللوحات ، وليست وسيلة إلى إظهاره . ولا شك عندىَ فى أن هذا الحائط الغليظ لم يشيد خصيصاً ليكون ستاراً لهذه المنسوجات الرخامية البديعة .

كان هذا الحائط قائماً ، وكان هذه الجوفة مشيدة ، فاضيفت إليها لوحات الرخام فى عصر زيادة الله ، وكان ذلك وسيلة لأحد البناة توصل بها إلى إرضاء رغبة الأمير ، وإلى الإبقاء على اعتقادات قومه ، فاحتفظ بمحراب عقبة ، وقال لزيادة الله : « أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك . »

ولسنا نحتاج إلى حجة بعد هذا لدعم هذه الحقيقة ، ولكننى أضيف إلى كل هذا حقيقة أخرى . ذلك أن القبلة ، التى هى موضع المحراب ، عنصر رئيسى من شكل المسجد وتخطيطه . فهذا الموضع يتحدد به اتجاه جدار القبلة ويجب أن يكون هذا الاتجاه عموديا على خط يصل القبلة إلى مكة . وكان يرجى أن يكون هذا هو الواقع فى مسجد القيروان ، إلا أن اتجاه القبلة فى هذا المسجد منحرف إلى الغرب بضع درجات . وقد أخطأ أصحاب عقبة فى تحديد شطرها ، إذ لم يكونوا قد بلغوا من العلم ما يؤهلهم لدقة تحديد الجهات . وقد ذكر المؤرخون أن هؤلاء الأصحاب اختلف أمرهم فى القبلة ، ولم يحسم خلافهم إلا ما أعلنهم عقبة به من أن صوتاً من عند الله عين له موضع المحراب . ولو أن تحديد هذه القبلة وتخطيط حائط المحراب يرجع عهدهما إلى خلفاء عقبة فى القيروان ، لكان أولئك الخلفاء أكثر دقة فى ذلك من أصحاب عقبة ، وأشد تحقيقاً ، ولما كانت القبلة على ما هى عليه اليوم من الانحراف عن شطر المسجد الحرام . ولو أن القوم لم يتناقلوا على تعاقب الأعوام قصة الوحى التى علقت بتاريخ قبلتهم ، لقوّموا انحراف هذه القبلة وصححوا من موضعها ، إلا أن هذا المحراب لم يمسسه أحد من بعد عقبة بسوء ، وظل إلى يومنا هذا محل الإجلال والإكبار .

وعلى هذه الأسس كلها نستطيع أن نقرر أولا أن محراب عقبة كان مجوفا ، وما قبلته إلا هذه الجوفة التى كشفنا عنها من وراء لوحات الرخام والتى يراها الناس من خلال خرومه ؛ فهذا المحراب باق منذ سنة خمسين للهجرة « على بنائه إلى اليوم » . وعلى هذه الأسس نستطيع أن نقرر ثانياً أن محراب القيروان هذا ،

فيما نعرفه ، أقدم محاريب المساجد على الإطلاق . ونستطيع أن نقرر أخيراً ، أن ما نقله السيوطى من النهى عن المذابح ، لا ينصب على المحاريب ، وأن المحراب لم يكن بدعة فى المساجد . وسيتبقى علينا أن نبحث الشق الثانى من حديث السيوطى ، ذلك الذى يدعى فيه أن المحراب كان من شأن الكنائس .

٢

سبق لنا القول بأن علماء الآثار رضوا جميعاً بحديث السيوطى ، والواقع أنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهب الرجل إليه ؛ فجزموا بصحة روايته ، بالرغم من تشككه هو نفسه فيها ، وأقروا الرأى القائل باشتقاق المحراب من مذابح الكنيسة . ولم تقتصر حجتهم فى ذلك على ما جاء بهذا الحديث ، فانهم يدركون أنه بمفرده لايصلح أساساً لإقرار مثل هذه النظرية الخطيرة ، فالتجأوا إلى غيره من المؤرخين ، ونظروا فى رواية ذكرها السمهودى عن أعمال عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة ، ولكنهم فى هذا أيضاً لم يقدروا هذه الرواية على حقيقتها ؛ ونسوا أو تناسوا أن السمهودى أبعد عهداً بالرسول من السيوطى ، فانه توفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وقيل إحدى عشرة وألف . والذى رواه السمهودى فى « خلاصة الوفى » أن الوليد لما أراد أن يعمر مسجد الرسول كتب إلى ملك الروم ليرسل إليه عمالا وفسيفساء ، فبعث إليه بأربعين من الروم ، وبأربعين من القبط ، وبأربعين ألف مثقال من ذهب وفسيفساء . ونقل السمهودى عن الواقدى أن عمل القبط كان بمقدم المسجد . واتخذ بعض المستشرقين هذه الرواية حجة للادعاء بأن الفضل فى إحداث المحراب المجوف فى مسجد المدينة يرجع إلى هؤلاء القبط دون غيرهم .

ولكن السمهودى لم يقل هذا ، فهو محض استنتاج . وكذلك ما ذكره السمهودى يحتمل الشك ، بل إن هذا الراوى نفسه يعترف بهذا الشك ، فهو يروى ثلاث روايات ، على أن إحداها صحيحة ، وقد تكون الرواية التى تمسك بها المستشرقون أشد هذه الروايات كلها مغالاة . فالرواية الأولى نقلها السمهودى عن يحيى بن قدامة بن موسى ، وهى التى ذكرناها ، والرواية الثانية نقلها عن ابن زبالة ، وهى أن ملك الروم بعث إلى الوليد « بأحمال من فسيفساء وبضعة

وعشرين عاملا » ، والرواية الثالثة أنهم كانوا « عشرة عمال » وقال عنهم ملك الروم إنهم « يعدلون مائة » .

فهنالك خلاف إذن فى عدد العمال ، وهنالك خلاف أيضاً فى جنسيتهم . وجدير بنا أن نذكر أن السمهودى يكاد ينفرد بذكر رواية القبط ، ولم يشاركه فى نقلها كثير من كبار المؤرخين والثقات الذين نقلوا تاريخ مسجد المدينة ودقائق تطوراته ، كابن سعد ، واليعقوبى ، والطبرى ، والبخارى ، وابن بطوطة وغيرهم .

وإذا افترضنا جدلا صحة رواية السمهودى ، وسواء أكان القبط يشتغلون فى بيت الصلاة ، أم فى بهو المسجد ، فانهم كانوا فعلة فحسب ، يشتغلون تحت إشراف رئيس مسلم اسمه صالح بن كيسان . وليس من الجائز أن فعلة من الأجانب يبدلون من نظام أول مساجد الإسلام وأكثرها اعتباراً . وأعود فأسجل مرة أخرى ما ذكره السمهودى نفسه من أن عمر بن عبد العزيز ، لما بلغ هدم محراب مسجد المدينة « جعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . فمن المغالاة حقاً أن نحمل نصوص التاريخ أكثر من طاقتها ، وأن نمزج الخيال بالحقيقة ، وأن نزج بالقبط فيما هم براء منه .

ويكفى كل هذا للدلالة على أن ما يستخلصه علماء الآثار المستشرقون من رواية السمهودى زائد عن الحد . فان اشتغال صناع فى بناء مقدس لا يؤدى حتما إلى إحداث عنصر فيه ، وخاصة إذا كان هذا العنصر رئيسياً فى نظام هذا البناء ؛ إذ أن المحراب ، كما يعترف المستشرقون أنفسهم ، أكثر مراكز المسجد تقديساً ، وأولاها بالإجلال ، حتى إن لفظ المحراب يطلق مجازاً على الصدر فى المجلس ، فيقال فى اللغة المحراب أشرف المجالس ، وهو حيث يجلس الملوك والسادات والعظماء . ولعله اختير فى الاسلام لما كان يعبر به فى الجاهلية عن أسمى المبانى ، تلك التى أقيمت خصيصاً للملوك .

ولنعد إلى حديث السيوطى ، وإلى مازعم فيه من علاقة المحراب بمذبح الكنيسة ، وإلى ما قد يصل بين العنصرين مبنى ومعنى . والثابت أن النقل والاقتباس فى الفنون وفى العمارة ، لا يتمان عفوا ، بل إن الحاجة هى التى تدفع الناقل إلى نقل ما يريد أن يستعين به فى قضاء حاجته ، والغاية هى التى ترسم للمقتبس طريق ما يرجو به تحقيق غايته . والغاية أو الحاجة فى هذا أهم من

الأصل ، والفكرة أبدى من الصورة . فالفكرة التى تنقل الشكل لغير ما وضع له ، أحق بالتقدير من الشكل نفسه . والثابت أيضاً أن لمذابح الكنائس وظيفة غير التى لمحاريب المساجد ، وأن هيكل الكنيسة وضع لغير ما وضع له محراب المسجد ، وأن كلا منهما يؤدى فى بنائه وفى موضعه وفى شكله غاية مختلفة ، متباينة ، منعدمة الصلة والموضوع بينهما . وإذا كان اختلاف الغاية لا يستبعد فكرة الاشتقاق ، فهو على الأقل يفرق بين الفضل فى الاقتباس ، والبداهة فى النقل . والمعروف قطعاً ان المعنى الذى يتركز فى هيكل الكنيسة أو فى مذبحها بعيد كل البعد عن احتمال إيحاء المعنى الذى يتركز فى المحراب .

أما فى مبناه ، فالمحراب يختلف شكلا عن هيكل الكنيسة . فهذا فناء كبير فى صدر الكنيسة ، يتسع على الأقل لمنضدة توضع عليها معدات الشعائر والمراسيم ، وفضاء كبير ، يذهب القائم بهذه الشعائر ويجىء فيه ، فى فسحة من الزمن والمكان . أما المحراب ، فهو جوفة فى حائط تضيق بغير الإمام ، بل تكاد تضيق بالإمام نفسه فى ركوعه وسجوده وجلوسه . فليس فى مبنى العنصرين ، المحراب والهيكل ، كما لم يكن فى معناهما ، صلة أو ارتباط .

ومع هذا فما الذى كان يدعو بناة المساجد أن يقفوا فى تأمل أمام هياكل الكنائس ، فيرسموها ويحوروها ويصغروها ، ويخرجوا منها بناء قريباً لها أو بعيداً عنها ، وشيئاً لا صلة له بها وهو المحراب ؟ ما الذى كان يدعوهم إلى هذا وفى الصحارى التى عاشوا عليها مغارات توحى فتحاتها بأشكال المحاريب ، وفى الجبال التى اجتازوا بها ، فى الشام وسيناء وإفريقية ، فجوات كأنها محاريب قطعت فى جدران القبلة ، وفوق هذا وذاك كانت آثار الرومان والفرس تمتد وتنتشر فى البلاد التى فتحها العرب ، وكانت تعرض على بناة المساجد طاقات صغيرة ضيقة مجوفة لا تختلف فى شئ كثير عما اتخذته أشكال المحاريب ، وكانت هذه الطاقات فارغة تبين أوضاعها جملة وتفصيلا ، أو كانت تظل تمثالا واقفاً كأنه الإمام يتوجه إلى المصلين قبل أن يولى وجهه نحو القبلة للصلاة . بل إن الباحث قد يجد إلى هذا فى الكنائس المسيحية الأولى نفسها شكلا أقرب من هياكلها إلى إيحاء شكل المحراب . غير أننا سنرى بعد قليل أننا لا نستطيع أن نجزم على ثقة ويقين بأصل معمارى أجنبى للمحراب ، وأنه ليس فى مراجع التاريخ ، وليس فى آثار العمارة التى سبقت الاسلام ، تفسير صحيح لشكله .

وكل هذا يدلنا على أن الحديث الذى أثبته السيوطى ، حديث ينقصه السند ، ويرفضه النقاش . وكذلك يدلنا على أن الحقائق تنقض ما ذكره السمهودى ، أو أن الشك ، على الأقل ، يحوم حول روايته . وإلى هذا فقد عاش هذان المؤرخان فى عصر جد بعيد عن الحوادث التى ذكراها ، والتى لم يشر إليها مؤرخ آخر غيرهما أقرب منهما إليها ، وأجدر منهما بالثقة ، بل ينقضها كثير غيرهما من المؤرخين . ولهذا فان الادعاء باشتقاق المحراب من الكنائس لا يقوم على حجة ثابتة ، ويفتقر إلى البرهان ؛ فالحقيقة تنكره قطعا ، والتاريخ يرفضه بتاتا .

أقول هذا فى ثقة لا يتطرق إليها فتيل من الشك ، وأقوله فى قوة تستند على دعيمة من البناء ، معنى لا مجازا ، دعيمة ظلت راكزة فى الأرض منذ أقيمت سنة خمسين للهجرة ، وحتى يومنا هذا ، وأقوله فى صدق أقره التاريخ منذ أكثر من ألف عام ، ولم توهنه بعد ، حجة جدية ، أو ادعاء قويم .

يخيل إلىّ أن ما انتهيت إليه من نقض حديث السيوطى ، وما قيل فى بدعة المحاريب ، يتطلب المزيد من البحث لإيضاح أمرين : يتصل أحدهما بنشأة حديث السيوطى ، ويتصل الآخر بنشأة المحراب نفسه .

والواقع أن الحيرة تأخذنا حقا فى إدراك السبب الذى حمل السيوطى او محدثه ، على خلق حديث مثل الذى شغلنا ، مع ما فيه من اختلال واضح وركاكة ثابتة . وأخشى أن يخرجنى البحث عن حلقة التاريخ وموضوع الآثار ، ويجرنى إلى دراسة فى فقه الدين والتفسير لا قبل لى بالمضى فيها . ولكنى أعتقد عن يقين أن تطورا فقهيا قد أصاب علماء الدين فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى ، وأن أحوال مصر الاجتماعية والسياسية قد دفعت كثيرا منهم إلى نوع من الزهد ، ودفعت البعض الآخر إلى التحايل على إنكار صلاة الجماعة ، وإلى وضع الأحاديث وضعا يمكنهم من إثبات ما كانوا يسعون إليه ، أو يتزلهم مكانة أسمى من العلم بما كان زملاؤهم به جاهلين ، حتى إن أحدهم ، وهو ابن الحج ، ذكر فى « المدخل » ، أن المحراب أقل أجزاء المسجد جلالا ، وحرم على الامام أن يأخذ مكانه فيه ، مع مافى هذا من خلاف لما أجمع عليه الناس من تقديس المحراب . والظاهر أيضا أن علماء الدين حينئذ ، بل فيما قبل ذلك بزمن طويل ، كرهوا المغالاة فى زخرفة المساجد ، فإنها فيما ظنوا تشغل المصلين عن الصلاة ،

وزخرفة المحراب تشغل الإمام ، وهذا أدهى وأكثر فحشا ؛ فلم ير السيوطى حرجا من أن يشبه المحراب بالمذبح ، من حيث بهرجهما ، ومن أن ينهى عن هذه الزخرفة ، ويجعلها ، كما رأينا ، من أشراط الساعة .

يتبقى علينا البحث فى أصل المحراب وفى فكرة إنشائه . ويجدر بى أولاً أن استعرض رأيا فى اللفظ نفسه . فقد كان المحراب لفظاً يستعمله العرب قبل الإسلام للدلالة على بناء أقيم لملك من الملوك . وبهذا المعنى جاء ذكر هذا اللفظ فى أشعار امرئ القيس والأعشى وفى المفضليات . وهو فى القرآن يؤدى معنى آخر لا صلة له بالقبلة أو بالمسجد . وهو على كل حال مصطلح لجزء من البناء ، غرفة كان أو قصرا . وقيل فى كتب اللغة محراب المصلِّى مأخوذ عن المحاربة ، لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه . وهذا تفسير ، إن أرضى علماء الدين ، لا يرضى المؤرخ وعالم الآثار . وقد ذكرت فى سياق الحديث عن محراب عقبة فى القيروان ، أنه حين حدد اتجاه القبلة ، ركز لواءه فى مكانها ، وأبان موضع المحراب من مسجده . فهل كان هذا اللواء حربة من الحراب ، فلما ركزها فى ذلك الموضع ، سماه القوم بالمحراب ، اشتقاقا من الحربة ، فسارت هذه الكلمة فى اللغة للدلالة على مركز القبلة ، لست أدرى أيجوز هذا التفسير لغة ، ولست أجزم بصحته ، وهو على كل حال موضوع بحث جدير بعناية علماء اللغة .

أما نشأة المحراب باعتباره عنصراً معماريًّا من بناء المسجد ، فترجع فى نظرنا إلى ابتكار أملته الضرورة ، مثله فى ذلك مثل المسجد نفسه ، الذى تكونت نظمه ، وتشكلت هيئته من واجبات الصلاة وفروضها وسننها ، ومن عادات العرب وطبيعة بلادهم . والمحراب ينسجم شكله مع شكل المسجد ، بل هو المركز الذى تتفرع منه خطوطه ، وتتشعب منه اتجاهاته .

وإذا كان التاريخ لا يرشدنا إلى المصدر الذى اشتق عقبة منه شكل محرابه فى القيروان ، ولم يبين لنا كيف ابتكر هذا الشكل ، فقد لانعدم حيلة فى استنباط الرأى وتحليل الفكرة .

والمحراب لا يقصد به الدلالة على اتجاه القبلة فحسب ؛ إذ لو كان الأمر قد اقتصر على هذا لاتخذ المحراب أى شكل آخر ، فلم يكن هنالك ما يدعو إلى

تجويفه ، وكان يمكن أن يستعاض عنه بأى شىء يكون منه ميزة للقبلة ، كقطعة من الحجر او لوحة بارزة ، أو علم ، أو ستار ، أو جذع نخلة ، أو وتد مثل ذلك الوتد الذى كان يتكىء عليه الرسول فى محرابه الأول . ولهذا فليس فيما اتخذه المحراب من شكل مجوف غضاضة أو بدعة أو شرط من أشراط الساعة .

غير أنى أعتقد أنه كان هناك فوق هذا سبب قوى آخر دعا المسلمين إلى اتخاذ هذا الشكل المجوف ، أو إلى ابتكاره . فإننا نعلم أن المصلين كانوا ، وما زالوا ، يصطفون للصلاة فى المسجد صفوفاً مستقيمة موازية لجدران القبلة ، مؤتمين بإمام منهم ، ونعلم أن الإمام يقف منعزلا فى صدر المسجد ، ويحتل من بيت الصلاة لنفسه وحده ، صفاً طويلا بأكمله . فإذا أدركنا أن الصف الواحد فى مسجد القيروان يتسع لمائتين من المصلين وأن المصلين كان عددهم وافراً حتى كانوا يملأون بيت الصلاة وبهو المسجد وزياداته ، بل كان يضيق بهم كل هذا فيصطف الكثير منهم للصلاة خارج المسجد فى قارعة الطريق — إذا علمنا كل هذا أدركنا أنه كان من الحيف حقاً أن يحتل الإمام صفاً واحداً لنفسه ، ويدفع بمائتين من المصلين خلفه إلى صحن المسجد يؤدون صلاتهم فى غير مأوى من القيظ أو المطر أو البرد .

وفى رأينا أن هذا كله لم يغب عن عقبة وأصحابه ، وأنهم ابتكروا المحراب المجوف حتى يدخله الإمام فى صلاته ويتسع الصف الذى كان يحتله هو وحده لمائتين غيره من المصلين ، فينفذوا من العراء إلى بيت الصلاة ، ويستظلوا بعروشه .

فكرة المحراب هذه بسيطة بحيث لا تتطلب ، فيما أرى ، عناء البحث فى صلتها بالمذابح ، ولا يستقيم معها الحديث الذى طلع به علينا السيوطى عن « بدعة المحاريب » .

احمد فكرى

صفاء الحبّ

[أعيذك ياقارئى أن تشتط فتنتسب هذه النفثة الحرى إلى الغلو ، فانما تند أمثال هذه الخواطر من فؤاد متبول ، لا يعرف الحب إلا مصوناً لا ترق إليه الشبهات ، ولا الحبيب إلا ملكا عند الطهر حول هامته هالات ، ولن يعز عليك أن ترى فى الناس من يؤثر حبيبه هذا الايثار مادام فيهم ملك يتخلى عن عرشه فى سبيل الاحتفاظ بقلب ، وشاعر عف يحتم عليه وفاؤه أن يبوّئ من يهوى حرمات التقديس .]

لم أنأ عن مىّ سلواناً ولا تيها — فمىّ معبودتى من بعد باريها !
وليس فى الحبّ من تيه ومن صَلَفٍ ، — لدى عميد أبىّ النفس عاليها !
يتيهُ دلاً خلىُّ القلبِ مُطْلَقُهُ — ولا يتيهُ أسيرُ الروحِ عانيها ،
إنى أراعى عهودَ الحبُّ صادقةً — إن كان ثمّةَ غيرى لا يراعيها ؛
لو أبعدونىَ عن مىّ لا سلوها — وبتُّ عنها قصىَّ الدّار نائيها ،
وتوّجونى مليكاً لا شريكَ له — فى العرشِ ، يحكمُ فى الدنيا وأهليها ،
ورقرقوا الخلدَ فى أرجاءِ مملكتى — وسلسلوهُ على شتّى نواحيها ،
وأرسلوا الحورَ أصباحاً منوّرةً — وضّاءةَ الحسنِ تسبى قلبَ رائيها
تموج بالرونقِ الضاحى وبهجته — نشوى مموّهةً بالسحر تمويه ،
مجنّحاتُ المغانى رهنُ مطلبها — وحالياتُ الأمانى رهنُ أيديها ،
وعلّلتنىَ بالآمال قاطبةً — وألّهتنىَ دون الناسِ تأليها
أبَيْتُ إلاّ مهاةً لا تعادلها الد (م) — نيا ، ولا الملا الأعلى يوازيها !
فىُّ راجحةٌ عندى على الملأ الأ — على وما فيه ، والدنيا وما فيها !

نأيتُ عنها وفى الأحشاء مجمرةٌ ... البعدُ يضرمها والشوقُ يذكيها!
قالوا النوى تطفئُ الأشواقَ، ويحهمُ ... فنارُ قلبيَ زادتْ فى تلظّيها!
ما العاشقون سواء فى تولّههم ... ولا النفوسُ سواء فى تفانيها!
وليس من يدّعى الأشواقَ عن وطرٍ ... كمن يكابدُها أو من يُعانيها!
شطَّ المزارُ بجسمى عن مرابعها ... وظلّتِ الروحُ روحى فى مغانيها!
باللهِ يا روحُ إمّا عزّ مؤنسُها ... وارفضّ من حولها السُّمّارُ سلّيها؛
فرهبةُ الليلةِ الليلاءِ تؤلمها ... ووحشةُ الظلمةِ الدكناءِ تشجيها
ومن تكنْ مثلَ مىّ فى نعومتها ... فإنما ألطفُ الأشياءِ يؤذيها!

يا مىُّ إنَّ النوى ليست تغيّرُ من ... حبّ الشريفِ وإن أربتْ عواديها
شهرٌ ... وترجعُ أيامُ اللقاءِ لنا ... زهراء تنعمُ فى ضاحى لياليها

[بيروت] جورج سلستى

على الهامش

وفى الصميم

أؤكد للقارىء وإن شاء أقسمت له أنى محرج كل الإحراج وأنا أكتب هذا المقال خشية أن أمس زملاء وإخوانا وأصدقاء ، تربطنى بهم روابط عدة تتفاوت تراخيا وتتفاوت إحكاما ، ولهم جميعاً علىّ حرمة الزمالة والأخوة والصداقة ، وفى عنق لبعضهم دين من تعليم وتثقيف واقتدار . وقد تتلمذت على بعضهم فيما يحب أن ينسبه إلىّ أستاذى الجليل الدكتور طه حسين بك من دقة ، وتأثرت ببعضهم فى تكوينى الأدبى وببعضهم الآخر فى تقرير منهاجى فى الحياة . هذا فضلهم وعلى الأصح بعض فضلهم علىّ ، فلعله لا يكون فيما أكتب مساس بصاحب فضل وإن كنت أحرص ما أكون على كرامة الكتّاب بوجه عام لا أتعرض إلا لمن تهون عليه كرامة الكتّاب .

قبل نيف وربع قرن كان واسطة التحاقى بالصحافة وممتحنى فيها صديقى الأستاذ المازنى . ذلك أنى أبيت أن أدخل فيها قبل أن أجوز امتحان الدخول . وكان إلى جانب الأستاذ المازنى فى ذلك اليوم صديق له مرشح منذ أشهر للعمل بالصحيفة عينها ، فلم يتردد الأستاذ فى نسيان صديقه ساعة امتحننى ، ولم يتحرج من إعلان نجاحى ، وكان أن حللت محل هذا الصديق المرشح . ولا أدرى على التحقيق أشقّ ذلك على الأستاذ المازنى ، لكن الذى أعامه علم اليقين وأحسه إلى الآن من الأعماق أنه جاز معى فى ذلك اليوم امتحانا آخر ونجح فيه وكنت أنا ممتحنه فى الإنصاف . وقد سرنا فى الترجمة سيرة كنت اتخذه فيها مثالا ونبراسا ، وكانت بعض كبريات الصحف إذ ذاك تنقل ما تترجم أو على الأرجح ما يترجم من البرقيات بالحرف دون إشارة توفيرا لوقت محرريها وثقة منها بجريدة الأخبار التى كان يحررها آنئذ المغفور له الطيب الذكر أمين بك الرافعى .

ويخيل إلىّ أن أمور الترجمة لم تكن إذ ذاك فوضى كما هى الآن أو كما أعتقد

أنها الآن . فقد كان الجهد المبذول فيها خليقا بالجبابرة ويكاد أن يكون لوجه الله . وكان الأجر المعروف فيهـا كالصدقة يعطاها السائل ويطلبها « لله » : عشرون جنيها فى أربعمائة صفحة من القطع المتوسط تزداد للسبق الحاذق عشرة . ومع ذلك لم يفكر كثير من الـكتاب فى الجيد كثيرا عن قواعد الترجمة وإهدار الأمانة فى النقل إذ ذاك . واليوم وفى سنى الحرب التى كانت إلى أمس تفتحت آفاق المادة والـكسب لـكل من دب على هذه الأرض وهب ، فـكان لطائفة كبيرة من الناشئين جولات العدائين فى هذه الآفاق والميادين ، وكانت مجموعة من الترجمات تزحم الرفوف وتنذر بالتضخم . والغرب الذى تترجم عنه غافل عما فى كثير منها من التمثيل به والتشويه لآثاره . فما تزال الصحف والمجلات تطلع علينا كل يوم بكتب ملخصة فى صفحة ، وقصص ملخصة فى أعمدة ، ونعوت جديدة لهذا التلخيص ، يدخل تحتها ما يسمى بالشرح وما يسمى بالتضمين . ومن الـكتب الملخصة فى صفحة واحدة من صفحات الجرائد كتاب مشهور يقع فى أصله الألمانى فى قرابة ثمانمائة صفحة بالبنط الصغير . والصحف والمجلات هذه الأيام يجارى بعضها بعضا ، لا تعرف الاستقلال فى الطابع واللون بقدر ما تؤثر المحاكاة ؛ فإذا ظهرت العناوين فى جريدة بالأحمر والـكليشيهات لم تلبث أن تظهر فى البقية بالأحمر والـكليشيهات ؛ وإذا حلت واحدة صدرها بغادة فتانة قامت المباراة بينها فى عرض الغادات .

وقد كان فى سالف الزمان عندنا مسرح وتمثيليات . وكان ما يقع فى محيط الغرب ينتقل إلى محيطنا الشرقى ممصرا ، فتحذف الأسماء الأعجمية وتحل محلها أسماء عربية ، وتعرض علينا دون مراعاة للظروف والأحوال ، بيئة لا هى شرقية ولا غربية ، ولـكنها بيئة غُرابية . ولا على التمثيلية بعد ذلك مما فيها من مسخ وما يغلب عليها من صفة الانتحال ، فكله « صابون » . وقد قامت شهرة بعض روائيينا المسرحيين على هذا النوع من الأساس وهذا الضرب من المسوخ . ويعترف بعضهم صراحة بأنه كان يفعل هذا . ولا شك أنه كان يفعله كدرجة أولى فى سلم الشهرة وذيوع الصيت بين الجمهور . ثم نشأ جيل من القصصيين بارع حقا فيما يعرض على الجمهور من تآليف تلمس فيهـا « اليسر » لا « العسر » والمطاوعة لا المشقة ، إذ تحوَّر القصص الأجنبية بعض التحوير وتمصَّر على الغرار السابق ، لتبرز فى حلة محلية يعود منها مُحوِّرها بفضل التحوير ووزد

التزوير، ثم هو إلى ذلك مأجور أعظم الأجر بما فاز به من ابتكار تم له بوضع اليد. وأحسب أن هذا الجيل ما يزال بخير، وما يزال فيه أفراد فى الذروة يشار إليهم بالبنان، وإن كانت هذه البنان ترتعش حين تشير إليهم، من الانفعال.

وهذا السطو «المشروع»، مابرح يتخذ أشكالا «مشروعة» أيضا. من ذلك أنى كنت أتندر مع كاتب كبير فقصصت عليه نادرة سمعتها بدورى من غيرى، فلم يمر أسبوع حتى كانت الحكاية كلها قوام قصة فى مجلة أسبوعية كبيرة ومورد أجر كبير. وقد أصاب الكاتب بها عصفورين من ذهب: الأول أنه سيقر فى الأذهان أن صاحبنا الكاتب الكبير مبتكرها، والثانى وهو الأهم أنها ضمنت له رزمة محترمة من ورق البنكنوت على أهون سبيل. وليضحك بعد ذلك من يضحك، وليسخر بعد ذلك من يسخر، فمع كاتبنا الكثرة من القراء، وعارفو القصة الأصلية نفر قليل.

وكتاب الغرب مساكين حقا، فإن النهضة التى تغترف فى الشرق من عيونهم توشك أن تسمم هذه العيون. فهذه مجلة فلسطينية تنشر قصة للكاتب الدينماركى الأشهر هانس أندرسن بعنوان يستبهم علىّ بعض الشىء وأنا مترجم أقاصيصه. فحين أشرع فى استجلاء القصة هذا العنوان أنتقل من غموض إلى ما هو أغمض ومن بهمة إلى ما هو أشد إبهاما. وأخيراً أعثر على شىء فى القصة يدلنى على أصلها. ذلك أن ما نشر لم يكن لأندرسن وإنما مشيدة أو تلفيقة تستند إلى أساس من أندرسن. هذه جريمة نكراء شوّه فيها جسم حى فانقلب جثة هامدة يضنى المحقق الاستدلال على صاحبها، ويعيى عارفيه التعرف عليه. لكنه يهتدى آخر الأمر إلى شىء يدل عليه. ويأبى كاتب مصرى إلا أن يسىء إلى القصصى الدينماركى بالذات حتى لا يبذه الفلسطينى، وينشر له قصة فى إحدى مجلاتنا المحترمة من دون أن يشير إليه أو يشعر القارىء بأنها مترجمة، ثم يذيلها بتوقيعه. أين؟ فى نفس المجلة التى صدرت أقاصيص هذا الكاتب عن دارها.

الحق أنه ليس أهون هذه الأيام من عملية المسخ، لأنها فى الواقع أهون شىء يستطيعها الطفل الأخرق، ويستطيعها المثقف الرشيد ولا يتورع. فباب الكسب المشروع وغير المشروع مفتوح على مصراعيه، والكتاب كثيرون يتسابقون، والقصة رائجة تذيل الصحف اليومية وكانت إلى عهد قريب خلواً منها.

ففى كل يوم قصة غربية ملخصة فى غير صحيفة . والأذى الذى يلحق القصة الأصلية من هذا التلخيص الذى لم يأت لغرض يقتضيه وإنما جاء لذاته أذى كبير . فإن كثيراً من الكتاب لا يتردد طويلا عند الصعب من التعابير فيلخص الصفحة كلها أو يختصرها ، ويتمادى فى هذا ويسترسل فيرق الكتاب على يديه ويتهلهل ويكاد يصبح خرقا .

وهذا بالذات ما أريد التعرض له والمعارضة أثناء ذلك بين ما يقع فيه عندنا وما يقع فى الغرب . فقد أتيح لى أخيراً أن أقرأ شيئاً واحدا بلغات أربع هى الألمانية والإنجليزية والفرنسية والعربية . واستغفر الله أن يتبادر إلى الذهن أنى أتقن هذه اللغات الأربع ، فقد يتسامح معى فى اثنتين منها وأعود من واحدة بنصيب متواضع ومن أخرى بحظ ضئيل . لكنى استطعت مع ذلك أن أزعم فهم ما قرأت من هذا الشىء بهذه اللغات الأربع والإشارة إلى ما تعرّض له من تشويه . والذى أحب أن ألفت إليه بصفة خاصة هو أن الضمير الإنسانى فقد من سلطانه على النفوس الشىء الكثير ، وأنه فى بعض الأنفس بسبيل الاحتضار ، إن لم يكن اتخذ فى العدم المحل المختار .

ونبدأ بالمقابلة بين ما جاء فى بعض ترجمات هذا الشىء أو هذا الكتاب الذى ترجم إلى أكثر من خمس عشرة لغة أجنبية . ففى أصله الألمانى عن مدام دى ستال ونابليون : « ولو لم تتغن فى عالمها المتشيع لروسو بالفضيلة والطيبة اللتين لا يحتاج إليهما حاكم بأمره ، ولو تنبأت بالهدف الذى يرمى إليه [نابليون] وهو ما لا ينكشف يقينا إلا عند الإشراف على نهاية الطريق ، لبقى لها فخر تبين العبقرى قبل غيرها . » والجملة هنا شرطية ومعناها أن مدام دى ستال لم تعد بفخر تبين العبقرى فى نابليون قبل غيرها لأنها كانت تتغنى فى عالمها المتشيع لروسو . . الخ . فيأتى مترجم غربى فيفهم الأصل الألمانى على النحو الآتى : إنها تتحرك فى عالم روسو ، عالم الفضيلة والطيبة اللتين لا يمكن أن يعبأ بهما ديكتاتور ، ومن ثم لا تستطيع أن تتحمس لبونابرت . لكنها مع ذلك تتبين هدفه الذى لم يكشف إلا حين أشرفت سيرته على الختام . فإليها يرجع الفضل فى أنها كانت أول من تبين العبقرى . وهذا نقيض ذاك على خط مستقيم . ولتبيان علة هذا التناقض بين الأصل والترجمة لا بد من إلقاء درس فى الأفعال الألمانية ليس هنا مقامه ولا مجال شرح صيغها المعقدة وتبيان ما يستعمل منها

فى الشرط بأنواعه وما لا يستعمل . إنما أريد مجرد التنبيه إلى ما بين الأصل والترجمة من فرق جوهرى يجعل منهما نقيضين . فماذا فعل مترجم عربى لذلك الكتاب ؟ أدى الأصل الألمانى بهذه العبارة :

« والبارونة ستائيل تلك قد أغفلت مع ذلك ذكر مجد بونابرت وهدفه الأسمى الذى لم يتضح أمره إلا فى آخر عمره » .

وندع للقارئ الحكم على مبلغ مطابقة هذا الكلام للأصل أو مغايرته له . ولكننا ننبه إلى شئ لحظناه فى الترجمة العربية ، وهذه الجملة مثال من هذا الشئ . إن المترجم العربى للأسف الشديد خبير بفن الاستخلاص كما لاحظ الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك ، فهو يضع أمامه تراجم ثلاثا لشئ واحد ويقابل بينها ، فإذا تبين اتفاقا بينها نقل من أيها ما يحلو له ، وإذا تبين اختلافا استخلص من الترجمات الثلاث عبارة مقتضبة تنقذ الموقف فى رأيه ، وغاب عنه أن هنالك أصلا ألمانيا يمكن من شاء الرجوع إليه . وحسبنا هذا فى الاقتباس فما نحب أن نرهق القارئ أو نثقل عليه ، وإن كنا مضينا فى التحقيق إلى آخره فلم نترك شيئاً يمكن أن يدل على الطريقتين لم نتثبت منه : الطريقة الغربية والطريقة التى يسير عليها بعض الشرقيين من ذوى الأسماء الرنانة التى تظهر وتختفى فى طليعة كل نشر أدبى وفى عقبه نازلة فى الفنادق الكبرى ومزايلة لها .

فالذى نريد أن ننوه به خاصة هو ذلك الجهد البادى فى محاولة الأمانة فى النقل فى التراجم الغربية حيال هذا الاستخفاف الظاهر بهذه الأمانة فى الترجمة العربية . فبينا نلحظ أن الترجمة الانجليزية على سبيل المثال تحافظ ، فيما خلا هنات وأخطاء هنا وهناك ، على روح المؤلف وأسلوبه ، نجد تلك الترجمة العربية التى أسلفنا الكلام عنها بمنأى عن هذا الجهد ، عاجزة كل العجز عن تتبع المؤلف فى آفاقه ومواطنه ، لأنها لا تعرفه ولم تتصل به رأسا ، بل اتصلت به بالواسطة ، ولم تحفل فوق ذلك بهذه الواسطة الاحتفال الواجب .

لقد يعسر تعبير بعض المؤلفين عسرا يُعذر المترجم من إساءة الفهم والخطأ فى الأداء إلى حد كبير . فما هو مكلف بجلاء ما لا ينجلى وتيسير العسير ، لكنما هو مطالب بأن يحاول ذلك ما أمكن ، فإذا استعصى عليه المعنى استوضحه أهل العلم ، فإذا لم يجد غناء كان فى حل من أن يترجم على قدر اجتهاده ، وأن يشير فى هامش إلى هذا العسر إذا لم يطمئن إلى ما ترجم . والرقيب على هذا كله

هو ضمير الكاتب ، فإذا لم يأبه الكاتب أو المترجم بصوت الضمير ولم يذعن لرقابته فليس لنا عنده شئ ولا ينفع تنبيهنا فيه . ومثل الناقل الدليل الضمير لا يلبث أن ينكشف ، وانكشافه هو أقسى عقاب يلقاه . وليس من الأمانة فى النقل أن يكتفى مترجم بعبارة : « أثار الجماهير » تأدية لعبارة : « أثار الجماهير المحرومة الامتيازات من أعماقها الساخطة » . وليس فى هذا الأصل غموض ولا إبهام ، ولكن وضع كلمة الامتيازات فى الجملة الألمانية قد يحير قليلا ، فلم يتوافر للمترجم ذواق اللغة التى يترجم منها حار فى الفهم . لكن ما عذره فى إغفال « من أعماقها الساخطة » وهى واضحة فى الأصل ؟

والقدرة على الوصف من مميزات الكاتب ، مافى ذلك شك . وهى محك إجادته والدليل الأدل عليها ، فالأدب تعبير . فإذا رزئ الأديب الوصافة بمترجم لا يحسن أداء الوصف على حقيقته بل يخلط بين ظلاله ولا يدرك فروقها التى يبلغ من دقتها أن يحسبها المترجم غير الدقيق مترادفات — إذا رزئ الأديب الوصافة بمثل هذا المترجم فأكبر الظن أنه فاقد على يديه قيمته ، مجرد على يديه من كل ما يحسنه فى صورة شوهاء تترجم فيها الأوصاف كيفما اتفق ، متجاوزا فيها عن الخطوط الأساسية والملامح المميزة استناداً إلى أن القارئ العادى قلما يكلف نفسه عناء التدبر ، وأنه يلتهم الحوادث التهاما من دون عناية بالتفاصيل أو التفات إلى ما يكون على حواشى الحوادث ، وأنه يمر بكل ذلك مر الكرام ولا يتأمله بحال . وفى ظنى أنه ليس مما يسر الكاتب الذى يحترم نفسه أو المترجم الذى يحترم نتاج المؤلف أن يقتصر قراؤه على العاديين منهم ولو كانوا الكثرة الساحقة .

ومن العيوب التى يقع فيها المترجمون عن قصد حسن ، ميل بعضهم إلى تكملة ما يرونه نقصاً فى الأصل أو تصحيح ما يجدونه خطأ فى الوقائع أو التواريخ . ولا بأس من ذلك إذا ضمنه المترجم هامشاً أو نص عليه بين قوسين ليدل على أنه من وضعه هو لا من وضع المؤلف . بيد أن الكثيرين يثبتون من عند أنفسهم ما يرون إثباته فى صلب الترجمة ذاته . وقد يكون ما يرون إثباته شيئاً لم يغفل عنه المؤلف ولم يعبأ بإثباته ، كذكر اسم تعمد ألا يورده ، أومسلك بعينه تجاوز عن الإشارة إليه ، أو تفصيل لم ير حاجة إليه ، فإذا بك تقرأ هذا كله فى صلب الترجمة على أنه من عند المؤلف ، والمؤلف براء منه لا يحمل تبعته .

مثال ذلك أن ترد فى كتاب «نابليون» لإميل لودفيج عبارة «الملك أسير» فيقابلها فى الترجمة الإنجليزية هذه العبارة : « وشرع الملك لويس السادس عشر فى الهرب فضبط فى ڤارين وأعيد . » وهذه واقعة وتفصيل قد يفيد القارئ الذى يجهله أن يعرفه بل هو يفيده على التحقيق ، وكان يمكن إثباته فى هامش ، فما يدور بالخاطر أن المؤلف يجهله ، لكن القوة الدرامية التى تبدهك من عبارة « الملك أسير » كانت آثر عنده من التفصيل .

وتلقى الجمل الاصطلاحية على أيدى بعض المترجمين إهمالا شديدا . وعذرهم من الخطأ فيها لا سبيل إلى تجاهله ، وإن كان شيء من الفطنة خليقا أن ينبه المترجم إلى ضرورة التثبت والتحرى . وهناك جمل تعذر المترجم كل العذر بخاصة إذا كان الكلام فيها عن جندى كنابليون وعن خنادق . ففى اللغة الألمانية اصطلاح معناه الحرفى : ألقيت بنفسى فى الخندق . ومعناه الحقيق « ألقيت بيدى إلى التهلكة . » أو « أوردت نفسى موارد الحتف . » فإذ ترد هذه العبارة على لسان نابليون يترجمها مترجمها « ولطالما خاطرت بحياتى فى الخنادق . » والخنادق هنا زائدة كما يرى القارئ ، والمعنى يستقيم ويتم بدونها ، وكان المترجم خليقا أن يهملها لو فطن إلى أن ما يترجم اصطلاح لا جملة عادية .

والسوابق التى تسبق الأفعال فى اللغات الغربية تسبب للمترجمين متاعب وتوقعهم فى ارتباكات كانوا خلقاء أن يتفادوا منها بالتثبت . وهى فى اللغة الألمانية مصدر عناء حتى للمتضلعين منها . من ذلك كلمة abtun ومعناها خلع و antun ومعناها لبس . وقد خلط مترجم بينهما وكان الكلام عن ثوب نابليون العسكرى وأنه سوف يخلعه مرات فى حياته ، ففهم المترجم الجملة على أن نابليون سيلبس هذا الثوب مرات فى حياته . وإذ يستبعد أن يكون هذا شأن نابليون الجندى الذى لا يكاد يخلع هذا الثوب لم يفرض خطأه هو والتباس الكلمة عليه ، لكن ظن أنه يخلص من هذا الإشكال بإضافة « كثيرة » إلى « مرات » لتكون الجملة : « وسيلبس هذا الثوب فى حياته مرات كثيرة » فأوقع نفسه فى إشكال آخر .

ومن السوابق الألمانية سابقة ent التى تسبق الفعل فتخلق منه نقيضه . فكلمة binden ومعناها « ربط » إذا سبقتها ent أصبح معناها « حلّ » . ولكن هذه السابقة لا تخلق النقيض دائما كما هى الحال فى كلمة entschwinden .

ففعل schwinden بدون هذه السابقة معناه تضاءل واختفى ، ومعنى entschwinden كذلك « اختفى » . وفى كتاب « نابليون » :

« وبينما هو يتلفت إذا بصره يقع على سلسلة من الجبال يعرفها تختفى فى الزرقة عن الأنظار . »

وما دامت كلمة entschwinden هى الواردة فهى فى نظر المترجم عكس schwinden وضد الاختفاء الظهور ، فلا بد أن يكون معنى الفعل الأول « ظهرت » ولا بد أن يكون معناه فى الجملة السالفة الذكر : تلمع أو تتألق فى الزرقة أو shimmer الإنجليزية .

والكاتبة الفرنسية الذائعة الصيت مدام دى ستال عادت نابليون وناهضها الإمبراطور وأقصاها عن باريس وشردها وحرّم كتبها ، لكنها كانت متصلة بأخيه يوسف ملك أسبانيا حينا من الزمان . وكان يكاتبها ، فكتب إليها يوما يبدى احتقاره للألقاب التى أنعم بها الإمبراطور عليه وعلى غيره من أعضاء أسرته وخاصته وأعيان دولته . ولا يمكن أن يكون الكاتب نابليون وهذه عداوته الطويلة لمدام دى ستال ، لكن المترجم لا يفطن إلى ما بين الأفعال الألمانية من فروق وإلى ما فى صيغها من اختلاف حين تعبر عن الخطاب المباشر وغير المباشر ، فهو ينسب إلى نابليون أنه كتب إلى مدام دى ستال يقول : إن أخى يأبى أن يكون له دخل بلقبه الجديد . والأصل يذكر : فهو [أى نابليون] يقول : إن أخى يكتب إلى مدام دى ستال يقول إن شيئاً لم يتغير ويأبى أن يكون له دخل بلقبه الجديد . وإن دل هذا على شىء فعلى أن المترجم أساء الفهم أولاً فلم يفطن إلى حقيقة الأفعال المستعملة فى الجملة ، وأنه ثانياً لم يجعل باله إلى حقيقة من حقائق الكتاب الذى ترجمه .

ويلاحظ فى بعض المترجمين أنهم لا يتجردون حين الترجمة من الهوى ولا ينفون تحاملاتهم الخاصة ؛ فقد لا يعجب المترجم فى الأصل عبارة شديدة عن بلده أو بنى وطنه أو يسيئه حكم حق عليهم فيستبعده من الترجمة غير عابىء بأنه هنا ناقل فحسب ! وناقل الكفر ليس بكافر . وليس كل ما ينفعك يعجبك. وقد يكون النقد إذا نقل حافزا إلى الإصلاح والانصلاح ؛ والأمة التى تتهيب النقد لا تتقدم ؛ وفرق بين النقد والإهانة ، بين أن يقال فى قوم : « إن بينهم كثيراً من المتسولين » وأن يقال : « إنهم متسولون » فالأولى خليقة ان تضاعف

جهودنا فى مكافحة التسول، والثانية تغضبنا بحق وتحملنا على رد الإهانة . لكن مهمة المترجم تقف عند هذا وذاك : نقل النصيحة والنقد، ونقل الإهانة على السواء . أما الموقف الذى يتخذه المترجم حيال هذا أو ذاك فنافلة إذا كان من ورائه مساس بما فى صلب الكتاب . وله إن شاء أن يتخذ الموقف الذى يراه فى مقدمة أو على الهامش . وقد بلغ الأمر بمترجمة لودفيج الفرنسية ألا يعجبها قول للمؤلف عن أسنان وليد نابليون فحذفت الجملة كلها واستبعدتها من الترجمة . والجملة كما يلى :

« لكنه [أى نابليون] يذهب ويجىء فى خيمته يملى ، وقلم السكرتير الصامت الذى اعتاد أن يسجل تنقل الجيوش هنا وههنا ، يتابع إملاء السيد ليذكر الأسنان الأربع التى تنقص طفلا مقيما فى قصر بارد على بعد ألف ميل من هنا ، الأسنان التى تعوزه للعض . . . » وكان نابليون قد رد على مربية الطفل يعرب عن أمله فى أن يسمع منها قريبا أن الأسنان الأربع قد نبتت له .

وبعد ، فآمل ألا أكون أسخطت أحدا ، فكلنا يقع فى هذا أو ذاك من الأخطاء التى أوردت . لكننا بحاجة ونحن نتثقف على الغرب أن نترفق بثقافة الغرب ، وأن ننقل منها الخير على وجهه الواضح لا تشويه فيه ولا نقص ولا تبديل . ومن العبث أن نطالب بذلك المتطفلين على الترجمة والمتكسبين من ورائها ومن لا يحسنون سوى الإساءة ، فهؤلاء نحب بل نرجو أن تقسو على ترجماتهم الأقلام لتحد ما أمكن من عبثهم الضار . وليس لهؤلاء ينبغى التشجيع وإنما التشجيع لمن تلمس من خطئه حسن النية وأثر الجهد الصادق ومحاولة الأمانة على قدر المستطاع . وقد أشرت فى صدر المقال إلى الذى نسب إلى أندرسن مالم يقل ، وإلى الذى نسب إلى نفسه ما قال أندرسن ، كذلك الذى يسطو على قصة يسمعها فينشرها على أنها قصته . فإلى أمثال هؤلاء ألفت زعماء الأدب وأئمته ليأخذوهم بالشدة ، فما كانت الثقافة لتنهض على أكتافهم الهزيلة العجفاء وما يجوز أن يتثقف بجهودهم أحد .

محمود الدسوقى

يجب أن نعيش

كان عازف الكمان الأول ينظر إلى الزامر فى البوق الكبير ويعجب لماذا يوالى النفخ وإخراج هذه الأصوات التى يختلقها ويدسها على اللحن ، ثم ينقل بصره إلى المدير فيزداد عجبه ، فهو أيضاً لا يزال يومئ إلى الزامرين فى الأبواق ويدعوهم بالعصا إلى الاستمرار .

ماذا حدث ؟ كان يجب أن تسكت هذه الأصوات فجأة بالطرقات الثلاث على الطبل الكبير لتهيئ له دخولا خفيفاً هادئاً . . . ولكن الأبواق لا تزال فى صخبها المرتجل ، وضارب الطبل لا يزال رافعاً يده بمطارقه منتظراً أمر الطرق من العصا المشغولة بالناحية الأخرى :

ونظر إلى الأوراق المثبتة أمامه وساءل متى يبدأ دخوله ؟ لقد فات الأوان وتأخر كثيراً . يجب أن يبدأ الآن . . . وعاد يحملق فى العصا التى تهتز فى يد صاحبها فى عنف مثير ، ولكنها لم تأمره . . . وظلت الأبواق تدوى .

وأحس بضيق شديد ، وهمّ أن يقف فينتبه المدير ، ولكن ساقيه لم تحتملاه وتهاوى فى كرسيه ككومة من القش . يجب أن يبدأ ، فلا ريب أنه أخطأ التقدير ، فقد قال له المدير أمس إنه دخل متأخراً بعض الشئ ، وإنه أكل بعض الأصوات .

ولكن هذه الأبواق ألا تسكت !

ورأى ألا ينتظر أكثر من هذا ، فرفع القوس ودفعه على الأوتار بيد مضطربة دفعاً شديداً ، فأزعجته الأصوات التى أصدرها فتوقف فجأة . وسمع فى اللحظة التى تلت هذا السكون المفاجئ طبولا وأبواقاً وصيحات تزأر وتهدر ، ورأى العصا ، وكأنها تقسمت إلى عشر أمثالها ، تقترب من وجهه حتى لتكاد تمسه وتومئ إليه جميعاً بالأمر الذى انتظره طويلا . وجاهد أن يظل قابضاً على كمانه ، ولكنها تفلتت من أصابعه وهوت مع القوس . . . ومعه .

وأسرع إليه زملاؤه يحملونه إلى غرفة قريبة ، ولـكنه افاق فى الطريق إليها وإن كانت عينه لاتزال زائغة ، ونظر إلى المدير الذى كان قرب رأسه وتمتم بصوت متقطع غير واع : « لقد دخلت متأخراً هذه الليلة أيضاً . . . »

ولـكنه حين أفاق وارتد إليه رشـده كاملا ذكر أنه لم يتأخر ؛ فقد كان دوره فى العزف لم يأت بعد ، وإنما هى بوادر هذه النوبة التى أصابته أضاعت معالم اللحن من رأسه ومسخت الأصوات فى أذنيه .

وتحركت شفتاه وهمس : « هذه آخر مرة » .

ولم يسمع همسه أحد ، ولـكن زميلا ظن أنه سمع شيئاً : فسأله : « ماذا » ؟ فأجاب : « لا شئ . . . » ثم خرج .

وسار فى الطريق لا يدرى إلى أين يذهب ؛ فهو لا يريد أن يعود إلى غرفته فى هذا البيت الذى كان يحبه ويدخله فى خشوع ، كأنه معبد مقدس من معابد الصين ، ويحمل لسكانه لوناً من احترام الآلهة . إنهم فنانون . . . فهم أيضاً آلهة صغيرة خالقة . وقد اختاروا هذا البيت يتمون فيه صنعتهم ، ويفرغون فيه لفنهم . وراقته فكرة هذه الحياة التى تعينه على التصنيف فى الموسيقى فسكن غرفة فى البيت .

ثم كشف على الزمن أنهم يحبون حياة حظها من التركيز الفنى قليل . وكان فى طبعه أن يأخذ نفسه والناس بمقاييس دقيقة قاسية ، ولـكنه ، لسبب لايدريه ، كان يجفل من أن يصدر على جيرانه هؤلاء حكما حازماً . وكلما ساءل نفسه : أهم فنانون خالقون ؟ أم هذه حياة مختلقة زائفة ، وهؤلاء إنتاجهم ثرثرة وخلقهم هراء ؟ كان يهرب من الحـكم كأنه يوشك أن يقطع أعناقاً بريئة .

ولـكنه على كل حال ، قضى فى غرفته هـذه التى يخشى الليلة دخولها أوقاتاً سعيدة حلوة ، عكف فيها على فنه وأقبل عليه بشوق العاشق وحرارته ، وعرف فيهـا قسوة الفن حين يستعصى ويأبى الإفصاح ، وذاق مرارة الصراع مع الأصوات قبـل أن يأسرها وينظمها ألحاناً ، وجاش كيانه بالفرحة الطليقة حين يقوم عن مائدة العمل ويهمس لنفسه : « لقد صنعت الليلة شيئاً » .

وكانت هـذه كل دنياه . فما يعرف أنه خلق إلا ليجمع هذه الألحان التى تطوف برأسه دائماً ، منـذ درس الأصوات وبدأ يدرك أسرارها . وتخاذلت رغباته ومطالبه من هـذه الدنيا ، حين رآه يضعها جميعاً تحت قدمه ويخنقها

وهو يركع فى محراب فنه . وكانت براعته النادرة فى العزف ترفع قدره عند زملائه ومدير الفرقة ، ولكنه كان لا يأبه لهذا أو يهتم به ؛ فقد كان يؤمن بأن مكانه ليس أمام الحامل الحديدى للأوراق الموسيقية بين أفراد الفرقة ينتظر أمر المدير بالابتداء والانتهاء ، ويذهب يكرر أصواتاً من صنع غيره ، كالطفل الذى تدفع الكلمات فى حلقه دفعاً ، ليكررها أمام الأضياف .

إنه لم يخلق ليكون عازفاً . . . بل مؤلفاً .

وحمل هذه الأمنية اليتيمة فى صدره ، ولم يشرك أحداً فى سره ، ولم يكثر من الكلام عن الفن والصنعة فيه ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالعمل والكدح فى سبيل الوصول إلى القمة والكمال .

ومرت السنوات ، وخرجت الألحان من رأسه متوالية متداركة . وكان يقضى الليلة بعد الليلة يعيد لحنه الأخير ، ويكرره حتى تتصلب أصابعه وتموت الحساسية من أطرافها ، فيلقى كمانه آسفاً ويترك الأوراق مكانها ويجر ساقيه إلى الفراش وفى قلبه حسرة توشك أن تهشمه . كلا . . . إنه لم يصل . . . لم يصل بعد . . . ولا تزال اللمسة السحرية للفن بعيدة عن هذه الألحان ، والانبثاقة الخالدة للجمال ضائعة بين ثنايا الأصوات .

وتراكمت الأوراق الخاملة على مكتبه ، وتراكمت الأحزان فى قلبه . وساءل نفسه وكأنه يتوسل إلى ربه : « ماذا ؟ ماذا ينقصنى ؟ »

وفى أيامه الأخيرة هذه أجاب فى ذلة قاسية :

— موهبة السماء . . . العبقرية . . . لم أعطها .

وبكى ونشج . ولما انتهى البكاء والنشيج بعد أن تركا فى قلبه يأساً خطيراً ، جلس يفكر ليصدر حكماً حازماً كعادته .

إنه خلق ليعيش فى السماء العالية للفن ، فهو لا يعرف لنفسه دنيا غير هذه ، ولكن سلمه إلى السماء واه قصير ، فكيف يعيش معلقاً بينها وبين الأرض ؟

كلا ! كلا ! ليس له أن يعيش بعد هذا . . . بعد هذه الليلة . .

وساءل نفسه أين يذهب ؟ وخطر فى ذهنه أن يمر على زميلته فى الغرفة المجاورة ، وهى فتاة ثرية شغفت بالرسم ، ودربت يدها عليه ، وكان أفق خيالها فسيحاً فوسعها أن تبرع فيه ، وركبها ما يركب أهل الفن من شطحات الذهن ، فاختارت غرفة فى هذا البيت تصنع فيها رسومها وإن لم تتخذها سكناً . وقد نشأت بينها

وبين جارها الموسيقى وشائج صداقة ، ميزتها عن ود الجيرة وصلتها ببقية الزملاء حرية سمحة ، نخلطته بنفسها ، وتبادلا خطرات الذهن وأمل السنين القادمة .

ونما كل منهما كالسرحة فى قلب صاحبه . غير أنهما لم يجسرا على أن يعرفا ما بينهما ويعطياه اسماً صريحاً يذكر به ، فصار كالقصة ينقصها العنوان وإن كانت لا تنقصها القدرة على الإيحاء بعنوانها الصحيح .

وعند ما خابت آماله فى فنه ، وهوى تحت ثقل أحزانه ، وقيّد اليأس قلبه ، كانت كلماتها تنعشه وإن لم تشفه . فإنها لم تر فيما حدث له كارثة يتحطم وجوده من هولها . وإنما الفن شئ جميل حقّا ، يلوّن الحياة بلون بهيج سعيد ، ويعطى لرياحها اللافحة رقة تعين على تحملها ، ولكن غيابه لا يعنى الموت والفناء . وكانت تقول :

— إن ما يحزنك هو صورتك التى ترسمها لنفسك مترجحاً بين السماء والأرض ، كالسجين بين صور الماضى وأحلام المستقبل ، كالطائر فى القفص . إنك تود لو تكون إلهاً . ولكن من يدرى ! لعل هذه رغبة سببتها فورة الشباب ، وستنتهى وتترك لك نوعاً من الرضا ، وستنسى على الأيام رغبتك هذه ، وترضى بسجنك وتذهب فيه لاعباً ضاحكا فرحاً . بل سيأتى اليوم الذى تعجب فيه للطيور الشابة وهى تنطح بأجنحتها جدران القفص تريد الانطلاق .

فقال لها :

— كلا . . . لا أستطيع أن أحطم أجنحتى . . . لست أملك الجرأة على هذا ، ولا أعرف كيف أعيش هنا ، على هذه الأرض ، كهؤلاء الأناسى الذين تموج بهم الحياة .

كانت تريد أن تبعث فى قلبه حب الحياة ، ولكن إخفاقه فى ألحانه يشتت محاولتها ويبددها هباء . وكان يرى فى نظراتها وعطفها ورغبتها فى إنهاضه دعوة عالية صريحة إلى عالمها كأنها توشك أن تقول له :

— لئن فاتك الفن ، إنك لم تضيع الحب . هو وحده قادر على أن ينسيك آلامك . . . ينسيك السجن وأجنحتك الكسيرة .

ولكن يأسه كان خطيراً يوحى له أن عمل الفنان فوق كل شئ ، حتى هذه السعادة الثمينة يجب أن يضحى بها من أجله . وضاعف آلامه علمه أنه يحطم قلبها ويقتل الزهرة الجميلة النادرة التى نبتت فيه .

وكان هـذه الليلة يريد أن ينفذ الحكم الذى أصدره . وتمنى لو يراها مرة أخيرة ويستمع إليها ويلمس يدها ، فهى منذ ليال فى غرفتها تزعم أنها تعمل ، وإنما هى تتخذ العمل وسيلة للبقاء بجانبه حتى تنتهى هذه الشدة التى نزلت به . ولـكنه خشى أن تخور عزيمته ويتضاءل عزمه أمام حنانها ونظراتها الدافئة ، فترك طريق البيت . وتحدرت دمعات على خديه فصرّ على أسنانه يمنع نفسه من البـكاء ، وسار بقدم ثابتة إلى غايته .

وحين وصل إلى شاطئ النيل ، عند القنطرة الصغيرة التى تواجه المعرض كان الليل فى شيخوخته والقمر يشحب وقد أتعبه طول السهر . فاسند ظهره هنيهة إلى السور دون أن ينظر إلى الماء . كان يعرف تماماً علامَ هو مقبـل . وتصور نفسه فى الصباح ملقى على طين الشاطئ مشوه الوجه منتفخاً كقربة الماء وحوله الناس يتلاغطون ، فلم تزعجه هذه الصورة أو ترعبه ، بل همس وهو يعتلى السور :

— اننى لم أغضب أو أرض حين أرغمت على دخول هذه الحياة ، فـلِمَ أرضى أو أغضب حين أرغم على الخروج منها ؟

وهوى إلى الماء . . .

وكان يحسب كل شئ قد انتهى ، فترك نفسه تغوص بقوة السقوط . ولما ظهر فوق الماء وجد أنه يحرك ذراعيه وجسمه بقوة جديدة ، وشعر بشئ من الزراية لنفسه ، فاستكان هنيهة ، ولـكنه أحس كأنه فى بحر من الدم ، وملأ الماء حلقه وطمس عينيه وأكربه فأوشك على الغوص . وكان له شئ من الدراية بالسباحة فعاد إلى الحركة وضرب الماء . وعجب لماذا صفا ذهنه فصار كالصحيفة البيضاء تستجيب لـكل ما يكتب عليهـا . وامتلأ الجو حوله بموسيقى أطلق عازفوها لأصواتها العنان يسابق بعضها بعضا . إنه يعرف هذه الألحان جيداً . . . هى ألحانه التى حكم عليها بالفناء والعدم . ورأى فجأة أنه لم يكن له حق الحكم . ليس من حقه أن يقتل هذه الأبناء ولا أن يخنق ما لم يخرج بعد إلى الحياة منهم . وتذكر أوراقه فى الغرفة يقلبها الهواء قبل أن يجمعها الزملاء كوما وتخرس إلى الأبد ، وامتلأ برغبة طاغية فى العودة إلى عمله . . . وإلى صاحبته .

كلا . . . لن يحرم منهما . . . وصار كأن ذهنه يردد :

— العمل . . . والحب . . . كلاهما . . .

ووصل الشاطئ فارتمى عليه حتى لذعته برودة الفجر ، فقام يسير ببلولته يترنح ويتلفت خلفه وكأنه يخشى أن تجذبه إلى الماء أيد خفية .

وحين هم أن يدفع باب غرفتـه أحس يداً خفيفة توضع على كتفه وصوتها يهمس فى جزع : « أين كنت ؟ . . . إنك تقطر ماء ». ثم لـكأنها فهمت فندّت عنها صيحة ذاهلة ، فالتفت إليها وأطال النظر فى وجهها وقرأ السؤال الحائر فى عينيها ، ثم خفض رأسه وقال :

— نعم ! . . . (ثم بعد هنيهة قصيرة) : ولـكنى واثق أنه لم يكن جبناً . . .

وأرادت أن تتكلم ، ولـكنه وضع يده على فمها فى رفق وقال :

— فى الصباح . . . فى الصباح .

وأغلق الباب على نفسه .

وسمعته طويلا يعزف ألحاناً خافتة حتى أغلق النوم جفونها .

دروبش الجمبل

من هنا وهناك

إفريقية

ثم أوت سفينتنا مبكرة إلى خليج ساكن في أرض إفريقية ... وهدأت السفينة عجلتها تنتظر إشراق الصباح ... وكما غبش الصبح كل شيء بيننا وبين الأرض ... فلا نبصر في ضباب البحر سوى وميض الفنار الخافت ومصابيح تخترق حجباً ثقيلة من الهواء ... وصحا ركب السفينة ينتظرون الأرض ... كأنما اعتادت الأرض يوم خلقت أن تحتضن أبناءها ... وأن تجتذب نفوس من ركب البحر والهواء وترى الناس يأتونها آمنين مستبشرين ... متهللين ...

وخلع النهار ستار الليل ... فبدت « مدينة الجزائر » في ندى خليج مرتفع يمد ذراعيه أمداً بعيداً في البحر ... وهذه الأرض المشرفة بصخرها على البحر أهل لأن يسعد فيها طيرها ... فقد حفت صخورها بزرع ونخل، وهي أهل لأن يغمرها طنين النحل وهتاف الطير فقد عبأ البرتقال هواءها بعطر ثماره. وتشرق الشمس من كبد البحر من وراء جبل، واستمتعت الأرض بنعمى الحياة والقوة بالشمس والنسيم ...

ولم تكن أرضاً ميتة لا تقول شيئاً، ولكنها حية بسحر نسيمها، وحية بسحر حديثها ... فلا تكاد ترقى في مشارفها متشدداً متثاقلا حتى ترجع البصر مرتين إلى البحر، وهو يمد بساطه عند قدم الأرض كأنما يتبدل لون ذلك البساط إذا أشرفت عليه من مكان بعيد ... ويخف ثقل الهواء ويخلو لك الصفو، وحينئذ تتمنى الا يكون لك من الأرض إلا ما ملك الطير ... فتعتزل من تشاء وتعيش حيث تشاء وتشدو والطير صلاة الجمال، ويكون كساؤك ريشها وغذاؤك قطوفها وتصحب الزهر حيث يكون والماء حيث يكون ... ولم تعدم هذه الأرض في تاريخها القديم شعراً؛ فان آباء الشعراء تغنوا بما هيجت هذه الأرض من حب، ورعاة الأغريق لم يدعوا الجزر المقابلة المكملة لهذه الأرض حتى شدوا بالحب ... وترى الراعي في زهرة الشباب فوق صخرة مشرفة على الماء ... يغني حب جالاتيه(1) التي تقبل على نفسه كموج البحر، فترفع وجهها وتدنو إليه كأنها ترقص وهو ينتظرها مقبلة آتية لاريب فيها، حتى إذا بلغت قدم الأرض تلوت راجعة، ويقبل الأمل واليأس على نفس الراعي وقد انسابت أغنامه وكلبه في صفحة الجبل ... ويغني الراعي جمال الحب والأرض ويصيح ماوسعته السعادة والصفو، ثم تقبل جالاتيه فترمي راعيها بتفاحة وتتوارى ضاحكة وراء الشجر.

الا ليت شعري من قضى على ذلك الراعي السعيد ... إن قرصان المدنية الأوربية قد هدروا سعادة إفريقية ليبنوا على أنقاض هذه السعادة بيوتاً كالتي ترى ... فلم أجد في جنوب فرنسا وايطاليا مدينة أجمل من مدينة الجزائر قد بنيت على أحدث فن وخطت على أجمل هندسة، واتبعت شوارعها نظاماً موضوعا ... شوارعها تتصاعد في الجبل قد

---

(1) Galatée.

حفت بزرع ونخل ، وبيوتها بيضاء مزهرة ، وسكون ثنايا الجبل أدعى ما يكون إلى السعادة والأمل . وسميت شوارعها بأسماء النابغين فى الشعر والفن . ولست أدرى هل عرف فن العمارة سحر هذه الأسماء ... فان الذى يعييه الطلوع فى ثنايا هذه الطرقات قد يقف قليلا ليرتاح ويسرح البصر فيما حوله فيرى فى نافذة الدار امرأة بيضاء ذات شعر محمر تنظمه وترجله وترجله وتنظمه ، ويرى حديقة الدار قد تزينت بثمر البرتقال والشمس ناعمة لا تثير غباراً ، ويقرأ اسم الشارع فيسمع لهذا الاسم نشيداً حلواً ... لأنه علم من أعلام الموسيقى ... مثل رافيل وديبوسى ويسمع لذلك الاسم معنى جميلا ... لأنه علم من أعلام الأدب والشعر مثل فيكتور هوجو ولامارتين ... كل شىء يدعو إلى معنى طيب فى النفس وكل شىء يداعب وتراً من أوتار السعادة فى النفس ...

وفى المدينة جامعة ومسارح وأوبرا وتماثيل ، وترى أهلها من الأوروبيين فرحين سعداء ... وهم مزيج أوربى ممن نزح من فرنسا وأسبانيا وايطاليا وممن نزح من جزر البحر المقابلة ... وبنات هذه الأرض قد فزن بجمال وبشر ... ولكل وجه معنى وأقبلت المدينة على عملها جادة فرحة ينبض شبابها فى كل شىء ... ولكن أين أهل المدينة العرب ؟ . . ستذهب الحسرة جمال ما ترى لأن صوراً مؤذية تتوارى خلف ذلك الجمال . فلا تلبث أن تجلس فى « قهوة » حتى يطير إلى حذائك عشرات من صبية العرب الذين يعيشون من مسح الأحذية كما يعيش إخوتهم فى مصر تحت قصور القاهرة والاسكندرية من جمع أعقاب السجاير وبيع أوراق اليانصيب ومن مد الأكف ... فمتى تسمو غرائز البشر الذى يباهى بتأليف جماعات للرفق بالحيوان فيرفق ببشر مثله ... ومتى تذهب فلسفة القائلين بأن الانسان ذئب على أخيه الانسان ! فقد لا أنسى ذلك الصبح المبكر والليل جاثم على الأرض فى طريق من أجمل طرق المدينة إذ أسمع خلف الظلام نبشاً ، فألتفت إليه فاذا بكهل عربى يبحث فى صندوق الزبالة عن رزق ، قد حنى هذا الشيخ هامته المجللة بالشيب على فضلات المقتدرين ... ورأيت هذه الصورة على طول الطريق ... أيها الشيخ المحتجب من العار ... إنما العار على القادرين والحاكمين ... إنما أريد أن أبلغ مسامعك أيها الحاكم الذى تعتز بسياسة الناس ، وأريد أن أبلغ قلبك أيها الغنى الذى تعتز بثرائك وهو متطاول على ويلات إخوتك وأخواتك من بنى أمتك ، وأريد أن تفيق نفساكما من نشوة الحكم والمال ... إن الضعيف أمانة فى عنق القوى ، والفقير كفالة فى ذمة الغنى . فان أدى القوى أمانته ، واحتمل الغنى كفالته ، عصمت أمتهما من الذل ، ودرجت جماعة صوب الكمال ...

سئل أعرابى : « من أحب أبنائك إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر والضعيف حتى يقوى والبعيد حتى يؤوب » أو كما قال . ولست أريد اليوم من حكمة هذا الأعرابى سوى المقطع الأخير أى « البعيد حتى يؤوب » فان فى البعد حنيناً إلى من نحب ... وهذا البعد يجلو وجه ما نحب ... وفى البعد صور لأوطاننا لا يشهدها القريب ... فترى قوة وطنك وضعفه ، وترى علة المعتلين فيه وتدرك حاجة الشرف فيه ... ويجد البعيد عرضاً لأمته أقرب إليه من أمه وأبيه ، لأن أمته قد وسمت وجهه بسمتها وزينت جبينه بشرفها ... وهذه الأم الكبرى معك حيث تكون ...

أبا مسمع إنى امرؤ من قبيلة
بنى لى مجدا موتها وحياتها

وقد مزقت أمم أوربا بعضها ثمل بعض، وبقيت مصر مثل سويسرا تؤوي الشريد وتطعم الجائع وتنادي بالسلام. وهي أرض مقدسة للعلماء وقد ولج دعاؤها بالحق إلى نفوس من هيض جناحه من أهل الشرق، فما بنى الأولون من أبناء الوادي لم يذهب أدراج الرياح مع الزمان، وما تصاعد من دعاء الشهداء قد اوى إلى قرار مكين في نفوس أمم في الشرق... وقد سمع أهل المدينة ان سفينة في البحر قد حملت طائفة من طلبة العلم من أبناء مصر ... وفيهم ابن طه حسين شيخ الجامع الأزهر القديم... هكذا كتبت صحف المدينة. فسارع مدير الجامعة بدعوتنا ليحتفل بقدومنا، وسارع الطلبة العرب من أهل إفريقية ليستمعوا حديثنا، وصارت أيامنا فرحاً ولیالینا عرساً بين حفلات مدير الجامعة وأساتذتها وبين فتية الجامعة وفتياتها... ولم نعدم أدبا يسمو بأمتنا وبنا في أعين الأوربيين والشرقيين ... وكانت سفينتنا تعيد إلى الذكر صوراً من شعر هومير... فقد جاءت سفينة أو ليس أرضاً سأل قومها الوفادة فأوفدوه، وجمعوا فتية المدينة ليستبقوا أيهم أبعد رمياً للقرص، ورمى كل جهد طاقته، ثم عزموا على هذا الغريب أن يرمى رميته، فأقبل متواضعاً يمشي على استحياء ثم رمى فتجاوز كل طاقة، فتعلقت به القلوب والأبصار... لم نرم قرصاً وإنما رمينا أدبا فأصبنا حباً من الأوربيين والعرب.

إنما تفعل الأفكار ما لا يعمله السيف وقد حف بنا فرنسيون سعداء بأفكارنا، وخطب خطيب العرب يقول: إنكم أيها الطلاب تأخذون العلم عن أوربا لنأخذه عنكم بعدها...

بين الأوربيين والشرقيين قضية في بلاد الشرق جميعاً، فمن يحكم بيننا وبينهم؟ ومن ذا الذي يحدثهم فيؤمنوا أن الصداقة والسلام أنفع للانسانية من أكياس القطن التي يزرعها أهلنا ويتصبب فيها عرق جبينهم لتبتلعها ليفربول، وأن الصداقة والسلام خير من ثمر الكروم التي تثمرها في إفريقية حسبة لموائد أوربا... وليس علينا أن نذكر جنى المستعمرين وحده وننسى حساب الظالمين؛ فإننا نتلو القرآن للذكر «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً».

وأرض الجزائر الساحلية مساطب من الكروم والفاكهة، وهي تنتظر السماء كل عام لتسقيها بغيث. وهذه المساطب التي يتبع معارجها محراث العربي الذي يجره فرس أو فرسان، قد صفت سوق كرومه في أبعاد متوازية. والأرض تربة جبلية محمرة، وترى في رأس المرتفع بيتاً أوروبياً لمالك الأرض... واجتمعت على عرب الجزائر سنة وجدب لم يغثهم مطر، فهزلت دوابهم ومزقت أسمالهم وعطلت أيديهم، فهم مساكين ضعفاء إلا من حفظت له أرضه أو أتم جهده. ونساؤهم أدنى للقصر من الطول، وهن يمشين في الطرقات ساكنات متلفعات «بملاية» بيضاء. وقد قرأت أن هذه «الملايات» البيض من نسيج هؤلاء النساء. وهن يحجبن أنوفهن حتى أدنى العين بمنديل أبيض. ومهما تطلعت لعيونهن فلا تعلم ما تقول العين.

وقد أويت يوما إلى جبل في الأرض لا أعرف مسالكه عند مدينة تدعى «بليدا» وأظنها تحريفاً أوربياً لكلمة «بليدة» أي تصغير بلدة. وقد قرأ عليّ صاحب في السفينة أن هذه المدينة كانت أحب بلاد إفريقية إلى الكاتب الفرنسي أندريه جيد فلم أكد أتفرد في مسلك في الجبل تخيم عليه أعشاب أدنى إلى الظلمة... وأشجار قاتمة مشتبكة حتى خرجت من عالم الحضارة إلى عالم البدو...

فإن العربي من سكان هذا الجبل يغطى رأسه كله ويتعمم فوق غطاء الرأس بعقال، ويلبس عباءة من صوف أبيض لا أكمام لها، وإنما يخرج يديه من جيبين، وزاد أكثرهم حمار وحطب، وترى الحمار مطرقاً لا ينظر إليك كأنما نزعت من قلبه سائر نزعات المجد. وترى القافلين من هؤلاء البدو يتجافونك، لأنهم يحسبونك رومياً، أو لا يردون سلامك خشية أن تكون يهودياً «لعنة الله عليه» كما يقولون إن أخرجتهم عن صمتهم وخشيتهم وكأن هؤلاء البدو لم يجر من حولهم الزمان... بل عاشوا بفكرهم القديم...

وقد سألت رفيق الذى أنس بى عن قبيلته فقال: نحن من قبيلة فى الجبل تدعى «بنى مصر». ولم يكد هذا الفتى يكشف عن نسبه حتى قربت بينى وبينه انسانية الأخوة... ومكث طرفاً من النهار يهدينى ويؤنسنى... وليست لغة هذا الجبل بمفصحة لمن يتكلم لسان مصر فاستعنت بلغة القرآن فى فهم ما يقولون، وقد كان ذلك النهار متاعا وفراراً من المدنية... وكنت أصغى بحنان وحنين إلى دعاء الطير المحتجب فى الأدغال، وكنت أتأذى فى سكون الجبل من إنسان يثير سكون السماء بطائرته.

واخترت هذه الوحشة المؤنسة ابتغاء قرية فى قمة الجبل تدعى «الشريعة» دعتنى الشريعة باسمها لأنها من أحب الأسماء إلى نفسى، ودعتنى الشريعة برفعتها لأنها تشرف من أعلى الجبل على الساحل والبحر، وأحببت أن آوى إلى نفسى واصغى إلى نفسى، وأستمع الصمت السحيق العميق، الذى لا يبعث إلا القرار والأمان والحب، وأحببت أن أتنسم هواء لم يفسده الأحياء بحياتهم ونفوسهم، وأن أقرأ من نافذة فى الليل صور النجوم، وأن أشهد الاصباح من رأس الجبل، وأن أستقل يوماً بنفسى من أثقال الانسان الذى تحبه فيكرهك، ويشهر على البراءة العداوة، ويناصبك العدوان من حيث لا تدرى...

لم أظفر ببغيتى فى «الشريعة» فقد كانت مهجورة لا تؤوى غريبا... ونزلت منها بشىء كاليأس، وجعلت أبتسم من فكرة عارضة وهى أن الشريعة مهجورة إلا من الطير لأن أمها العدالة نفرت الظالمين...

ثم عزمت سفينتنا بعد لأى على أن تبحر إلى مرسيليا...

على حافظ

حلم ليلة من ليالى الصيف

« كنت فى غرفتى تلك الليلة، أصلح من شأنى على عجل قبل الخروج للسهرة.

« تطلعت فى المرآة، فاستوقف نظرى هندام حلتى الجديدة التى ارتديتها لأول مرة.

« ما كدت أتنبه إلى هذا الشعور العابر حتى انفتحت الصفحة المقابلة له فى كتاب الذكرى. وهذه السرعة فى التنقل بين الحاضر والغابر أصبحت دينى وعادتى فى الصغيرة والكبيرة منذ ماتت زوجتى.

« ذكرت ما كان فى الحين بعد الحين من إلحاحها الوامق المحب فى أن أستجد لى ثياباً قشيبة غير التى ذهبت بجدتها. وكنت لا أسمع لها لأنى كنت أفكر فى أن أدخر اليسير لمستقبلنا.

« أذهلتنى الذكرى لحظة عما كنت عليه من عزيمة الخروج، فتلكأت وتمشيت فى الغرفة رفيق الخطو غائب الفكر، ثم توقفت ساهما.

« انغمرت بكليتى فى غمرة الذكرى ، وكانت مختلطة غامضة .

« لم تلبث أن تلاشت الصور فى ذهنى إلا صورة واحدة : صورة جلية ناطقة لمظاهر غبطتها وتهلل أساريرها وتألق نظرتها كما لو كانت حية تترائى الساعة فى الزينة التى كانت تحب دائماً أن تترائى عليها .

« استشعرت ارتياحاً وأنا احاكى فى نفسى ارتياحها . ثم تمادى بى هذا الشعور بالغبطة ، فأنكرته ، وجعلت أدافعه عنى ، وهو يغالبنى .

« شاعت — على أثر ذلك — روح انتعاش غريبة فى الغرفة الموحشة .

« دبت حياة جديدة فى كل قطعة من قطع الأثاث الهامدة .

« سطعت الأنوار الكهربائية سطعة لا عهد بها .

« اضطربت مشاعرى . اهتز كيانى هزة عنيفة . هجم على نفسى جميعاً شعور جنونى ، ولكنه غامر قوى : « إنها قادمة ، زوجتى إنها حية ، إنها قادمة . . . »

« إرتفع فى وسط هذه العاصفة الصاخبة صوت كالنذير يجاهد للبلوغ إلى ، ينبهنى إلى الجنون الداخل على .

« بقيت لحظة نهب حيرة هائلة : إما العقل ولا أمل معه فى حياتها ، وإما الجنون ومعه الأمل فى حياتها والأنس بها .

« طال الشد والجذب . ثم غلب الحب . وارتفعت على الرغم منى صيحتى . أنادى زوجتى . صيحة متهدجة ، يتجسم فيها الفرح والفزع .

« فى مثل طرفة العين ، أحسست عقلى يغيب عنى وينطوى عالمه الواعى دفعة واحدة .

« هأنذا فى مواجهة عالم غريب عنى أنكره . يالفجيعة ! ... إنه عالم غير عالمى . عالم غير عالمى ، وإن كانت الغرفة هى الغرفة ، والردهة التى أمامها هى الردهة . عالم فظيع ، فظيع ، مضطرب ، مختل ، مكهرب ، ينذر بالأهوال والفواجع .

« لم يطل انتظارى . لقد ظهرت لعينى المرتاعتين — فجاءة — من باب الردهة ، سواعد صغار ، لفتيات صغيرات ، وهى ممدودة إلى الأمام مشدودة ، ممسكة بشموع العرس اللطاف الناصعة وعليها الأشرطة البيض ، وكأنما — فى هذه اللحظة أو التى تليها — يبدأ الموكب سيره . . .

« انطلقت منى صرخة ألم جنونية ، وحملقت عيناى جاحظتين جامدتين ناحية باب الردهة ، ارتقاباً للموكب .

« وانقضت فترة . وهفت حركة . ثم اجتازت إلى الردهة — بدلا من الموكب — سيدة محترمة محتشمة لا أذكر أنى رأيتها .

« ما وقع بصر السيدة على وجهى المحتقن ، وأمارات الجنون المنطبعة عليه ، حتى رفعت يدها تحجب عينيها وأشاحت بوجهها مجفلة ، وصرخت هى الأخرى .

« لم تكن الصرخة بالجلجلة العاتية . كانت لشدة ما ملئت رعباً صرخة مخنوقة . إن ما فيها من قوة التعبير عن شقاء ما صرت إليه فوق كل طاقة وكل احتمال . »

فانتفضت عندها من نومى مهتاجاً متنفزاً ، واستويت جالساً فى فراشى حتى هدأت ، وجعلت أراجع نفسى وأمتحنها ، وأنا لا أكاد أصدق أنى ما أزال سليم الحصاة موفور العقل .

عبد الرحمن صدقى

مهلاً يا عميد الأدب

... انتهيت من قراءة مقدمة كتابك القادم « أوديب - ثيسيوس » الذى تفضلت وأتحفت به قراءك الأفاضل على صفحات « الكاتب » الغراء ، وأردت أن أغضى الطرف عن أى نقد فما ينبغى أن ينقد التلميذ أستاذه . وأشهد أنك استاذى منذ كتابك « الأيام » حتى كتابيك « جنة الشوك » و « فصول فى الأدب والنقد » . ولكن أكاد أرى أن إغضاء الطرف قد يغضبك ، ولذا أبادر بتقديم نقدى .

لا أود أن أطيل عليك ولا أكلفك بقراءة كتابى أشد الكلف ، فوقتك ثمين . ولكن مهلا يا سيدى ، ألأنك تعشق أندريه جيد ، وتكلف نفسك بقراءة كتبه أتريدنا أيضاً أن نعجب به ؟

الم نجد بين كتاب فرنسا غير جيد ، ولم نجد من كتب جيد غير كتابه هذا ؟

أما علمت يا سيدى أن الآلهة الخرافية الوهمية لا وجود لها فى القرن العشرين ؟

وماذا استفدنا نحن من تضييع وقتنا فى قراءتها وأى قراءة !

أكاد أجزم يا سيدى أننى قرأت مثل هذه القصص وأنا فى السنة الأولى الابتدائية حين كنا نشنف بقراءة قصص الزميل سعيد العريان وغيرهم .

مهلا يا عميد الأدب ماهكذا يليق . نريد منك قصصا إن كان لابد من القصص كتلك التى نشرتها باسم « المعذبون فى الأرض » . أما إذا كان لا مفر من الترجمة عن الفرنسيين فهناك عدة كتب نحن فى أشد الحاجة إلى قراءتها . وإليك مثالا منها وهو « الاسلام والعالم الحديث » لألفونس جويتلى *L'Islam devant le monde moderne* وهناك غيره وغيره .

نريد يا عميد الأدب فصولا فى الأدب والنقد والسياسة الدولية وقصصاً من تلك القصص الرائعة ولا نريد آلهة خرافية تعيدنا إلى أيام الروضة و « أبو رجل مسلوخة » وغيرهم .

صبحى شفيق

بحث مطروق

تسعى مجلة الكاتب المصرى الغراء سعياً حثيثا بالأدب العربى نحو غايته المرجوة التى نعمل جاهدين لتحقيقها ، والحق إن هذه المجلة بما تحمله بين دفتيها من أروع ما أنتجته أقلام كبار كتاب الشرق والغرب لجديرة بأن تسير بأدبنا قدماً لتجرى ريحه رخاء إلى ما نؤمل له من أهداف كى يستطيع اللحاق بالآداب العالمية الحية والسير معها . وقد كان لى شرف متابعة بحوثها الشائقة منذ صدورها فأعجبت أيما إعجاب بتلك الطريقة الفذة التى هى نسيج وحدها فى كل شئ ، وكان إعجابى على الخصوص مركزاً ومنصباً على بحوث الناقد النزيه الأستاذ سيد قطب وموضوعاته البكر الطريفة التى يطرق بابها لأول مرة فى تاريخ أدبنا العربى الحديث . وآخر موضوع قرأته له ذلك البحث الممتع الرائع المنشور فى الجزء العاشر من هذه المجلة الغراء تحت عنوان « النقد والفن »

فما اتممت قراءته حتى قفل الذهن إلى الوراء راجعاً القهقرى كأنه يبحث عن مجهول، وبعد مجهود قليل طوينا من الزمان ست سنين وقرأنا للاستاذ قطب بحثا تحت عنوان «دلالة الألفاظ على المعانى» منشوراً فى مجلة الثقافة العدد ٧٨ وما بعده فألفيناه هو بنصه وفصه وعجره وبجره كما يقولون... علم الله أننى لست من يتهمون الأستاذ — وهو من هو — بالمتاجرة بالأدب ولا لبيعه مقالا لأكثر من صحيفة كما فعل ذلك الدعى المأفون، ولكنها فرصة ننتهزها — ولو أنها غير مناسبة — كى نبدى للأستاذ اعجابنا بذلك الكنز الذى عثر عليه وحده، وهو ذلك الفتح الجديد فى هذه الدراسات المطربة المعجبة. وللأستاذ تقديرى وتحياتى على كل حال.

محمد الشاذلى حسن

قرأت هذه الملاحظة، وقد يستحق كاتبها الفاضل أن أشكر له ثناءه. ولكن لى أن أعتب عليه فى أنه لم يكن دقيقاً فى تعبيره وهو يقول:

« فألفيناه هو بنصه وفصه وعجره وبجره كما يقولون. »

هذا ليس صحيحا، والصحيح أننى نشرت مثل هذا البحث فى مجلة الثقافة منذ ست سنوات. ولكن الكاتب كثيراً ما ينشر بحثاً ما؛ ثم يعن له بعد فترة أن يحدث فيه تعديلات، تتناوله بالزيادة هنا والنقص هناك؛ وباحكام بعض العبارات لتكون أدق فى الأداء؛ وبتغيير الأمثلة والنماذج لتؤدى الغرض خيراً مما أدته الأمثلة والنماذج الأولى؛ وعندئذ يتغير التعليق على هذه الأمثلة، وهو يؤلف جزءاً أساسياً فى مبحث عن النقد خاصة.

فاذا ما انتهى إلى مثل هذا التعديل رأى أن بحثه القديم قد عاد جديداً يستحق النشر من جديد، أولا لأنه معدل، وثانياً لأنه خير مما كان. ولم يجد فى ضميره حرجاً من إعادة النشر فى مثل هذه الظروف، ومع مثل تلك الملابسات.

وهذا هو الذى وقع فى بحث «دلالة الالفاظ على المعانى» حينما أعيد نشره معدلا منقحا بعنوان «النقد والفن».

وهذا ما كنت أحب أن يشير إليه الكاتب والسلام.

سيد قطب

أما نحن فنأسف أشد الأسف لأن الأستاذ سيد قطب لم يؤذنا بأنه قد نشر مقاله ذاك ثم أعاد النظر فيه لينشره من جديد. ولو قد أذننا بذلك لكان من الممكن أن نرى فى نشر هذا المقال المعدل رأياً غير الذى رأيناه حين لم نكن نعلم أن له صورة أخرى نشرت فى مجلة أخرى منذ سنين.

الكاتب المصرى

شهريات

شهرية العلم

وسائل التغلب على الألم

مزاياها وأخطارها

ما أقسى سكون الليل وأشد حلكته . وما أبدع استرخاء النوم وألذ غفلته ، وما أفظع وطأة الألم وأشد بأسه ، فالناس لديه سواء لا يرحم العدو ولا الصديق .

على أن الألم رغم شدة وطأته على الجسم والنفس ، يجب اعتباره من الحواس الضرورية كالسمع واللمس وباقى الحواس الخمس ؛ إذ أن له مزايا وقائية جمة . فلولاه لتركنا الجمرة المحترقة تنال من أجسامنا ما شاءت ، ولما ابتعدنا عن مواطن الأذى والخطر حيثما كانت ، ولما فطنا إلى موضع الخلل من الآلة البشرية التى تعمل دون انقطاع أعواما ، فتسير فى نعومة حيناً أو يختل ميزانها أياما . والألم هو سبيلنا الوحيد لتعرف موضع الداء ، فنكافحه بما يناسبه من دواء . فهو نقمة ونعمة ، وخنجر مغمود ودرع واق . وسبحان الذى يعطى ويأخذ ، ويذل ويرحم وهو على كل شىء قدير .

كم سمعنا عن قلب يتلظى أو كبد تحترق ، فظننا أن أعضاءنا الداخلية كالقلب والكبد والرئة والكليتين والمعدة والأمعاء حساسة مرهفة يؤلمها الوخز الرقيق الدقيق ، ولكن الواقع أنها لا تحس ولا تشعر بالألم ؛ فانك إذا فتحت بطن حيوان ما ثم عبثت بأحشائه تضغط عليها حيناً وتقطعها بحد السلاح أو تحرقها بالنار حيناً آخر لما وجف أو صرخ متألماً . وفى الحالات الجراحية التى تجرى تحت تأثير البنج الموضعى يلاحظ الجراح ومن حوله أنه متى تعرضت الأحشاء أمكن العبث بها أو الضغط عليها والمريض لا يكاد يشعر بما يجرى فيه . ويقص السير وليم هارفى أسطورة لا تخلو من طرافة ، وهى أن الابن الأكبر للورد مونتجومرى ولد وفيه تشوه خلق جعل قلبه بادياً للعين إلا من الجلد الرقيق حتى أمكن لمسه بالأصبع . فحملوه إلى الملك شارل ليشاهد تلك الحالة الشاذة ، وأمكنه أن يتأكد بنفسه أن القلب لا يشعر إذا أمسكناه أو ضغطناه بأصابعنا . ولقد أوحت كل هذه الظواهر إلى العلامة هنرى هيد بفكرة الألم الانعكاسى . أى إن أعصاب الحساسية لكل عضو داخلى تنتهى فى مكان معين من النخاع الشوكى تتقابل فيه مع أعصاب الحساسية لجزء معين من الجلد . فاذا تألم القلب مثلا انعكس ألمه إلى الكتف الأيسر أو الذراع الأيسر ، وينعكس ألم حويصلة المرارة إلى الكتف الأيمن أو الظهر أو منطقة المعدة . والرئة مثلا لا تحس بالألم ولكن متى امتد الالتهاب إلى غشائها شعر المريض بألم حاد قد ينعكس إلى البطن ، فيظن الطبيب أن موطن الداء فى المرارة أو المصران

الأعور. وبالعكس من هذا، إذا امتد التهاب الكبد أو المرارة إلى الحجاب الحاجز سبب أعراضاً تشبه الالتهاب الرئوى. ولعل جالينوس كان أول من وصف هذه الظاهرة فى عام ١٦٠ قبل الميلاد. فقد فصل فى مذكراته عنها وبلغ من دقة الوصف أن قال: «إذا امتد مرض الكبد إلى الحجاب الحاجز نتج عن هذا سرعة فى التنفس وألم موضعى وسعال شديد لا يصحبه بصاق ...»

ولا بد أن يمر الشعور بالألم بمراحل عديدة قبل أن يترجم على وجهه الصحيح. فمحطة الاستقبال الأولى سواء كانت على سطح الجسم أو داخله — ترسل إشارتها إلى النخاع الشوكى ومنه إلى مكان فى قاع المخ يدعى المهاد thalamus ومهمته التفريق بين درجات الحرارة والألم بشكل تقريبى. ومن هناك تستمر الاشارة فى طريقها إلى المحطة الرئيسية العليا فى سطح المخ، فتتحلل تحليلا فنياً دقيقاً، ويشعر بمكان الألم وطبيعته ودرجته من الشدة، فيثير فى الانسان الجزع والقلق والضيق وغير ذلك من مظاهر الألم التى يعهدها كل من اكتوى بناره.

من هذا ندرك أن شعور الألم يجب أن يمر فى المراحل الآتية: محطة إرسال سطحية أو داخلية، ومنها يسرى فى الأعصاب والنخاع الشوكى حتى يصل إلى مركز الرئاسة وهو المخ حيث تتسلمه محطتان إحداهما إضافية غير دقيقة، والأخرى رئيسية وهى بمثابة الأخت الكبرى المكتملة النضوج التى تدرك ما خفى من الأمور. فاذا تحدثنا عن دواء مسكن أو منوم أو مخدر قصدنا بهذا عنصراً كيميائياً ينزل على أحد هذه المحطات أو كلها فيشل من حيويتها بشكل مؤقت ويريح الجسم من عناء الألم أو الأرق المذل المرهق ويسلمه إلى سلطان النوم الهنىء، ويالها من نعمة كبرى.

أنت تسمع مثلا عن استعمال لبخة بذر الكتان أو الانتفلوجستين أو قربة الماء الساخن لتخفيف الآلام السطحية الموضعية. فهل خطر لك أن تسأل عن سر مفعولها فى سبيل تخفيف آلامك؟ ولا بد أنك فى يوم ما لجأت إلى أحد أدوية الروماتزم تدلك بها كتفك أو ذراعك أو ظهرك أو ساقك فلا تلبث أن تشعر بدفء موضعى عجيب يصحبه ذوبان الشعور بالألم المضنى. لماذا نلجأ إلى هذه الطرق البدائية فى سبيل الخلاص من قيود الآلام والأوجاع؟ ألم أقل لك منذ سطور قلائل إن الشعور بالألم يبدأ فى محطة الارسال سطحية كانت أو داخلية ومنها يسرى فى أعصاب هى بمثابة الأسلاك الكهربائية ليصل بواسطتها إلى المركز الرئيسى الذى يفسر الألم على حقيقته. فاذا انت حاولت إنشاء محطة أخرى فى منطقة مجاورة بحيث تطغى أمواجها على رسالة المحطة الاصلية أى موضع الألم، أمكنك أن ترغمها على الانزواء والاختفاء ولو مؤقتاً، فينسى المخ الألم الأصلى ويتفرغ للمداعب الجديد يحاول تفسير كنهه ومدى أغراضه من تدخل غير متوقع فى ظرف دقيق كهذا. وقد تطول فترة المداعبة أو تقصر حسب قوة المحطة الاضافية ودرجة انتشار أمواجها فى الأفق الضيق.

على نفس هذه المحطة الخارجية يسرى مفعول بعض المخدرات الموضعية كالكوكايين مثلا. فأنت إذا حقنت هذه المادة تحت الجلد فى أى موضع من سطح الجسم، أمكنك أن تعمل فيه بالسلاح والمبضع دون أن يشعر المريض بأى غضاضة أو نفور. وإذا حقنتها تحت ضرس أمكنك خلعه على حين يراقبك المريض فى بساطة وسكون. وما هذا إلا نتيجة لشلل مؤقت فى

محطة الاستقبال ، فيجرى كل شىء فى غفلة من مركز القيادة العليا الذى يعتمد فى تصريف أموره على حارس يود لو كان أميناً ، ولكن من طبيعته أن تلهيه عن مهمته الأصلية المداعبات والمشاغلات ولا يفيق من غفلته إلا بعد فوات الأوان .

بقيت لدينا المحطتان الرئيسيتان ، وإحداهما كما أسلفنا تقع عند قاع المخ ، والثانية عند سطحه . أما الأولى فان تأثيرها بأدوية خاصة يؤدى إلى زوال الألم دون أن يغيب الشخص عن صوابه أو يفقد توازنه ، كما هى الحال عند تعاطى الأسبرين والبيراميدون والفيناستين والفينوباربيتال (اللومينال) . ومعظم المستحضرات المسكنة المنتشرة فى السوق الطبي تجمع بين اللومينال وأحد أفراد المجموعة سالفة الذكر . أما المنومات التى تشل من حركة المركز الأعلى فمن أهمها المورفين ، وأملاح البرومور والكلورال والبارالدهيد ، فيصحب زوال الألم استرسال فى نوم عميق ينسى خلاله المريض ألمه ولو إلى حين .

ومهما قيل عن أخطار المنومات والمسكنات فانه لابد أن يأتى اليوم الذى يحتاج أحدنا إلى واحد منها ليقاوم أرقا مستعصياً سببته أحداث العالم الصاخب ، أو ليريح نفسه من ألم ممض هو من الأحداث اليومية العادية فى حياة الآلة البشرية .

وإذا كان لابد من الشر فلنتحايل عليه لنمتص منه الذى ينفع ، ونتجنب فى الوقت نفسه ويلاته ومضايقاته . فيجب أن يكون الدواء للنوم مثلا رءوفا بالمعدة لا يهيج غشاءها المخاطى وأن يكون سهل الامتصاص من الأمعاء سريع الافراز فى البول حتى لا يتراكم فى الجسم بعد أن يؤدى مهمته ، ولأنه وجد بالتجربة أن هذا التراكم يؤدى إلى نوع من التسمم المزمن ، من أهم أعراضه التبلد الذهنى والخمود الجسمى ، فيصحو الشخص من النوم خاملا كسولا لا يقبل على عمل اليوم بالنشاط المعهود بعد أن نام ملء جفونه ساعات طوالا . كما يجب أن نتجنب الأدوية التى تؤثر فى القلب والدورة الدموية أو التى تؤدى إلى عادة الإدمان كالمورفين مثلا .

إذا استعرضنا الأدوية الشائعة واحداً بعد الآخر وبدأنا بأكثرها شيوعا وهى مهبطات الحرارة العادية التى لا تكاد تخلو منها صيدلية أى منزل ، وأعنى بهذه الشرذمة مركبات الأسبرين والفيناستين والبيراميدون وجدنا نحن الأطباء أنفسنا مضطرين إلى إرسال كلمة تحذير لابد منها فى سبيل السلامة العامة . فما لا شك فيه أن لهذه المركبات فوائد عظيمة فى علاج الصداع وآلام المفاصل وروماتزم العضلات وألم الأسنان ، فهى بجانب مفعولها كمهبط للحرارة نتيجة تأثيرها فى مركز الحرارة المخى تؤثر فى الوقت نفسه فى مركز الألم المجاور لأخيه الحرارى أى إن بركتها تحل على الدائرة ومن فيها . ولكن حتى هذه المجموعة البريئة فى ظاهرها لا تخلو من أشواك قد تخز ، أو قد تنال من الجسم مقتلا . . . فالاسبرين مثلا — هو اللعبة المفضلة فى صيدلية المنزل — قد يسبب آلاما معدية يصحبها عسر هضمى ، وقد يؤدى تعاطيه إلى حدوث طفح جلدى وهرش شديدين وتورم فى الوجه والعينين ونزف من الأنف والفم . ولذا جرت العادة الآن على إعطاء الفيتامين ك — وهو الفيتامين المضاد للنزف — فى نفس الوقت إذا اضطر الطبيب إلى إعطائه لمريض بكميات كبيرة كما هى الحال فى الحمى الروماتزمية مثلا . ومن سبيل وضع الحق فى نصابه يجب أن نذكر أنه ليس للأسبرين وبقية أفراد أسرة السلسلات أى تأثير سىء فى القلب كما تروى الشائعات .

فاذا تركنا فصيلة الأسبرين وطرقنا باب

أسرة البيراميدون لنكشف عما فيها من محاسن ومساوئ لرأينا عجبا ، فاننا نجد اسم أحد أعضائها ضمن معظم المركبات المسكنة التي في متناول الجميع يشترونها من الصيدلي المتخصص ومن البدال الذي يبيعها بجانب طابع البريد وعلبة السجائر . ولا بد لي في هذا الصدد أن أرسل لك كلمة إنذار خالصة . فاذا رأيت اسم البيراميدون Pyramidon مدرجا في تركيب دواء ما فخذ حذرك منه ، لأن لهذا الصديق الملعون قدرة خاصة في بعض الأشخاص — لا كلهم بطبيعة الحال — على النزول بكريات الدم البيضاء إلى الحضيض ، فتهوى من مستواها العالي البالغ عشرة آلاف في المليمتر المكعب إلى ألف أو أقل ، فتقل مقاومة المريض للجراثيم ويصاب بالتهابات شديدة بالفم والزور وينتابه هبوط شديد قد ينتهي بالوفاة . وتحدث هذه الأعراض — لحسن الحظ — في قلة من الناس في أجسامهم حساسية خاصة لهذا الدواء . ويمكننا أن نجنبهم شره بتحليل دم كل مريض يتعاطاه بصفة دائمة ، من آن لآخر ، ووقف تعاطيه في الحال إذا وجدنا أن عدد الكريات البيض أخذ في الهبوط .

وعند ما أسرد لك فيما يلي قائمة أسماء الأدوية التي تحوي مادة البيراميدون بين عناصرها ، لا أقصد مطلقاً الحط من قدرها فمعظمها أسماء عزيزة كم خففت من آلام وأوجاع وأدت للانسانية خدمات جلى تسجل بماء الذهب . ولكن كل ما أريده إنذار ودي من صديق يود لو كان نافعاً وأمينا ، لولا حساسية خاصة في البعض منا تجعل من الدواء داء ، ومن النعيم بلاء .

نوع الدواء		مقدار الجرعة الواحدة	التركيب الكيميائي
الفيرامون	Veramon	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباربيتال
سيبالجين	Cibalgin	قرص إلى أربعة	بيراميدون ، فينوباربيتال
ألونال	Allonal	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباربيتال
جاردان	Gardan	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، نوفالجين
نوفالجين	Novalgin	قرص إلى قرصين	لا تحويان مادة البيراميدون ولكن فيهما مادة الفيناستين وهي أسلم نوعا ولو أن لها أيضاً متاعبها ومضايقاتها .
فيجانين	Veganin	قرص إلى قرصين	

فكل ما أرمي إليه من عرض هذه الأسماء الغالية على كل نفس هو مجرد لفت النظر إلى عدم الافراط دون تبصر أو روية في تعاطيها ، وألا ننشئ بيننا وبينها صداقات كبيرة ، فليس أعصف بالود من ملازمة مستمرة تكشف الغطاء عما خفي وبطن .

أنتقل من ذلك إلى أملاح البرومور Bromides وهي من أوسع المسكنات انتشارا وتستعمل بصفة خاصة في علاج الأرق والتهيج العصبي والصرع . وتتميز أملاح البرومور بطول مدة مفعولها ، لأن إفرازها من الكليتين بطيء فتبقى في الجسم مدة أطول . ولهذا كانت فائدتها في علاج الصرع كبيرة لأن بقاءها بالجسم مدة طويلة يضمن السيطرة على الأعصاب المتوترة حتى يحين موعد الجرعة التالية .

ولعل فائدة البرومور كعلاج للصرع هى ألمع صفحة فى تاريخه الطبى . فهو غير كفء كمنوم ، ولا يزيل الألم فى الحالات الحادة . وإذا أعطى بمقادير صغيرة ، خمدت حدة الذهن والتيقظ والتنبه التى يمتاز بها الشخص العادى . فيبدو خاملا خامداً ، لا يقوى على التركيز والتفكير . وإذا أعطى بمقادير كافية لجلب النوم فان المريض يصحو منه كسلان على غير ما نعهده فيه بعد الاستيقاظ من نوم طويل .

وإذا أعطى البرومور مددا طويلة فان تراكمه بالجسم يسبب أعراضاً خاصة ، من أهمها بلادة التفكير وضعف الذاكرة ، وظهور طفح جلدى يظهر على شكل فقاعات أو بثور دملية أو بقع حمراء ، وفى الحالات الشديدة قد لا يقوى المريض على السير بثبات ، ويتهته ويتلعثم إذا حاول التعبير عن أفكاره . ويمكن شفاء هذه الحالات بوقف تعاطى الدواء وتناول المريض كميات كبيرة من ملح الطعام أى كلورور الصوديوم ، فان هذا يساعد على سرعة إفرازه بواسطة الكليتين .

وقد شاع فى السنين الأخيرة استعمال مستحضرات الفينوباربتال Phenobarbital ومن أسمائه المعروف بها اللومينال Luminal حتى ليقال إن معامل الولايات المتحدة وحدها أخرجت ما زنته مائة طن استهلك منها داخل أمريكا نفسها ثمانون طنا ، وأصبح الناس يستعملونها فى بساطة كأنها أقراص الحلوى ، ولجأ إليها الكثيرون كوسيلة للانتحار ، وأدى سوء استعمالها إلى ظهور أعراض تسمم شديدة تصحبها غيبوبة قد لا يفيق المريض منها نتيجة شلل مركز التنفس المخى ، أو التهاب رئوى حاد تنتجه الغيبوبة الشديدة وتراكم الافرازات المخاطية فى قاع الرئتين ثم غزوها بالجراثيم . ولكن قد لا تعدو أعراض التسمم حدوث طفح جلدى يشبه طفح الحصبة مصحوب بارتفاع فى الحرارة ، ولا يلبث كل هذا أن يزول إذا وقفنا تعاطى الدواء . أما فى الحالات الشديدة المصحوبة بغيبوبة فيجب حقن المريض بالاستركنين ، ويفيد أيضا من استنشاق الأوكسجين ، وخاصة المخلوط بثانى أكسيد الكربون بنسبة سبعة فى المائة .

وللفينوباربتال مستحضرات عدة وتتوقف كفايتها وسلامة مفعولها على قدرة الجسم على تحطيمها والتخلص منها ، فلا يبقى منها فى الجسم بعد مضى ٢٤ ساعة من تناولها سوى القليل ، ولا يؤدى تكرار استعمالها أياما متوالية إلى تراكمها بجسمه الأمر الذى يؤدى عادة إلى أعراض تسمم مزمن . فالفينوباربتون مثلا لا يطرد من الجسم بسهولة ، بينما النجبيوتال والأميتال ، وهما من مشتقات الباربتال أيضاً ، أسلم عاقبة لأنهما يحطمان وتفرزان من الجسم بسهولة . وكلما كان الافراز بطيئا شعر الانسان بخمول جسمى وذهنى فى اليوم الذى يعقب تناول المنوم .

وعلى العموم يحسن عدم الالتجاء إلى تعاطى أحد أفراد هذه المجموعة بانتظام ولو أنه ليس هناك مانع من تعاطيها من آن لآخر عند ما تكون الحاجة ملحة . وعلينا دائماً أن نقاوم هذا القرص السحرى الصغير الذى يغرينا صغر حجمه على التهامه حتى دون جرعة ماء .

وهناك دواءان منومان شائعان منذ زمن طويل ، وهما البارالدهيد والكلورال وهما يمتازان بسرعة مفعولها وسرعة طردهما من الجسم حتى ليصحو الشخص فى اليوم التالى من نومه منتعشاً هادئاً وكأنه نام نوما طبيعياً . ولكن ظهور المستحضرات سالفة الذكر طغى عليهما كما طغت السيارة والقطار على ذوات الأربع كالحصان والحمار .

أما المورفين فيجب تجنب استعماله كمنوم فى حالات الأرق المزمن؛ فقد يولد فى الشخص عادة مزمنة متى وقع فى مخالبها فقل عليه السلام . ولكننا نلجأ إليه كمسكن من الدرجة الأولى فى الأزمات القلبية والكلوية والكبدية وفى الأمراض المزمنة الميئوس منها لكى يقضى المريض أيامه الأخيرة على أهنأ حال .

هذه قصة تلك الطاقة الفريدة التى قد ترى العين غير المجربة بين أفرادها الفل والياسمين على حين ترى فيها العين الناقدة الخطر الدفين . فاحذروا لين ملمسها ، لأن الخداع من طبعها والغدر من طبيعتها .

مصطفى الديوانى

شهرية الاجتماع

إصلاح الأداة الحكومية

ضرورة يقتضيها السعي لتحقيق الأهداف القومية

كانت السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، مندمجة بعضها في بعض ، لا يميزها خط واضح . ثم أخذت تنفصل رويداً رويداً حتى ظهرت « نظرية فصل السلطات » فطبقتها كل دولة بما يلائم ظروفها التاريخية .

وبمقتضى النظرية الجديدة أصبح ، بمرور الزمن ، لكل سلطة كيانها الخاص ، ونظمها الذاتية ، واستقلالها المحترم . ولكن ليس معنى ذلك أنها باتت بمعزل عن السلطتين الأخريين ، إنما هو توزيع عملي للوظائف الرئيسية للدولة الحديثة ، أملته الضرورات ، وأوحته التجارب الشاقة الطويلة بقصد الوفاء الدقيق بالالتزامات الكثيرة المتبادلة بين الدولة والرعية ، وفي سبيل دعم أسس المجتمع الصالح الذي مازالت الانسانية تهرق دماءها الغالية على مذبحه ، وتجعله ابداً مثلها الأعلى الموموق .

إلا أن الأمم التي اقتبست الحياة البرلمانية ظنت أنها بلغت ذروة الكمال في نظم الحكم ، وأصبحت دون منال شهوات الحكام وأخطائهم . فانصرفت عنايتها إلى هذه الحياة البرلمانية وحدها ، وشغلت بها عن الهيئة المتممة لها ، والتي ابتدعت من أجلها ، ألا وهي : السلطة التنفيذية . ولهذا السبب لم تجار أداة الحكم النظام البرلماني في رقيه ، وسرعته ، ومرونته . بل لم تتفق مع أوضاعه . وإن كنا لا ننكر ما للنظام البرلماني نفسه من أثر بعيد المدى في مضاعفة العلة وزيادة الحرج !

وكلنا يعلم أن انجلترا هي مهد النظام البرلماني الحديث ، ومنها انتقل إلى فرنسا ، ثم انتشر في معظم الدول الاوربية . غير أن فرنسا عندما اقتبست هذا النظام أقامته على أداتها الادارية القديمة التي صاغتها لها حكوماتها الاستبدادية ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي اضطراب نظامها البرلماني ، وكثرة الثورات فيها ، وتوالى الدساتير ، إذ تعاقب عليها منذ ثورتها الكبرى اثنا عشر دستوراً . وكان هذا أيضاً حظ النظام البرلماني في أكثر الدول التي نقلته عن فرنسا (١) !

وقد كان من جراء هذا الموقف الدستوري الخطير أن توجهت مجاهر العلم صوب النظم الادارية ، فكان التنظيم الاداري العلمي في الدول العريقة والفتية على السواء ، وخاصة بعد إذ تبين أن الاضطرابات العنيفة التي انتابت النظام البرلماني ، ودفعت بعض الأمم إلى خنقه واستبدال النظام الدكتاتوري به ، إنما كان مرجعها كلها لا إلى جوهر الديمقراطية ، بل إلى فساد الهيئة التنفيذية ، واختلال أساليب التعاون بينها وبين الهيئة التشريعية .

---

(١) أنظر بحث « اصلاح الأداة الحكومية والادارية في مصر » للدكتور محمد عبد الله العربي بك «مجلة القانون والاقتصاد» مايو (١٩٣٤) .

وقد كانت الولايات المتحدة أسبق الدول جميعها إلى إصلاح « جهازها » الادارى برمته ، إذ أنشأت عام ١٩١٠ « لجنة الاقتصاد والكفاءة » لهذا الغرض . وفى سنة ١٩١٢ وافق البرلمان الأمريكى على جعل تلك اللجنة دائمة « لأن معضلة الحصول على أداة حكومية صالحة ليست من المسائل التى تعالج دفعة واحدة ، بل هى مستمرة الوجود ، دائمة التجدد » .

وكانت انجلترا أولى الدول فى الاهتمام « بهيئة الخدمة المدنية » — أى هيئة موظفى الحكومة — خاصة ، فشكلت عام ١٨٥٣ لجنة تريفليان - نورث كوت التى كان من نتائج أعمالها صدور مرسوم ٢١ مايو ١٨٥٥ الذى نص على ضرورة « التفوق فى الاختبار كأساس للتوظف » ، ثم مرسوم ٤ يوليو ١٨٧٠ الذى يعتبر إلى وقتنا هذا دستور الخدمة المدنية فى بريطانيا . غير أنه لم تكد تضع الحرب العظمى الماضية أوزارها حتى حذت بريطانيا حذو الولايات المتحدة ، فأنشأت « لجنة الأداة الحكومية » Machinery of Government Commitee التى عهد إليها فحص الجسم الادارى كله .

وقد لحقت بالولايات المتحدة وانجلترا فى هذا السبيل ، أمم أخرى كثيرة ، حتى فرنسا التى حفل تاريخها السياسى والدستورى بتقلبات عنيفة لم تشذ عن القاعدة . وقد أهاب العلامة هنرى شاردون ، المستشار بمجلس الدولة ، بمواطنيه قائلا : « إن البرلمان ليس إلا نصف الديمقراطية بل قد لا يكون نصفها الأهم ؛ إذ أن الديمقراطية تقوم على دعامتين : إحداهما أداة سياسية ، قائمة على الأكثرية العددية ، ومشرفة على الشئون العليا للدولة ، ومتغيرة حسب نتائج الانتخاب . والأخرى أداة إدارية ، قائمة على حسن الاختيار ، لتسيير الحياة اليومية » .

وقد تخلفت مصر ، فى هذا السبيل ، عن سائر الدول المتحضرة تخلفا واضحا ، أدى بها إلى هذا الجمود السياسى والاجتماعى المزعج . فقد ابتليت إدارتها الحكومية بتعقيدات لا حصر لها نظرا إلى ما لابس تاريخ البلاد من اضطرابات وتفاعلات شتى .

وقد كان من الواجب بعد إذ حصلنا على استقلالنا عام ١٩٢٢ ، أن يفكر ولاة الأمر فى مقابلة هذا التغيير السياسى بتغيير إدارى يلائمه ؛ غير أنهم شغلوا بالجهاد الوطنى وحده ، وفاتهم أن الاصلاح الداخلى ، وفى مقدمته الاصلاح الادارى ، هو الدعامة الحقيقية التى يقوم عليها استقلال صحيح !

ولا تغالى إذا قلنا إن أداتنا الحكومية الحاضرة ، التى يتكىء عليها الاستقلال ، يرجع تاريخها إلى أيام الاحتلال! ... فبعد أن أنهت الثورة العرابية ، ورسخ الانجليز أقدامهم فى مصر ، أدركوا ، وأدركت الحكومات التى تألفت فى عهدهم ، أن للشعب المصرى روحا قوية تكمن ولكن لا تموت أبدا : روحا سامية لا تسهل مقاومتها وإن كان يسهل مداورتها ، لأنها روح الفطرة السليمة ، والطبع المستقيم الصريح . ولذلك عمدوا منذ بدء الاحتلال إلى مخدر الاصلاح الظاهرى يسكنون به نفوس الشعب المتعطش إلى الاستقرار ، والعدالة ، والكرامة ؛ فصدر قانون أول مايو سنة ١٨٨٣ ، بناء على اقتراحات مبعوثهم الأول اللورد دوفرين ، متضمنا الكلام عن (١) مجالس المديريات (٢) مجلس شورى القوانين (٣) مجلس شورى الحكومة (الذى لم يؤلف من بعد) . ويعتبر هذا القانون أساس الأداة الحكومية القائمة اليوم بغض النظر عن التعديلات الجزئية ، السطحية ، التى أدخلت عليه فى فترات مختلفة . فما زال الوزراء — كما كانوا — يركزون فى أيديهم كل الاختصاصات

المتعلقة بوزاراتهم، كأنهم رجال إدارة — أي موظفون — لا « رجال سياسة » كما يقتضى الوضع البرلمانى السليم، وما زالت تئن البلاد تحت وطأة النظام اللامركزى الصورى الذى أنشأه الاحتلال !

أما مسائل الموظفين فأمرها أعجب ما يقال، إذ كنا بدأنا، منذ أواخر عهد إسماعيل، الاقتباس فيها من أحدث أنظمة الغرب، ولم يلبث ما اقتبسناه أن انهار وذاب، وعلى الأخص بعد قيام الحياة البرلمانية !

ومن أخطر مظاهر أداة الحكم فى مصر، بل أخطرها على الاطلاق، ارتباطها بحبل السياسة. فحين تحل بنا أزمة سياسية سرعان ما تقف « الآلة الحكومية »، وتتعطل الأعمال العامة الحيوية التى من شأنها الدوام. وبدل أن يقتصر التغيير، من عهد إلى عهد، على الوزراء وأعضاء مكاتبهم يكاد يشمل كل رؤساء الادارات ومن فوقهم ومن تحتهم من الموظفين. فهذه مشروعات تحيا ثم تموت، ثم تبعث من جديد يوم يؤذن لها بالنشور. وهؤلاء موظفون يعينون اليوم، ويرقون، ثم تدول دولتهم فاذا بهم فى آخر الصفوف مستذلين إن لم يقذف بهم إلى عرض الطريق ! . . . وهنا يحلو لى أن أستعير كلمة خلابة لسياسى مصرى معروف، قال فيها : « ليس للسياسة ضمير فى أى بلد من بلاد العالم. أما فى مصر فليس لها عقل أيضا » !

ويحزننى أن أقول إن كل ما ننشده اليوم لمصر من أمانى، وما نعقده عليها من آمال كبار جسام، لا يمكن أن يتم كما نريد ونشتهى وأداتها الحكومية كما هى لسبب بسيط هو . . . أن النقيضين لا يجتمعان !

محمد عبد الرحيم عنبر

شهرية السياسة الدولية

بين التصفية والتنظيم

جرت هـذه الشهرية بين تاريخين ، بين الخامس عشر من اكتوبر والثالث والعشرين منه . وفى الخامس عشر من اكتوبر كانت الجلسة الختامية لمؤتمر الصلح فى باريس ، وقد حدد الثالث والعشرون منه موعداً لانعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى نيويورك . وقد سبق ختام مؤتمر الصلح الانتهاء من محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج وتنفيذ الأحكام شنقاً فى من قضى عليه بالاعدام ، كما أنه سيتلو انعقاد دورة الأمم المتحدة نفاذ الدستور الجديد فى فرنسا ، وانهماك سائر الدول التى كانت مشتركة فى الحرب فى الاصلاح وإعادة البناء . ومعنى هذا أن هذه الشهرية قد جرت بين التصفية والتنظيم : تصفية حالة الحرب ، وتنظيم وسائل السلام .

فلسفة نورمبرج

ولمحاكمة نورمبرج فلسفة ؛ فهى الأولى فى التاريخ التى عقدت فيها محكمة دولية للنظر فى شؤون جنائية . وهى الأولى فى التاريخ التى يتولى فيها المنتصرون معاقبة زعماء المهزومين . وهى كذلك الأولى فى التاريخ التى يكون موضوعها جرائم الحرب .

لقد أدخلت فى قوانين الحرب والصلح مبدأ المسئولية الشخصية بعد أن كانت تلك القوانين لا تعتبر غير مسئولية الدول ، تفرض عليها الغرامات وتغير فيها التخوم ، ولو أدخلت اعتبار المسئولية الذاتية فانها لم تكن تتجاوز شخص الرئيس الأول إلى أحد غيره من المعاونين . ولقد كان هذا هو الشأن بالنسبة لنابليون ، وكان هذا هو بعض الشأن بالنسبة لنابليون الثانى . أما القواد والسياسيون والماليون والاداريون فكانت محاكمتهم لمناسبة تصرفاتهم أثناء الحرب هذه هى الأولى . وقد يكون لهذا التصرف شىء من الأثر فى نفوس أولئك الذين يقذفون بأممهم وبالعالم معهم فى أتون المنازعات والحروب . فقد يكون هذا المثل رادعاً لهم يفكرون بسببه مثنى وثلاث ورباع قبل أن يقدموا على فعلتهم . وقد يكون لهذا التصرف أثر فى احترام قوانين الحرب التى تحرم استعمال بعض الأسلحة وبعض الأساليب . لكنه يكون حتما دافعاً إلى التفكير فى أولئك الذين استعملوا القنبلة الذرية فى هوراشيما وناجازاكى دون سابق إنذار بل دون سابق علم للبشرية بهذا السلاح المدمر الجبار !

وفلسفة أخرى لمحاكمة نورمبرج . فقد كان المعروف فى أصول القضاء أن يكتم سر المداولة ، وأن الحكم الذى يصدر بكثرة الآراء دون إجماعها لا يعرف الناس عن تفصيل كثرته بل عن مبدأ هذه الكثرة شيئاً . وفى محاكمة نورمبرج احتج القاضى الروسى على تبرئة الثلاثة المبرئين وعلى خفة

الحكم على رادير بالسجن للمؤبد بدل الاعدام. ولتنفيذ الاحكام ذاته فلسفته، فلم يسمح للصحفيين أول الامر أن يحضروه، ثم سمح لثمانية منهم به، ثم امتنع عن حضوره الاثنان الروسيان، وقيل إن امتناعهما من باب الاحتجاج على إهمال الرقابة المفروضة إلى حد تمكين جورنج من الانتحار. ثم سهر المنفذين على أن يتأكد الألمان أن الانتحار واقع وأن وفاة جورنج ليست راجعة إلى سوء المعاملة.

فلسفة عجيبة تلك التي تتلمسها خلال تصرفات نورمبرج، وهى فى مجموعها لا تقرب فى نظرنا ساعة الاطمئنان إلى أن البشرية سائرة حقاً فى سبيل القضاء على أسباب الحروب أو بالأقل على أسباب سوء الظن . . .

مؤتمر الصلح

أما مؤتمر الصلح فقد كان هو الآخر مظهراً من مظاهر سوء الظن المتبادل بين الدول العظمى، بل بينهن وبين الدول الصغرى أيضاً.

تجلى فيه الانقسام بين كتلتين: كتلة الصقالبة وكتلة الانجلوسكسونيين. وتقابلت الكتلتان ووقفت الواحدة منهما للأخرى موقف المخاصم المناضل. وكذلك تجلى فيه عدم الرضا. كان موضوعه وضع معاهدات الصلح مع إيتاليا والمجر وبلغاريا ورومانيا وفنلندا، فلم ترض واحدة من هذه الدول عن المعاهدة التى فرضت عليها. وزاد عدد الغاضبين من جراء هذه المعاهدات بين الدول المتحالفة المتشاركة فى الحرب ضد أولئك الأعداء الأولين. لم ترض يوجوسلافيا وأعلنت أنها لن توقع على المعاهدة الايتالية لأنها قد ظلمت فى تسوية المسألة التريستية. ولم ترض اليونان للتخوم التى تركت لبلغاريا، ولم ترض البانيا لتخومها مع اليونان، ولم ترض أثيوبيا لتأجيل النظر فى مسألة المستعمرات الايتالية وإرجاء ضم أرتيريا إلى أملاكها، ولم يرض أهل طرابلس وبرقة والعالم العربى جميعاً لتعليق مصير ليبيا سنة كاملة.

اليونان

وفى اليونان لا تتجه الأمور إلى الاستقرار. وفيها فى الواقع شبه حرب أهلية بين الشمال والجنوب. وبريتانيا تقول بمبدأ سحبها جنودها من هناك، لكنها لا تستطيع تحديد موعد هذا الجلاء. وتريد أن تمون اليونان بالأسلحة والذخائر، لكنها تخشى أن تنتقل هذه الذخائر والأسلحة من الجيش إلى الخارجين عليه ولاسيما الشيوعيين منهم. ويلوح أن الأمر الآن إلى محاولة جديدة هى محاولة الانتخابات التى تجرى بعد عودة الملك إلى بلاده. وقد تنتهى باشتراك جميع العناصر فيها، وقد يصل هذا الاشتراك إلى شىء من الهدوء والاطمئنان إلى النتائج.

إيران

ويقابل هذا المسعى فى الطرف الغربى من الشرق الأدنى مسعى آخر فى الطرف الشرقى من الشرق الأوسط . ففى إيران قامت المنافسة بين روسيا وانجلترا . وقالت انجلترا إن روسيا هى التى دبرت الحركة فى أذربيجان . لكن الحركة انتهت ، وانتهت إلى تفاهم من شأنه أن يستقبل الشاه رؤساء الاقليم النافر فيعلنون بين يديه أنهم إيرانيون يستمسكون بالبقاء فى حظيرة إيران . وقامت حركة أخرى فى عربستان قيل إن لانجلترا يدا فى قيامها ، بل إن حكومة طهران قد طلبت إلى الحكومة البريتانية سحب قناصل لها اتهمتهم بأنهم المحركون للقبائل والثوار . واتجهت هذه الحركة الثانية إلى السكون . لكن سكون الشمال كان وراءه انتصار معنوى للروس ، وسكون الجنوب وراءه إخفاق معنوى للانجليز . فأذربيجان نال استقلاله الذاتى ، وعربستان باقية فى حدود إيران لم تنتزع منها وتضم إلى العراق . وإذن فقد اتجهت المساعى — ولاسيما بعد أن أذيع أن روسيا قد دعت إيران إلى عقد محالفة عسكرية بينها وبين الاتحاد السوفيتى — إلى عودة إلى التفاهم على عدم تدخل روسيا فى الشمال ولا انجلترا فى الجنوب ، وتترك إيران بين الاتحاد السوفيتى ومناطق النفوذ البريتانى فى آسيا « منطقة حرام » .

ومن يدرى ! فقد يكون فى هذا الاتجاه خير ، ومن يدرى ! فقد يصح تطبيقه على تركيا بالذات بعد أن قيل إن لروسيا مشروعا ضخما يصل البحر الأسود بالبحر الأدرياتى فبالبحر المتوسط دون الدردنيل والبوسفور !

فى هيئة الأمم المتحدة

وفى جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة موضوعان شائكان : أولهما موضوع حق الاعتراض على القرارات ، وهو الممنوح بمقتضى ميثاق سان فرنسيسكو للدول العظمى صاحبة المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن . وموضوع معاملة جنوب أفريقيا لأهله الأصليين لأن لهم لونا غير لون الأوروبيين ، وديباجة الميثاق تقضى بعدم التفرقة فى أخذ الناس تفرقة ترجع إلى اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين .

وقد استعملت روسيا خلال الدورة الماضية من دورات هيئة الأمم المتحدة حقها فى الرفض والاعتراض ، واستعملته أكثر من مرة والاتجاه هو إلى حرمانها من هذا الحق . والدول الصغيرة والدول المتوسطة كلها تؤيد بلا ريب إلغاء هذا الحق لأنه واضع لهن فى موضع غير كريم . لكن تعديل الميثاق يستدعى كثرة ثلثى الأعضاء . فهل يوفق العاملون على الاعتراض للحصول على هذه الكثرة ؟

وسيكون بطل إثارة مسألة إساءة معاملة جنوب أفريقيا لأهله الأصليين هو نهرو الزعيم الهندى . فقد شكت الهند جنوب

افريقيا لهيئة الأمم المتحدة لتمييزها فى المعاملة بين الأوربيين والهنود . ونهرو هو الذى يتولى رياسة الوفد الهندى هـذه المرة . ومن مبادئه المعروفة الحرية والمساواة للناس جميعاً وبين الناس جميعاً . وستنتهز روسيا فرصة لتأييد نهرو والتنديد بالسكسونية ؛ إذ لا تقف معاملة الملونين عنـد حد جنوب أفريقيا وحدها بل تتجاوزه إلى الولايات المتحدة بالذات .

وسنرى هل تخوج الهيئة الدولية الجديدة من المحنتين إلى التقدم أو إلى الرجعية ، إلى المساواة أو إلى التمييز . وإنها لتجربة مرتقبة .

محمود عزمى

شهرية السينما

١

ابتدأ الموسم السينمائى بقدوم شهر اكتوبر بعد ركود دام أكثر من ثلاثة أشهر. واستأنف مديرو قاعات العرض نشاطهم بتقديم الأفلام المصرية إلا فى ثلاث قاعات تعرض أفلاما أمريكية أو فرنسية. وأخذت قاعة مترو منذ السنة الماضية تعيد من آن لآخر عرض خير ما أنتجته قديماً شركة مترو جلدوين ماير. ففى الموسم الماضى قدمت للمرة الثانية « ذهب مع الريح » و « غادة الكاميليا » و « جسر واترلو ». وهى منذ أسبوعين تعيد مرة أخرى فيلم « غضب من السماء » الذى يعد من خير الأفلام بالقياس إلى ما تنتجه الشركات السينمائية الأمريكية عادة من أفلام سقيمة.

غضب من السماء (مترو جلدوين ماير) (١)

وهذا الفيلم يعتبر دراسة لحالة نفسية معقدة لشخص ابتلاه الدهر بمركب النقص دفعه إلى الانتحار للتخلص من حياته التعسة وللانتقام من الشخص الذى كان مبعث شقائه المتصل.

تبدأ حوادث القصة فى باريس فى مستشفى للأمراض العقلية حيث يقيم الشباب فيليب مونويل منتحلا اسم صديقه وورد أندروز. وينجح فيليب فى الهرب من المستشفى والعودة إلى إنجلترا حيث يصادف صديقه وورد، فيدعوه إلى الاقامة فى قصرة الريفى. وهناك فى القصر يلتقى الشابان بفتاة تدعى ستيلا وكانت تعمل وصيفة لوالدة فيليب. يقع الشابان فى غرام الفتاة، ولكنهما لا يبوحان بحبهما. وما يكاد وورد يرحل عن القصر، وكان يستأثر بالفتاه دون صديقه، حتى يبوح فيليب بحبه للفتاة، ويطلب منها أن تتزوجه. ويتم الزواج فعلا ويبدأ شقاء الزوجين وصديقهما وورد. فالزوج يعلم أن وورد يكاف بستيلا، ويصور له مركب النقص أن ستيلا لا تحبه بل تهيم بصديقه وتبادله غراماً بغرام. ويقوى عنده هذه الفكرة ما تبديه من اضطراب عند ما يحدثها عن وورد. وتحرك الغيرة عند فيليب طبيعته الشريرة، فيدبر لامرأته وصديقه سلسلة من المواقف ليثبت لنفسه أنهما عاشقان. فيدعو وورد عنده فى القصر وكثيراً ما يتركه بمفرده مع ستيلا. ثم يطلب من وورد أن يعمل عنده فى المصنع الذى يديره. وعند ما يعتقد فيليب أن لديه ما يثبت حب ستيلا لصديقه، يحاول قتل وورد ولكنه لا ينجح، فيفترق الصديقان. ويأخذ فيليب فى تعذيب امرأته ويحاول قتلها أيضاً فى أثناء نوبة من النوبات التى تعتريه من حين لحين. وتهرب الزوجة وتحتمى بوورد، وقد بدأت تعجب به وتقدره لقوة شخصيته. وما الاعجاب إلا أولى مراحل الحب. ولكن فيليب لا يرضى بهذا الوضع فقد أخفق فى الانتقام من صديقه وزوجه.

---

(١) Rage in Heaven *(Metro-Goldwyn-Mayer)*.

فيفكر فى الانتحار ليتخذه وسيلة للانتقام منهما معاً ، وينفذ فعلا ماعزم عليه بعد أن ترك مايكفى من الأدلة ليتهم وورد بهذه الجريمة ، فينجح فى تدبير هذه المؤامرة ويلقى القبض على وورد ويحكم عليه بالاعدام .

إلى هنا سارت القصة سيراً منتظماً ، فحوادثها متسلسلة تسلسلا طبيعياً ، فهى نتيجة حالة فيليب النفسية وصدى لمركب النقص الذى أشقاه وجعل حياته بؤساً متصلا . غير أن الحوادث تطورت فجاءة . فلا بد من نهاية حسنة للقصة . وليكون للقصة نهاية حسنة لابد من إنقاذ وورد . فالمؤلف يجعل ستيلا تكتشف فى الأربع وعشرين ساعة السابقة لتنفيذ حكم الاعدام أن لزوجها يوميات ، وأن هذه اليوميات تتضمن اعترافات تبرئ وورد . ولكن هذه اليوميات فى باريس . فتستقل طائرة وتطير إلى العاصمة الفرنسية لتبحث عنها وأخيراً تهتدى إليها . وبالاهتداء إليها يفهم المشاهد أن وورد ناج بلا شك . وهكذا تتابعت الحوادث سراعاً مما جعل المشاهد فى حالة من اللهفة غير طبيعية .

وقد وفق المؤلف والمخرج فى تصوير شخصية فيليب مونريل . فلم يكتف الاثنان بأن يطلعانا على حالته النفسية من أقوال طبيبه المعالج ، بل هما يجعلاننا نشاهد عدة مواقف تظهر لنا جلياً مركب النقص الذى عذبه طيلة حياته ، ولم يتركا ناحية من هذه الشخصية الشاذة إلا أبرزاها وأمعنا فى دراستها . وقد يكون فى الفيلم بعض مناظر تعتبر مسرحية أكثر منها سينمائية ، منها هذا المنظر الذى تتنزه فيه ستيلا فى الحديقة ثم تصادف فى طريقها فيليب . وهذا المنظر الآخر الذى يبتدئ وفيليب منهمك فى المطالعة . فتفتح عليه ستيلا باب الحجرة وتدخل . ولم يوفق المخرج فى اختيار بعض مناظر الحديقة ، فبدت للمشاهد غير طبيعية .

أما التمثيل فكان موفقاً كل التوفيق بفضل ممثليه الثلاثة وهم : چورج ساندرز ، وكان يمثل دور وورد أندروز ، وقد نجح فى إبراز ما لهذه الشخصية من قوة وفتنة . وروبرت مونتجومرى الذى قام بدور فيليب مونريل ووفق فى تمثيله إلى تحقيق هذه الشخصية المركبة دون الالتجاء إلى عنف فى التعبير . وانجريد برجمان التى أخرجت لنا شخصية ستيلا ، تلك الفتاة البسيطة الراضية بمصيرها الأسود . وساعدها المصور على إبراز مقدرتها على التعبير بنظراتها عما يخالج نفسها من شعور مضطرب .

ڤوتران (جومون) (١)

« ڤوتران » قصة للكاتب الفرنسى بلزاك اقتبسها عنه بيير بنوا وقدمها للسينما . وهى لا تختلف فى حوادثها ووضعها عما اعتدنا أن نقرأه فى كتب بلزاك العديدة . وشخصية ڤوتران من الشخصيات التى نجدها فى بعض قصص مجموعة « الملهاة الانسانية » فهو يلعب دوراً فى قصة « الأب جوريو » و « أوهام تبددت » و « عظمة الغانيات وبؤسهن » . وقد بعثه الكاتب من جديد فى قصة « ڤوتران » حيث يقوم بدور سجين

(١) Vautrin *(Gaumont-C.P.L.F.)* .

هرب من السجن وانتحل شخصية الأب كارلوس هيريرا مبعوث ملك أسبانيا في فرنسا. وفي طريقه إلى باريس صادف شابا كاد أن ينتحر لولا أنه مد له يد المساعدة، فأعانه على اكتساب مكانة رفيعة في المجتمع الباريسي، كما توصل إلى تلقيبه بالمركيز دي روبمبريه. ولكن الحظ يخون الاثنين في النهاية، وحين يفتضح أمرهما ينتحر المركيز الشاب. أما ڤوتران فبقوة إرادته وذكائه الخارق ينجح في كفاحه مع العدالة، ويصل أخيراً إلى مركز رئيس البوليس السرى.

والقصة لا تخلو من قيمة أدبية واجتماعية. فبلزاك يبرز في حوادثها ما للمجتمع الفرنسي في عصره من عيوب، وما كان للطبقة العليا من تأثير سيئ في رجال العدالة. فڤوتران لا يصل إلى المركز بشخصيته الجبارة فحسب، بل كذلك بمساعدة سيدات من طبقة النبلاء أردن ألا يفتضح أمرهن في هذه القضية، فطلبن إلى النائب العام أن يتكتم المسألة ووعدن المحقق بتعيينه مستشاراً إذا نجح في تبرئة ڤوتران والمركيز دي روبمبري.

والقصة في بداءتها تذكر «بالبؤساء»؛ فڤوتران مثل جان ڤالجان فار من وجه العدالة ورجال الشرطة يلاحقونه حيثما ذهب. وأطلعنا المؤلف على حيل ڤوتران للهروب من الشرطي المكلف بمراقبته. وهذا الشرطي يذكرنا أيضاً بشخصية جاڤير. وتحمل القصة طابع روايات المذهب الرومانتيكي في آخر أيامه، فهي لا تخلو من مؤامرات وجرائم الاغتصاب والدسائس الاجتماعية. فهي صورة بغيضة لما وصل إليه انحلال المجتمع الأخلاقي في عصر بلزاك.

وإخراج القصة لا يخلو من طرافة واتقان؛ فقد حافظ المخرج على روح قصص بلزاك وجوها. غير أن المناظر في بعض الأحيان تبدو غير طبيعية، كما أن الصور لم تكن واضحة كما ينبغي لرداءة الضوء. وقد ساهم تمثيل مسيو ميشيل سيمون وإتقانه في إخراج شخصية ڤوتران، ومواهب مادلين سولونى وأداؤها الطبيعي في نجاح هذا الانتاج.

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

كتاب الفاشوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة فى تاريخ مصر العربية ، وقد ألفه ابن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، أو كما نقول نحن الآن وزير المالية والحربية . وكان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى القاهرة فى عهد الفاطميين واتصلوا بهم وفوضوا إليهم كثيراً من شؤونهم وأعمالهم . فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، وأصبح إليهما أمر مصر اضطهدا موظفى الدولة من القبط ، واضطرت أسرة ابن مماتى تحت تأثير هذا الاضطهاد أن تسلم حتى تحتفظ بمكانتها فى الدولة ، واستقام لها ذلك ؛ فان صلاح الدين قرب منه المهذب مماتى ، وجعله قيما على ديوان الجيش ، فلما توفى خلفه ابنه فى عمله ، ثم أسندت إليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها .

وقد اشتهر ابن مماتى فى عصره بسرعة البديهة واللذع فى النادرة . يقول ياقوت عنه فى كتابه «معجم الأدباء» : إنه كان ذا خاطر وقاد مسارع . ويقول أيضا : إن له نوادر حسنة حادة . وقد تعلقت هذه الشخصية الفكهة بشخصية أخرى عاصرتها ، هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ، وكان فيه — على ما يظهر — شئ من الغباء والغفلة والشدة والقسوة ، ومع ذلك كان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها فى حروبه الصليبية ، وهو الذى قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين . ويحدثنا الرواة أن صلاح الدين كان يشرك معه بعض أولاده فى إدارة مصر أثناء غيبته لما يعلم من عدم فطنته ونباهته . ولكن حدث ذات مرة أن ترك له حكم مصر منفردا ، فتشوش عليه الأمر ، وأتى فى حكوماته بين الناس من الحمق والغفلة ما جعل أكبر كاتب فكه لعصره وهو ابن مماتى يضع عليه الحكايات المضحكة ، وقد نسقها فى الكتاب الذى نحن بصدده الآن وسماه هذا الاسم الطريف «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» وإنه ليستهله بقوله : «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد [على] كلمته ؛ ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » .

ويذهب بعض المستشرقين ، وهو الأستاذ كازانوفا الذى عنى ببحث هذا الكتاب ونشره ، إلى فكرة طريفة خلاصتها أن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض الضحك فقط عن غفلة قراقوش وغبائه ، بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التى خلفت الدولة الفاطمية ، وهى دولة كانت تتعصب على القبط عكس دولة الفاطميين ، فأراد أن يكيد لها بتعقب أحد حكامها تعقباً مضحكا ، أو قل

تعقباً ساخراً، يسخر أثناءه من صلاح الدين وما كان من طغيانه هو وحاشيته أو بطانته. وهى فكرة قيمة، وإن كان يضعف منها أن ابن مماتى لم يكن نصرانيا حين تأليفه هذا الكتاب، أو على الأقل ليس بين أيدينا دليل على أنه كان نصرانياً حينئذ، إذ كان قد أسلم. ومع ذلك فربما كان أسلم على ضغن وموجدة. ومن يدرى لعل المصريين جميعاً قبطاً ومسلمين كانوا يتعصبون على دولة صلاح الدين، وخاصة أنه ألغى كثيراً من أعيادهم الفاطمية، وأيضاً فانه أتعبهم فى غاراته وحروبه الصليبية. ويظهر أن بطانته كانت كلها أجنبية أو تكاد. ومن هنا تسلل بعض معاصريه، وهو ابن مماتى إلى الكيد لهذه الدولة عن طريق الفكاهة، وهو كيد قديم عرفت به مصر منذ عهد الرومان؛ فقد كانوا يستقبلون ظلم بعض القياصرة بالفكاهة الساخرة ينفسون بها عن صدورهم. وهذا هو ما لجأ إليه ابن مماتى فى عهد صلاح الدين، فقد تعقب أهم قواده، وما كان من حكوماته الطائشة بين المصريين، فألف فيها هذا الكتاب الطريف كتاب الفاشوش. وأول ما نلقاه فى الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء فرد شكواها عليها مدعياً أنها ليست السيدة بل هى الجارية، والجارية هى السيدة، وهم بحبسها لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها. وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب: فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا «أجرودا» كان ما يزال يعبث بلحيتيهما، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما فلم يجد له لحية، حينئذ قلب الوضع فى القضية إذ ظن أنهما هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته، فصاح فى غلمانه: ودوهما إلى السجن ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل: وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور. ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوماً بأحد غلمانه، وقد قتل نفساً محرمة بغير حق، فقال اشنقوه، فقيل له: إنه حدادك الذى ينعل لك الفرس، فان شنقته انقطعت منه، فنظر أمام بابه، فرأى رجلا قفاصاً، فقال: اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد!

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هو المنطق الذى ألفناه، فان قراقوش يتصرف فى القضايا بحمق غريب، وهو حمق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا، حمق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ظلم صارخ. وهل يريد ابن مماتى غير ذلك؟ إنه لايريد إلا أن يعرض علينا قراقوش فى صور مضحكة تضحكنا من حكوماته وما يعتورها من غباء ونزق، وما تخفى فى باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتى تجسيما. وإننا نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص، وإنما للتباين بين المقدمات والنتائج. فسيدة تدخل عنده لتشكو له خادمتها، فاذا هما تخرجان فى حال شاذة، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة والخادمة أصبحت سيدة، وكذلك الشأن فى الرجل «الأجرود» فقد دخل بدون لحية، وخرج ولا بد له من لحية إلا أنها نتفت، أو قل: دخل متهما وخرج متهما. وفى النادرة الثالثة نرى القاتل بريأ، والبرىء يقتل، وكأنما لسنا بإزاء دار من دور الحكم والقضاء، إنما نحن بإزاء ملعب هزلى نرى فيه رجلا يأخذ سمت الحاكمين ويصطنع شاراتهم، ولكنه ما يبدأ النظر فى القضايا والحديث مع الخصوم: المدعين والمتهمين حتى يشوش عليه الأمر، فاذا هو يحكم دائما حكومة مهوسة. وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع

فى قضاياه قلبا يزرى بعقولنا لأنه يلغيها إلغاءً ، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم .

ونستمر فى قراءة كتاب الفاشوش ، فاذا ابن مماتى يروى أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيىء له حساب القمح والشعير والفول والحمص ، وقام القاضى بطلبه ، إلا أنه وضع الحساب كله فى جريدة واحدة أو كما نقول نحن الآن فى صحيفة واحدة ، فاختلط الأمر على قراقوش ، وظن أن القاضى خلط هذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها فى جريدة واحدة وأمر بحبسه ! وتنبه القاضى للمسألة ، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف فى جريدة على حدة . حينئذ سر قراقوش وعفا عنه قائلا : لقد تعبت يا فقيه ، نقيت هذا من هذا وذا من ذا ، زفوه فى المدينة . أرأيت إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بجريدة أنه نحى الأصناف بعضها عن بعض . وينقلنا ابن مماتى من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر أياما ، فنظر قراقوش فرأى جمال السقايين وهى تسير فى شوارع القاهرة عشرين عشرين فقال : ياغلمان ! نادوا فى المدينة قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لايملى أحد من البحر إلا جملا واحداً ، ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل فقال : ياهؤلاء ! كيف رأيتم رأيى عليكم ؟ ما هو إلا رأى مبارك . وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل فتمنع الفيضان ! وأيضاً فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة ، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له ، ولكنه قراقوش مثلة عصره والعصور التالية فى الغفلة والغباء .

وما نظن أحداً فى تاريخ مصر والمصريين بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن مماتى من التشهير بقراقوش وحكوماته بين الناس ، وهو لم يبلغ ذلك عن طريق هجائه لقراقوش بالشعر ، وكان شاعراً ممتازاً ، وإنما بلغه عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين مارويه وبين اللغة الحقيقية التى كانت تدور بين قراقوش ومن يحكم بينهم من الناس حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة ، وهى فعلا قد شاعت فى المصريين فى مدنهم وريفهم كلما قابلهم حكم ظالم قالوا : « دا ولا حكم قراقوش » . وقد يكون قراقوش دون كل هذا الظلم الصارخ الذى صوره ابن مماتى كما يذهب إلى ذلك الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « حكم قراقوش » ؛ فقد نصب نفسه فى هذا الكتاب مدافعاً عن قراقوش فى تحيز ظاهر . ونحن لا نستطيع أن ننفى ما أثبته كتاب الفاشوش على قراقوش من ظلم وغباء ؛ فان نفيه لا يدل عليه دليل واضح ، بل المعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التى حملها ابن مماتى على قراقوش أصل من سيرته وخلقه وحكوماته بين الناس .

وقد وفق ابن مماتى توفيقا لا نظير له حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الفكه ، وهو عرض أراد به أن يشوه الدولة الأيوبية الجديدة كلها ومن تصطنعهم فى أعمالها وشؤونها ، وإنه ليستمر فيروى نادرة بديعة ، وهى أن شيخا وصبيا أمرد احتكما إلى قراقوش فى دار ، كل منهما يدعى أنها له ؛ فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبى : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه فتراءى له أن العذار لا تكون إلا للشيخ الكبير ، حينئذ قال للصبى : ياصبى ادفع له داره ، وإذا صرت فى

عمر هـذا الشيخ الكبير دفع لك الدار!

وعلى هذا النسق مازال ابن مماتى يصور قراقوش فى هذه الصور الهزلية التى كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمراً فيه لهو ومتعة، وفيه هذا البلاء الذى صبه قراقوش على رءوس الناس. والغريب أن ابن مماتى حين تصدى له فى هذه النوادر والفكاهات لم يترك منه جانباً إلا وشوهه ومسخ خلقه حتى دينه، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش: «يا مقرئ! لقد قرأت قراءة طيبة.» فقد ظنه يتلو قرآنا، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر، وليس ذلك كل ما يريده خصمه به، فانه يريد شيئاً وراء ذلك، يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحاً مما يقال فيه ذما.

ومهما يكن فان ابن مماتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية روائية للغفلة والحمق. وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى، إذ نسب إليها كثير من القصص المضحك. بل إننا نجد كتباً تروى نوادرها، كتباً جديدة، فقد ألف السيوطى كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتى، ولكنه يختلف عنه فى كثير من طرفه ونوادره، مما يدل على أنه من صنعه أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتى، وهو حقاً يلتقى مع كتاب ابن مماتى فى كثير من نوادره ولكنه ينفرد بطرائف جديدة. وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية روائية، فالرواة والقصاصون يضيفون إليها كثيراً من النوادر والحكايات المضحكة. ولعل من أطرف ما ساقه السيوطى ما رواه من أنه «سرقت عملة فى زمن قراقوش، فقال لأصحاب العملة: الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له: نعم. فقال: اذهبوا ائتونى به ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه. فقال مدوه، فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل، فقال افعلوا ما آمركم به فمدوه وضربوه ونزل قراقوش ووضع أذنه بجانبه وجعل يوشوشه، فلما فرغ قال: اجمعوا لى باقى أهل الحارة، فلما حضروا قال لهم الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة، وكان سارق العملة (واقفا) بجملة الناس، فتوهم ورفع يده إلى رأسه، فرآه قراقوش، فأمر به وقرره بالضرب، وأحضر العملة ودفعها إلى أصحابها.» وما من ريب فى أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا فى عصره وبعد عصره. ويحكى السيوطى أيضاً أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا، وكان ولده يقترض على موته قدراً معلوما، فزاد عليه، وما مات والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه، وكفنوه، ووضعوه فى النعش وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه، فلما سمع الميت بذلك قال: الحمد لله جاءنى الفرج فجلس فى التابوت، وقال يا مولانا السلطان! خلص حقى لى من ولدى فانه يريد دفنى بالحياة، فقال له: كيف تدفن والدك بالحياة؟ فقال الولد: كذب على يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت، ولا حملته إلا وهو ميت، وهؤلاء (الحاضرين) يشهدون بذلك، فقال للحاضرين: أتشهدون بذلك؟ فقالوا نشهد بما قال الولد، فالتفت قراقوش للميت وقال: أنا جئت أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين، روح اندفن بلا شفاعة، لئلا تطمع فينا الموتى، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم، فخلوه ودفنوه بالحياة فى ذمة قراقوش.» ويحكى السيوطى أيضاً: «من طرفه أنه طار له باز، فقال: أقفلوا باب النصر وباب زويلة»

فان الباز لا يجد له موضعاً يطير منه ! »

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية خيالية لكل حاكم مهوس ، فيه بله . وفيه غفلة ، ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت النوادر التى تروى عنه . وهناك كتاب يظهر أنه ألف فى عصر متأخر ، وهو يذهب مذهب الكتابين السابقين ويسمى « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » . والحق أن ابن مماتى نجح نجاحا هائلا فى تشويه شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها فى هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره .

ومع مرور الزمن وتتابعه أصبح اسم قراقوش يتخذ رمزاً لكل شخص مضحك . وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش ، وقد دخلت إلى مصر باسم « اراجوز » . وإن فى ذلك ما يدل على نجاح ابن مماتى فى « التشنيع » على قراقوش والتندر عليه ، وهو تشنيع نفذ منه إلى كل ما كان يريده المصريون فى عصر صلاح الدين من ضحك على الدولة الأيوبية الجديدة وتفكيه .

شوقى ضيف

من وراء البحار

شاعر يريد تنظيم العالم (١)

أذاع الشاعر اليونانى نيقوس كازانتزاكى من أكبر الشعراء اليونانيين المحدثين نداء على صفحات مجلة «الحياة والأدب» الانجليزية (عدد سبتمبر) وجهه إلى العلماء والمفكرين وجميع الذين يهتمون لخير الانسانية ، وقال فيه : إن الانسانية تجتاز فترة حرجة ، وقد صار العالم مرتبطاً بعضه ببعض ، حتى إنه لا يمكن نجاة شعب من الشعوب دون نجاة الشعوب بأسرها ، وقد يجر سقوط أمة من الأمم إلى سقوط جميع الأمم . ولقد زال إلى الأبد ذلك الوقت الذى كانت تعيش فيه الأمم فى عزلة ؛ فاذا تكلم المرء عن أمته . فانما هو يتكلم عن جميع الأمم الأخرى .

إننا لنشعر جميعاً شعوراً غامضاً أن الثقافة الحديثة مهددة بخطر جسيم ، ولن نستطيع التغلب على هذا الخطر إلا إذا واجهناه فى غير خوف ولا وجل ، فالشجاعة والضوء هما أقوى أعداء قوى الشر .

فما هو الخطر الجسيم الذى يهدد هذا العالم فيما بعد الحرب ؟ هو أن عقل الرجل المعاصر قد نما فى الشؤون المادية والطبيعية بسرعة وعمق أكثر من نموه الروحى ؛ فالعقل قد سيطر على القوى الطبيعية وأخضعها لأمر الانسان ، فى حين أن الانسان لم يبلغ النضج الاخلاقى الضرورى لكى يحسن استعمال هذه القوى فى ضمان سلام العالم ورخائه ؛ فلم يعد هنالك توازن وتناسق بين تطور الانسان العقلى وتطوره الاخلاقى هذا هو الخطر الكبير .

كان الأمر فى الشرق فى الازمنة الغابرة على خلاف ذلك ، فقد سمت النفس الانسانية إلى آفاق عالية ، ولكن قدرة الانسان على الاختراع — قدرته العلمية — كانت لا تزال متأخرة ، وكان عدم التوازن فى هذه الامم المتقدمة أخلاقياً مما كلفها غالياً ، فقد أغار عليها البرابرة فمحوها ، والآن يحدث فى أوربا عكس ذلك .

يجب لكى تظل المدنية فى مستوى رفيع أن نوجد تناسقاً وتوازناً بين العقل والروح ، ويكون هذا التناسق أكبر غاية يرمى إليها نضال الانسان . وهذا الواجب عسير ، ولكن يجب تحقيقه بشرط أن نتبين ما نريد وإلى أين نسير .

على أنه من الطبيعى أن تمر فترة فوضى أخلاقية وروحية ، قبل أن نصل إلى هذا الغرض . وإن الذى يتصل بالرجال المفكرين فى أنحاء العالم يجد النتائج التى لا محيص عنها للحرب بادية عليهم — نتائج الجوع والحيرة وهى التعب والقلق وعدم الاستقرار . وأهم من ذلك نتائج عدم وجود مبدأ أخلاقى ثابت معترف به من الجميع ، يقوم عليه بناء حياة الرجل فيما بعد الحرب . ويجب ألا نقع فى الزلل : فاعادة البناء الحقيقى لا يقوم على بناء المصانع والسفن والدور والمدارس والكنائس التى دمرتها الحرب ، بل البناء الحقيقى الصلب هو الذى يقوم على الاصلاح الداخلى للنفس الانسانية . فالمدنية لا تقوم إلا على أسس روحية ، والحياة الاقتصادية والسياسية يحكمها ما فى الانسانية من تقدم روحانى . وكيف يمكن تحقيق هذا الاصلاح الداخلى مع وجود هذا التعب والقلق وعدم

(١) أنظر « من مجلات الغرب » .

الاستقرار ؟ يمكن ذلك بطريقة واحدة هو تجنيد جميع قوى النور الكامنة فى كل رجل وكل أمة . ولقد وجه الأب مونييه ذات مرة سؤالا إلى برجسون الفيلسوف الكبير : هل يستطيع أن يجمل فلسفته فى كلمة واحدة ؟ فأجاب الفيلسوف بعد تفكير لحظة : التعبئة . فى كل موقف حرج يجب أن نعبئ جميع مواردنا الاخلاقية . وليس هنالك فى هذه الفترة طريق آخر للنجاة . يجب ان نعبئ مواردنا ، ونحارب الخداع والكراهية والفقر والظلم ، ويكون ذلك بأن نعيد الفضيلة إلى العالم .

من هم الرجال الذين يظهرون موارد العالم الخلقية ؟ إننا لا ننتظر أن تنبعث هذه الصيحة الجامعة الهامة من الزعماء المدنيين كالسياسيين ورجال الاعمال والاقتصاديين ، إنما يستطيع أن ينهض بهذا العمل الزعماء الروحيون ، وواجبهم أن يقوموا بهذه المهمة الشريفة بمنأى عن الاهواء الشخصية . إن مسئولية المفكر الآن كبيرة ؛ إذ أن الاهواء عمياء ، والرغبات تتنازع ، والقوى المادية التى وهبها العقل للانسان عظيمة ، وعلى استعمالها يتوقف نجاة الجنس البشرى أو القضاء عليه . فليتحد أولئك الذين يعتقدون فى القيم الروحية . ويجب أن نفتح أعيننا فى هذه الأزمنة الخطرة التى نمر بها ، وننظر فى وضوح إلى الواجب الروحى للانسان ؛ فلم يعد الجمال كافياً ، ولم يعد الصدق النظرى كافياً ، ولا الطيبة السلبية كافية . لقد صار الواجب الروحى للانسان اليوم عظيما وأكثر تعقيدا مما كان ؛ فعليه أن يشق طريقاً وسط الفوضى التى تبعث الحرب ، ويعيد النظام وأن يوجد التوازن بين العقل الانسانى وقلبه . ويجد كلمات بسيطة يعبر بها عن الصدق الصراح وهو أن الناس إخوة .

لذلك يوجه الشاعر اليونانى نداء إلى جميع ذوى الرغبة الحسنة فى أنحاء العالم ويسائلهم واثقاً أنهم سيحاولون الاجابة ، لكى يقوم على إجابتهم تعاون دولى للروح ، هذه الاسئلة :

أولا — هل تظنون أننا نعيش فى نهاية فترة تاريخية أم فى مبدأ فترة تاريخية ؟ وماذا تظنون الصفات المميزة لهذه الفترة ؟

ثانياً — هل يستطيع الأدب والفن والتفكير النظرى أن يؤثر فى الحركة الحاضرة للتاريخ أم هى تصور الأحوال القائمة فقط ؟

ثالثاً — إذا اعتقدت أن التفكير والفن يؤثران فى الحقيقة فإلى أية وجهة يجب أن يوجه التطور الروحى فى بلادنا ؟

رابعاً — ماهو العمل الايجابى الذى يستطيع أن يقدمه التفكير والفن إلى العالم فى ظنك ؟

خامساً — إلى أى مقدار يمكن أن يوجد الاتصال بين رجال التفكير وجمهور الشعب ؟ وماذا يمكن عمله لاتساع نطاق هذا الاتصال ؟

سادساً — ماهو الواجب الأول على الرجل من رجال الفكر أو على الفنان ؟ وكيف يساعد فى التعاون السلمى بين الامم ؟

سابعا — هل يكون عمليا أن تنشأ « دولية » للروح ؟ وإذا كان الأمر كذلك هل ترغب فى الاشتراك فيها ؟

تجربة بكيني

أقيمت تجربتان للقنبلة الذرية لكى يرى الخبراء مدى تأثير هذا السلاح الجديد ومايجره على الانسانية من ويلات . وقد كتب أحد المراقبين الخبراء مقالا فى مجلة « ناشيونال ريفيو » الانجليزية (عدد سبتمبر) يبسط فيه رأيه . ومن أهم ما جاء فيه أقواله :

فى ٣٠ يونيه ثم فى ٢٥ يوليه سنة ١٩٤٦ أجرت وزارة البحرية للولايات المتحدة تجربتى القنبلة الذرية اللتين انتظرها العالم فى لهفة. فى التجربة الأولى انفجرت القنبلة فى الهواء وهى على ارتفاع ألف قدم تقريباً، فوق أسطول مؤلف من ٧٧ قطعة موزع فى مساحة قدرها عشرة أميال. فغرقت نقالتان وانقلبت مدمرة، وأصاب قطعتين أخريين عطب كبير. وكانت الغواصة «سكيت» واقفة على مقربة من السفينة «نقادا» وهى التى صوبت إليها القنبلة فلم تكد تطفو. وكانت البارجة اليابانية «سكاوا» إلى جانب الهدف فطار ما فوق سطحها من أبنية. وكانت أقرب سفينة إلى مركز الانفجار حاملة الطائرات «أند بندانس» فكانت لا تزال عائمة، ولكن السطح الذى تقوم منه الطائرات وهو أقوى أجزائها طوح به الانفجار، وطوح معه بجميع الطائرات والدبابات التى وضعت فوقه، وقد وجد خرق فى جانبها كبير. وأصيبت البارجة «بنساكولا» بعطب فيما فوق ظهرها من منشئات. ولم تصب القنبلة البارجة نقادا وإن كانت قد صوبت إليها، ولكنها أطارت ساريتها. وكان مجموع السفن التى أصيبت بشئ من العطب نحو العشرين. أما «البرنس أوجين» وهى أحدث السفن الكبيرة بناء فلم تكد تصاب بشئ، مع أنها كانت قريبة من مركز الانفجار.

وفى التجربة الثانية انفجرت القنبلة تحت تحت الماء، وكان الأسطول مؤلفاً من ٨٥ قطعة فى مساحة قدرها عشرة أميال، وكانت السفن الكبرى كما كانت فى التجربة الأولى فى قطر دائرة قدره ميل من مركز الانفجار. وكان أكبر ما حدث من خسارة فى هذه التجربة غرق البارجة «أركنساس» فى التو، وغرق حاملة الطائرات «ساراتوجا» بعد سبع ساعات ونصف ساعة من الانفجار، وجنوح للمدمرة «هيوز» والناقلة «فلكون» وغرق البارجة اليابانية «ناجاتو» بعد خمسة أيام من الانفجار.

وكانت جميع السفن الكبرى فى التجربتين من الطراز القديم، ماعدا «البرنس أوجين» وقد جددت هذه السفن فى الحرب العالمية الثانية. ويجب فى تقدير نتائج التجربتين أن نحسب حسابا للأحوال التى أحاطت باستعمال القنبلتين؛ فقد كان البحر هادئاً والرؤية ميسورة، ولم تتخذ وسائل للدفاع أو الخديعة. فالاصابات تشهد بالقوة الفظيعة للقنبلة الذرية لأنها إصابات لا تحدث من انفجار أية قنبلة واحدة من أى نوع آخر، ولكنها كانت مع ذلك أقل بكثير من الاصابة التى حاقت بالأسطول الأمريكى عندما هاجمته الطيارات اليابانية فى ميناء بيرل.

ولا تزال تكاليف إنتاج القنبلة الذرية سرا محاطاً بالكتمان الشديد، ولكن مما لاريب فيه أنها سلاح يكلف مبلغاً باهظاً لا يكاد يصدق. وقد قيل إن تكاليف التجربة الأولى بلغت ١٧ مليونا و ٥٠٠ ألف من الجنيهات، ولكنها لا تشمل تكاليف القنبلة نفسها. ويختلف الباحثون فى تقدير تكاليف هذه القنبلة، فيقول بعضهم إنها تبلغ ٦ ملايين من الجنيهات. ويظهر أن هذا تقدير مبالغ فيه. ويقول البعض الآخر مثل مستر برنارد برودى أنها تبلغ ٢٠٠ ألف والراجح أن هذا الرقم ضئيل، وقد نلزم جانب الحيطة إذا قدرناها بمبلغ مليون من الجنيهات.

إن تكاليف كل سلعة أو كل سلاح تماثل تكاليفها بالنسبة لما تتطلبه من مجهود اجتماعى من الهيئة التى تقوم بصنعها. فاذا نظرنا إلى المجهود الاجتماعى التى أنفق على هاتين القنبلتين نجد أننا نحتاج إلى مجهود كبير جداً لكى نوقع خسائر فى السفن التى أصيبت فى تجربة بكينى أقل بكثير مما أحدثه اليابانيون فى ميناء

بيرل ، وكانت القنابل التى فتكت بالأسطول الأمريكى عندئذ فى تكاليفها ليست إلا جزءاً بسيطاً جداً مما تتكلفه القنبلة الذرية . وكان من الممكن فى مثل تجربة بكينى أن تهجم بعض سفن العدو فتصيب بقنابلها السفن الواقفة بغير دفاع ، وتقضى عليها بكلفة أقل من كلفة القنبلة الذرية . وكذلك كان يمكن لطائرات حاملة القنابل قادرة على اختراق دروع المدمرات أن تصيب السفن بخسارة عظيمة ، ربما كانت الخسارة أقل مما حدث بالقنبلة الذريه ، ولكنها بلا شك لا تقاس بها من جهة النفقات . وكان من المستطاع أن يحدث مثل ذلك فى التجربة الثانية .

إن تجربتى بكينى أثبتتا أن القنبلة الذرية وسيلة شديدة الخطر والقوة فى الهجوم ، ولكن هاتين التجربتين لم تثبتا قط أنه لا وسيلة للدفاع واتقاء شرها . بل هى تثبت قطعاً احتمال هذا الدفاع .

ولقد تبين من تقرير رئيس لجنة التقدير أن الخطر الأساسى للقنبلة ليس هو فى الحرارة وتفريغ الهواء بقدر ماهو فى الاشعاع . ولكن الاشعاع من الممكن معالجته ، فالراديوم مستعمل منذ سنوات عدة فى المستشفيات وأمكن مجانبة آثاره الاشعاعية . ونحن نعلم أن هنالك معادن لا تتأثر بالنشاط الاشعاعى ، ولو استعملت ألواح من هذه المعادن فى السفن لأمكن تجنب أخطارها . وإذا استعمل رجال السفن ملابس وأقنعة واقية أمكن تجنب هذه الأخطار ولو أصيبت السفن بعطل ، فاذن الدفاع مستطاع .

ومما يلاحظ أن سفينة حديثة مثل «برانس أوجين» لم تكد تمس بسوء . وهذا النوع من السفن صنعه الألمان فى سنة ١٩٢٩ ، وسموه سفن الجيب ليتهربوا من شروط معاهدة فرساى التى كانت قائمة عندئذ والغرض منها الاقتصاد فى الحمولة ، ولكنها بذلك تزيد فى قوة الانشاء ، وفيها ركبت الألواح الحديدية بواسطة الكهرباء من غير مسامير ، وبذلك زادت قوة ؛ لأن خرق المسامير فى الصلب مما يضعفه .

ومن أهم نتائج تجربتى بكينى أنها تدلنا على وسائل حماية المدن ؛ فقد ثبت أن القنبلة الذرية تصيب بالحرارة وتفريغ الهواء والاشعاع . وقد ظهر أن الأبنية المصنوعة بالاسمنت المسلح تقاوم تفريغ الهواء ولو أن سكانها قد يصابون بالاشعاع . وأن المخابىء تتحمل تفريغ الهواء ، ولذلك إذا استطعنا أن نزود الناس بالملابس والأقنعة الواقية فاننا نستطيع أن ننجى حياتهم ، وإن لم نستطع أن ننجى دورهم . فاذن يمكن أن نتغلب على الاشعاع بالملابس الواقية والاقنعة ، كما تغلبنا على الغازات السامة . وحينئذ تفقد القنبلة الذرية ٩٠٥./. من فظاعتها الحقيقية

وتدل تجربة بكينى أن خير الطرق للوقاية من القنبلة الذرية هو بناء قوى من الأسمنت المسلح لا منافذ فيه مصنوع بحيث يقاوم تفريغ الهواء ومعقم بحيث لا يضره الاشعاع وجميع فتحاته الضرورية غائصة فى جوف الأرض ، وجميع الانابيب والأسلاك التى تنقل القوى غائصة أيضاً فى جوف الأرض . ويجب أن يكون هنالك قدر احتياطى من الهواء المضغوط يمكن أن ينتفع به ساعات إن لم يكن أياما . وإذا كانت إجراءات الوقاية تكلف كثيراً أو غير عملية فيكون من الضرورى جداً فى الصناعات الحيوية أن توزع على مراكز متباعدة .

والآن يعرض هذا السؤال : هل يكون من المستطاع لدولة منظمة كل التنظيم أن تتغلب على دولة منظمة كل التنظيم بالقنبلة الذرية ؟ الجواب هو هذا : إننا نقصر فى تقدير المجهود الاجتماعى الهائل الذى يتطلبه مثل هذا العمل ويظهر أن خبراء القنبلة الذرية

يكررون الخطأ الذى وقع فيه خبراء الجو فى السنوات الواقعة بين الحربين الماضيتين ، إذ ظنوا أن بضع قنابل وطيارات تستطيع أن تلقى الفوضى فى دولة منظمة كل التنظيم . فتكاليف إنتاج القنبلة باهظة وعملها معقد ، حتى إنه ليبدو أن من الهزل حقاً أن تعتقد أن الولايات المتحدة مثلا تستطيع أن تتغلب على روسيا فى حرب إذا ابتدأت ببضع قنابل من هذا النوع ، فان من المفروض أن روسيا تتخذ كل الوسائل الوقائية التى ذكرت من توزيع صناعات الحرب الأساسية ، وصنع مخابىء معقمة ضد الاشعاع ، وتوزيع الملابس والأقنعة الواقية ، وحينئذ تكون القنابل الذرية أقل أثراً من الوجهة الحربية من قنابل الألمان فى الحرب الماضية . ولا يكون هنالك احتمال بأن تجد أمريكا الوقت لانشاء قواتها الجوية للهجوم دون تدخل ، كما حدث فى مهاجمة ألمانيا ، ولا تستطيع أمريكا أن تتوسع فى عمل قنابل ذرية إلا إذا وجهت المجهود الأعظم للشعب الامريكى نحو هذا الغرض .

ومن غير المحتمل فى ابتداء حرب جديدة أن يكون لدى الفريقين العدد الكافى من القنابل الذرية نحو المدن فلا تكون هنالك فائدة حربية جدية فى هذا النوع من السلاح ، ففى الحرب الأخيرة ألقى الانجليز والأمريكيون على ألمانيا مليونين وسبعمائة الف طن من القنابل تكاليفها ١٥ الف مليون من الجنيهات فدمروا أو أصابوا ثلاثة ملايين وستمائة الف من المساكن فصار سبعة ملايين وخمسمائة من الناس بلا مأوى ، ومع ذلك استمرت ألمانيا تقاتل ولم تضع السلاح إلا بعد هزيمة جيوشها هزيمة ساحقة .

ومن الراجح أن تستعمل القنابل الذرية للهجوم على أهداف ذات أهمية حربية لا لمجرد الارهاب ، وقيمتها حتى فى هذا الأمر مشكوك فيها . ومن تجارب الحرب العالمية الأولى أن رسخت فى الأذهان فكرة الدفاع الهائل الذى لا يمكن التغلب عليه وهى متمثلة فى خط ماجينو ، ويخشى أن ترسخ فى الأذهان بعد الحرب الاخيرة فكرة الهجوم الذى لا يغلب ممثلة فى القنبلة الذرية . والفكرة الثانية لا تقل خطأ وخطراً عن الفكرة الأولى . فالحرب تكسب بالعقول والجهود والتضحية لا بالمذاهب والحيل

رأى فى هنرى ميللر

هنرى ميللر كاتب أمريكى عاش فى فرنسا ونشر كتبه فى فرنسا ، وهو من أبرز الكتاب الأمريكيين وإن كانت كتبه محرمة على الجمهور الأمريكى ، لما يلجأ إليه فى وصف الغرائز الجنسية من الاسهاب والاطناب . وقد كتب الناقد فاولى مقالا فى مجلة « الآداب » الفرنسية *Lettres* (عدده) نقد فيه الكاتب الأمريكى . ومما جاء فيه قوله : إن أبرز صفة فى مؤلفات هنرى ميللر هى العنف ، وليس هذا العنف بادياً فيما يقوله بقدر ما هو ظاهر فى طريقة هذا القول . ولقد انتقل عنف العاطفة عنده إلى أسلوبه فصار عنيفاً وصارت لغته عنيفة . ولقد قال فى كتابه « حكمة القلب » إنه لا يعترف بالكلمات وإنما يعترف باللغة التى هى أبعد من مجرد الكلمات ، ففن الكتابة عنده نوع من الاحتفال الكامل ، تجمع فيه أجزاء التجارب المتناثرة فى مجموع واحد ، ولكن هذه العناصر لا تنظم بحيث تفهم منطقياً ، وإنما هى تفهم أو تحقق بالغريزة ، وتظهر فى كتابات ميللر الموهبة التى تأتى بنت وقتها . فرغباته

فى الحاضر لاتتحقق مطلقاً ولذلك هى لا تصير ذكريات تمثل رغبات فى الماضى . وهذا هو السبب فى أن نظرته للحياة هى نوع من التجربة دائم غير منقطع ، وهذا هو الذى يجعل فى مؤلفاته رعدة دائمة . ولتواتر الحياة اليومية لا يمكن تعريفه أو تفسيره بالقوانين التى تعبر عنها ألفاظ الأزمنة والأنواع والفكرة .

إن قراءة الرسائل التى تبودلت بين هنرى ميلر وميكل فرانكل ، ونشرت تحت عنوان هاملت ، لتثبت تماماً أن ميلر هو المثل الأكبر للمؤلف الذى يمثل هذا العصر ، أى الكاتب الذى يؤدى عمل الساحر والنبى ، ونجد سلفاً له فى رامبو ، ويمثله فى إنجلترا د. ه. لورنس ، ومما له دلالة أن هنرى ميلر يعتبر الشاعر رامبو من أكبر الكتاب ، وأنه أخذ فى كتابه دراسات عن رامبو ولورنس .

ومن صفات هذا الفنان الجديد ، أنه يحب دائماً التجارب ويقبل عليها فى اندفاع ؛ فهو يحب أن يحيا حياة أبطاله . ولقد دعا رامبو نفسه بالسائح والفنان وقاطع الطريق والكاهن ، وكتب لورنس روايات وقصصاً ومقالات وأشعاراً ومسرحيات وكتب سياحة وفلسفة . وكتب هنرى ميلر عن حياته كما كتب روايات وفلسفة ونقداً ، وربما نراه فيما بعد شاعراً .

إن هذا العصر الجرىء المتنازع قد خلق بالرغم منه فنانين متحدين ومنتصرين مثل بروست وجويس ولورنس وهنرى ميلر ، ساروا فى طليعته وسبقوه وتقدموا به أكثر من الزعماء الذين يصفق لهم الجمهور . وقد عمل هؤلاء الكتاب فى كتبهم أمرين ؛ فقد سجلوا تاريخ حياتهم وسجلوا تاريخ عصرهم . ولقد اتهموا بأنهم ابتعدوا عن عصرهم ولم يهتموا لسياسة الوقت الحاضر ، ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فهم لم يطمحوا إلى أن يتحكموا فى جشع عصابة العالم بنظرياتهم الفلسفية ، بل قبلوا العالم كما هو ، وبذلك استطاعوا أن يروا قوات الشر كما استطاعوا أن يروا قوات الخير .

إن عنوان كتاب هنرى ميلر « حكمة القلب » هو مفتاح لواجب الفنان ، وهو يقول فى موضع من هذا الكتاب : « إننا فى قبضة قوات شيطانية خلقناها نحن أنفسنا من مخاوفنا وجهلنا » وهذا هو سر لغة الرجل الحديث .

لقد رأى ميلر بنظرته الثاقبة العناصر المتنافرة فى هذا العالم بوضوح ، حتى إنه عمل على التحرر منها ؛ ولذلك بلغ فى مؤلفاته نهاية الفجور ، فمنعت كتبه فى الولايات المتحدة ، ولكن هذا العنف فى لغته كان ضرورياً لاصلاح الضمير الأميركى فيما يتعلق بالشر وليحرر نفسه من تقاليد الأدباء فى أوربا وأمريكا .

يقول ميلر فى كتابه «حكمة القلب» : إنى جائع دائماً ، ويلاحظ أن الجوع الغذائى والجنسى هما من نوع واحد ، أما الجوع الروحى فهو من نوع آخر ، فتجد فى مؤلفات ميلر الجوع الجنسى الذى يعبر عنه بالاتجاه إلى الفحش فى القول ، وهو جوع جسدى ولذلك كان فيه طعم الموت وطعم الانحلال وفيه رمز الكوارث . والمرأة هى غرض هذا الجوع ، ولكن ميلر أثبت أكثر من مرة أنه لا يشعر بجوع نحو المرأة .

ولقد أوجدت الرغبة فى المرأة شعوراً كاذباً بالتسلط ، وكان لورنس أول من حمل على هذا الشعور وكان لورنس مخلصاً للحب ، أما ميلر فهو مخلص للحياة . ولكن الاثنين يخشيان دور المرأة فى الحياة الحديثة ، ويخشيان أن تعمل على اغتصاب مركز الرجل . وعلى هذا الخوف قامت نظرتهما للمرأة : فلورنس يعتبر الزوجة إن هى إلا عشيقة ، وميلر يعتبرها عاهرة . وهما فى هذا قد أوجدا لها موقفاً

غير طبيعى بقدر للموقف الذى خشيناه .
وهنرى ميللر يعلم أنه لا يمكن أن نجد حلا للجوع الجنسى بغير أن نجد حلا للجوع الروحى .
وهو يكتب فى كتابه « عالم الجنس » فيقول :
إنى رجل متدين ، وقد كنت دائما متدينا !
وفى كتبه عبارات كثيرة تدل على صحة تلك النزعة وهذا القول ، فهو ينظر نظرة المتصوف إلى الحب . وكأنه يرى قدرة الله فى الحب .

ظهر حديثا

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم مدرس بجامعة فاروق الأول (دار الكاتب المصرى)

الأستاذ يوسف كرم عالم معروف فى الأوساط العلمية بجامعتى فؤاد وفاروق بتوفره على البحث ، والاستقصاء فى فلسفة القرون الوسطى . وهو فى هذا الكتاب يضع لقراء العربية تاريخاً للفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، وهو تاريخ يكتسب من غزارة مادة المؤلف وواسع اطلاعه على موضوعه بساطة فى التعبير وجلاء لموضوعات الكتاب ، بحيث صار نفع هذا الكتاب لا يقتصر على الباحثين فى الفلسفة والمتعلمين من التلاميذ ، بل يشمل جميع المتأدبين والمثقفين الذين يريدون الوقوف على خلاصة الآراء الفلسفية التى كانت سائدة فى تلك الفترة .

ويقع هذا الكتاب فى ٢٦٦ صفحة من القطع المتوسط . وقد قدم له المؤلف بمقدمة لخص فيها الأدوار التى مرت بها فلسفة العصور الوسطى من تكوين واكتمال والانحلال ، فابتدأ بالكلام عن نقلة الفلسفة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، ثم عقد فصلا عن حياة القديس أوغسطين ومنهجه الفلسفى وآرائه فى مختلف الموضوعات العقلية والالهية ، وتكلم عن ديونيسيوس وبويس شارحا مذاهبهما الفلسفية . ويعتبر هذا القسم الخطوة الأولى فى فلسفة العصور الوسطى .

وفى الباب الثانى عالج تاريخ الفلسفة من القرن التاسع إلى الثالث عشر ، أى منذ النهضة فى المدارس وتكاثرها فى عصر شرلمان ، فتكلم عن جون سكوت اريجنا ومذاهبه ، ثم تناول الجدليين واللاهوتيين وأشهرهم روسلان وبطرس دميانى ولانفران والقديس أنسلم .

وفى القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذى ابتدأت فيه الحضارة الأوربية فى الازدهار ، فتكاثرت المدارس ونشأت الجامعات وانتشرت منتديات العلم ، اتجه المفكرون إلى البحث ، فكثر المترجمون الذين أخذوا فى نقل مؤلفات الفلاسفة اليونانيين أولا عن طريق اللغة العربية ثم عن طريق اللغة اليونانية رأسا ، واهتموا بنوع خاص بدراسة فلسفة أفلاطون وأرسطو ، وظهر كبار المفكرين من أمثال دوفرنى وهاليس وبونافنتورا وروجر بيكون والقديس ألبرت الأكبر ، ثم القديس توما الأكوينى وقد درس المؤلف نظرياته دراسة وافية دقيقة .

ثم تكلم عن انحلال الفلسفة فى القرن الرابع عشر ، بعد أن حاول الفلاسفة فى القرن الثالث عشر التوفيق بين العقل والدين ، فنرى التشكك فى العقل والدعوة إلى الاعتصام بالدين وحده ، ونرى التشكك فى الدين والانسياق إلى الالحاد بحيث يبدو القرن الرابع عشر على حد وصف المؤلف « سلبياً هداما » .

على أن هذا القرن على ما أوضحه المؤلف له وجهة « إيجابية إنشائية بالاضافة إلى المستقبل ، فان تخليص الفلسفة من الدين أعادها إلى ما كانت عليه عند اليونان » .

ثم شرح المؤلف نظريات فلاسفة ذلك العصر . وختم كتابه القيم بفهرس للمراجع وقاموس للأعلام .

والكتاب مطبوع طبعة أنيقة معتنى بها وإن لم يسلم من بعض هنات مطبعية قليلة .

ثورة سنة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ . فى جزأين للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك (مكتبة النهضة المصرية)

نحن حقيقة فى حاجة شديدة إلى الكتب التى تبحث فى التاريخ المصرى لاسيما فى التاريخ المصرى الحديث والمعاصر . فلقد نجد فى تاريخ مصر القديم الآلاف من المؤلفات الاوربية التى تبعث لنا حياة تلك العصور فى صورة واضحة . وحاول بعض المؤرخين والبحاث فى الآثار القديمة وضع مؤلفات باللغة العربية عن تلك العصور تسد شيئاً كبيراً من النقص فى المكتبة العربية ،ونذكر من أقومها مؤلفات العالم سليم بك حسن . كما أن فترة التاريخ المصرى الاسلامى وجدت من يعنى بها من مؤرخين أوربيين وشرقيين . ولكن التاريخ الحديث ، لاسيما فى الفترة التى تلت الاحتلال الانجليزى ، لم يكتب من وجهة قومية . فأكثر المؤلفين الاوربيين متأثرون بما كتبه الانجليز دفاعاً عن موقفهم فى البلاد ، وهم لا يحفلون كثيراً بالوقوف على وجهة النظر المصرية ، وهم ينظرون إلى الماديات السطحية التى يظنون أن الانجليز أول من أدخلها ، غير مهتمين للنشاط الحيوى الذى كان بادياً قبل دخول الانجليز ، هذا النشاط الذى قضوا عليه تحقيقاً لأهوائهم .

لذلك عندما أخذ عبد الرحمن الرافعى بك فى وضع سلسلة الكتب التى أخرجها عن تاريخ مصر الحديث فانه سد فراغاً كان يجب أن يسده أمثاله من رجال البحث والنظرة القومية .

إلا أنه فى هذا الكتاب أقدم على عمل أشق مع عظيم نفعه ؛ فهو قد تناول فترة من التاريخ المعاصر عاش فيها واشترك ، أكثر الاحياء من رجال هذا الجيل ، لاسيما الشيوخ منهم . ولا ريب فى أن كتابة التاريخ المعاصر من أشق الأعمال ، إذ لا يزال المؤرخ تضطرب فى نفسه الأهواء ، ولا يزال متأثراً بالحوادث التى اشترك فيها ، لاسيما إذا كان دوره فى ميدان الحياة بارزاً مثل عبد الرحمن بك الرافعى الذى كان ولا يزال من أظهر العاملين فى الحياة السياسية ، ومن الذين ساهموا فى تلك الفترة مساهمة كبيرة على مبادئ الحزب الوطنى .

عالج المؤلف فى الجزء الأول من كتابه موضع مصر فى أثناء الحرب الأولى (سنة ١٩١٤ — ١٩١٨) وفى هذا القسم نجد وصفاً لاعلان الحماية ، وما كان له من أثر فى البلاد وما ترتب عليه من تغير لمركزها ، ونجد جميع الوثائق المتعلقة بذلك . ثم أخذ المؤلف يتكلم عن أسباب الثورة وتأليف الوفد المصرى ، ومقدمات الثورة المصرية وابتدائها وانتشارها إلى الأقاليم ، وما اتخذته السلطة الغاصبة لمواجهة الثورة . وفى الجزء الثانى يتكلم عن انقلاب هذه السلطة إلى تهدئة الخواطر وعدم رضا الأمة بالاجراءات الوقتيـة ، وما كان من محاكمات للمتزعمين للحركات الثورية . ثم تكلم عن لجنة ملنر ومفاوضاته واستشارة الأمة فيها . ثم اعتراف البريطانيين بأن الحماية علاقة غير مرضية . ثم أبدى حكمه فى الثورة هل هى نجحت ، وفيم نجاحها ، وهو يرى أنها قد نجحت فى حمل انجلترا على إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، وكان لها الفضل الأكبر فى تقرير النظام الدستورى فى البلاد أما النهضة الاقتصادية فان الثورة لم تعمل لها ولم تتجه إليها ، على أن الروح الوطنية التى انبعثت خلالها أدت إلى اتجاه الجمهور من تلقاء نفسه إلى معاضدة النهضة الاقتصادية وإلى متابعة البحث الاقتصادى .

وكان للثورة فضل فى النهضة الاجتماعية ، فتألفت الجماعات والأندية الرياضيــة وفرق الكشافة ، واشترك النساء فى العمل القومى . وكان لها أثر فعال فى النهضة التعاونية ونهضة العمال ، فتألفت النقابات وتعددت . فروح الثورة إذن على قول المؤلف الجليــل « قد طافت بالمجتمع على اختلاف طبقاته وبيئاته واستثارت عوامل الوعى والتقدم » .

واختتم المؤلف كتابه بمجموعة من الوثائق التاريخية ، أهمها أنه عدد العهود التى قطعتها انجلترا على نفسها باحترام استقلال مصر ووعدها بالجلاء وهى ستون عهدا ، غير العهد الصريح الأخير المقترن بوعد الجلاء من البر والبحر والجو ! ثم جاء بنص معاهدة الآستانه سنة ١٨٨٨ ثم النصوص الخاصة بمصر فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ وفى نهاية المجلد الثانى فهرس قيم هجائى للكتاب .

وإنا لنرجو أن نرى فى المستقبل القريب العشرات من الكتب التى تبحث فى التاريخ المعاصر من نواحى عدة ومن رجال متأثرين بمختلف الأحزاب ، كما نرجو أن يعمل الزعماء على نشر مذكراتهم عن تلك الثورة التى اشتركوا فيها أو راقبوها ، حتى نترك للأجيال القادمة تراثا يمكن أن يحكموا منه حكما نزيها على هذه الثورة وما كان لها من آثار فى مستقبل البلاد

حسن محمود

تاريخ حكماء الاسلام : تأليف ظهير الدين البيهقى (مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، بتحقيق الأستاذ محمد كرد على)

لا يزال المجمع العلمى العربى بدمشق قائما على رباطه ، دائبا فى نشاطه ، ولا تزال مجلته ومطبوعاته تضيف إلى العربية ثروة وتحيى من التراث العربى أثراً ، ولا يزال رئيسه الكبير السيد محمد كرد على ، عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة ، ماضيا على سنته فى الجهاد المتصل والدأب الساهر لتحقيق أمجاد العربية وتاريخ الاسلام . وهذا كتاب قديم جديد ، ألفه مؤلفه منذ نيف وثمانمائة عام ليكون تماماً على كتاب « صوان الحكمة » الذى ألفه أبو سليمان المنطق السجستانى من حكماء القرن الرابع للتعريف بمن مر به ذكرهم من حكماء الاسلام ، فأراد البيهقى من بعده أن يكون كتابه له تتمة ووفاء وتكملة ؛ وقد كان ذلك شأن علماء العربية منذ أخذوا فى وضع المؤلفات وتدوين العلماء : لا يزال اللاحق منهم يبنى على أساس سابقه ليكون عمله حلقة فى سلسلة العلم المتصلة الممتــدة على توالى القرون ، إيماناً بالعلم واعترافاً بجهد من سبق .

ولم يكن اسم كتاب البيهقى هذا هو ذلك الاسم الذى اختاره له محققه ، وإنما وجدت هذه التسمية على النسخة المخطوطة التى نقل عنها هذا المطبوع ، وهى مخطوطة حديثة نسخها كاتبها فى منتصف القرن الثانى عشر — منذ قرنين وبضع عشرة سنة — فارتضاه المحقق عنواناً للكتاب لصدق دلالته على موضوعه ؛ وقد جاء ذكر هذا الكتاب فيما ترجم القدماء لمؤلفه باسم « كتاب تتمة أصول الحكمة » فلعل هذا هو اسمه الحق ، أو لعله كذلك وصف من أوصافه ؛ إذ ألفه — كما قلنا — ليكون تماماً على كتاب « صوان الحكمة » ، فليس ممتنعا أن يشتهر بصفته هذه عند القدماء حين يغيب اسمه .

وقد أتم الأستاذ كرد على تصحيح هذا الكتاب وتحقيق أصوله قبل أن يصل إلى علمه أن نسخة منه قد طبعت فى لاهور مع ترجمة له بالفارسية، على أن ذلك لم يمنعه من الانتفاع بهذه الطبعة فى المقابلة وتصحيح بعض الأجزاء فى أثناء الطبع، كما ثبت ذلك فى المقدمة وفى هامش بعض الصفحات.

وقد ترجم البيهقى فى كتابه هذا لطائفة ممن عرف من أهل الحكمة. وللحكمة فى عرف القدماء مدلولات شتى تنتظم طوائف من العلوم والفنون، وإن يكن أقربها إلى الفهم هو الفلسفة والهيئة وعلم الحقيقة. وتكاد تراجم هذا الكتاب تكون مقتصرة على بعض حكماء خوارزم وخراسان وفارس والعراق وما جاور تلك البلاد، فلم يتحدث عن أحد فى الشام أو فى مصر أو المغرب أو الأندلس. وأكثر تراجمه مختصرة لا تكاد تبرز صورة المترجم له، ولا تحقق اسمه فى بعض الأحيان؛ على أن فيها مع ذلك فائدة يعز نشدانها فى مكان آخر.

وقد قدم الأستاذ كرد على للكتاب بمقدمة وافية للتعريف بالمؤلف وكتابه، ووازن بينه وبين غيره من الكتب المؤلفة فى بابه، وخص فى هذه الموازنة كتاب طبقات الحكماء للقفطى بمزيد من فضله، ثم اختتم هذه المقدمة المفيدة بكلمة الأستاذ السيد محمد المبارك: «تصحيح الكتب القديمة أولى من الاشتغال بتأليف كتب جديدة». ولعل من حق أن أزيد على كلمة السيد المبارك كلمة أخرى فأزعم أن تصحيح كتاب قديم عمل يقتضى من الجهد والمشقة والدأب أكثر مما يقتضيه الاشتغال بتأليف بضعة كتب جديدة!

ولست أشك أن الأستاذ كرد على قد بذل جهداً وعانى مشقة فى تحقيق هذا الكتاب وإخراجه على هذه الصورة، يدل على ذلك مقدمته وتعليقاته وما ألحقه بالكتاب من فهارس وافية للأعلام والأماكن والشعوب والموضوعات وغيرها. وأيسر هذا الجهد كثير.

ديوان ابن عنين (مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، بتحقيق السيد خليل مردم بك)

وهذا أثر جديد قديم كذلك من آثار جهاد المجمع العلمى العربى بدمشق لاحياء تراث العربية والاسلام، هو ديوان الشاعر شرف الدين بن عنين الأنصارى الدمشقى من مخضرمى شعراء القرنين السادس والسابع لعهد دولة بنى أيوب؛ وقد توفر على إخراجه فى صورته هذه القشيبة عالم أديب من علماء دمشق، وفاء بحق الشاعر الدمشقى الذى عاش ثمانين حجة يتغنى بمفاتن دمشق الخالدة، فكان حقاً على كل دمشق أن يذكر ما بينه وبين هذا الشاعر من آصرة القربى ولحمة النسب وروابط العاطفة.

على أن ابن عنين لم يكن شاعر دمشق وحدها، وهو الذى يقول عنه ابن خلكان فى الوفيات — وكان من معاصريه —: «... خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، ولا كان فى أواخر عصره من يقاس به». وصدق ابن خلكان وإن لم يصفه بكل ما يستحق أن يوصف به، وحكم المتعاصرين بعضهم على بعض لا وسط فيه؛ فاما غلو وإما تقصير.

وكان لابن عنين بين شعراء عصره نهج وحده، فقد كان من أهل الترف والسرف فيما يبدو، فلم يصانع الحاكمين رجاء لعطاياهم، بل لم يتحرج عن سبهم والازراء عليهم ونسبة كل نقيصة إليهم، حتى باعدوه وتجافوا عنه، وحتى نفاه صلاح الدين الأيوبى عن دمشق،

فمضى على وجهه تتقاذفه البلاد عشرين سنة — فيما يرجح السيد خليل مردم بك محقق الديوان — ثم استقرت به النوى فى دمشق ، ووزر لأميرها فأحكم الوزارة ونهض بأعبائها نهوض ذوى السياسة والتدبير ، وإن كانت طبيعته الفنية قد حملته مرة — أو أكثر من مرة — على طلب الاقالة فلم يجب إليها .

وكان فى طبعه الدعابة والسخرية وعدم الرضا بالأوضاع القائمة أو التقيد بالتقاليد ، وكان فى رأسه عقل أديب وفى قلبه وجدان شاعر ؛ وما كان شيء من هذه الصفات ليؤهله للوزارة ، ولكنه وليها فأحسن الولاية والسفارة والتحدث باسم الأمير والاستماع للمتحدثين إليه باسمه . وكان هجاء مر الهجاء مقذعا ؛ فمن العجيب مع كل ذلك أن يكون من أهل السياسة والتدبير والقصد فى الكلام على ما تقتضيه الأوضاع الحكمية !

وليس هذا الديوان الذى يخرجه السيد خليل مردم بك هو كل شعره ، ولكنه شيء مما وقع له من شعره ؛ فقد كان ابن عنين ضنيناً بشعره على الرواة ، فضاع أكثره ولم تبق إلا هذه القلة فى ديوان جمعه بعض معاصريه من أهل دمشق ، فتداولته أقطار الأرض ، وذهب سائر شعره مع الزمن .

على أن هذه القلة الباقية فيها كل الغناء للدلالة على خصائص هذا الشاعر الذى عاش فى أحفل حقبة فى تاريخ المشرق بالحوادث فلم تنفعل بها نفسه ولم يظهر أثرها فى شعره ؛ لأنه كان من الايمان بنفسه فوق الحوادث والأحداث التى يزخر بها عصره ، فجاء شعره صورة صادقة التعبير عن نفسه وعن الجماعة القريبة التى يعيش فيها ويرتبط إليها ارتباط المحبة أو ارتباط المبغضة ، وأغفل ما دون ذلك من حوادث الأيام والناس !

ولكنه — بما له وما عليه — شاعر من طراز جيد ، له ديباجة ورونق وروح وعاطفة . وليس هذا بقليل .

أى جميل أسدى السيد خليل مردم بك إلى قراء العربية باخراج هذا الديوان فى صورته هذه الواضحة المبينة !

على أن جهد السيد خليل مردم بك لم يقتصر على تحقيق نصوص الديوان ومقابلة بعضها على بعض فى ثمان نسخ مخطوطة منه لا تصلح واحدة منها للاعتماد عليها أو الاعتداد بها ، فهذه الرسالة التى قدم بها للديوان فى بضع وأربعين صفحة منه هى وحدها عمل أدبى يستحق التنويه والاشادة ، إلى هذه التعليقات الثمينة الضافية ، وتلك الفهارس المنظمة فى آخر الديوان المطبوع .

التيار : ديوان شعر للأستاذ احمد الصافى النجفى (مطبعة دار اليقظة العربية ، بغداد)

سأحاول فى هذه المرة تجربة لعلى أبلغ بها بعض ما أريد فى التعرف إلى شاعر ذائع الصيت منذ بعيد ، سمعت به ولم أقرأ له ، وعرفت بعض رأى الناس فيه ولم يكن لى فيه رأى ، حتى ألقى إلى ديوانه هذا الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم ، فجعلت شعره سبيلى إلى التعرف عليه . وإذا صح حدسى فهذا شاعر صادق التعبير عن نفسه وعما حوله من ظروف الحياة ، وما يضطرب فى مرأى عينيه من صور الحوادث والناس ، وما يختلج فى قلبه من صور الوجدان والعاطفة .

وليس هذا الديوان هو كل شعره ، ولا أكثره ، ولكنه طائفة منه رغبت إليه وزارة المعارف العراقية أن تقوم على طبعها ، تقديراً له وإعجاباً به ، فدفعتها وزارة المعارف العراقية إلى لجنة الترجمة والتأليف والنشر فى

بغداد فأخرجتها ديواناً يصور صاحبه تصويراً صادقاً كأن قد عرفته وجلست إليه واستمعت لحديثه واطلعت على مكنون صدره .

وقد قدمت القول بأنى لا أعرف ناظم هذا الديوان ، وإن كان اسمه فى أذنى منذ بعيد ، فكل ما أتحدث به عنه بعد فهو مما استنبطته من ديوانه هذا الصغير الذى لا يتجاوز بضعا وثلاثين ومائة صفحة . فان طابقت صورته التى أصفها بعد ، صورته الحقيقية التى يعرفها الناس ويرونها رأى العين ويستيقنونها يقين المشاهدة ، فهو إذن شاعر صدق ، وما أقل الصادقين فى شعراء هذا الجيل ! وإن خالفت الصورة فلست أحب أن أنفى ما وصفت به شعره من صدق الاحساس ولكننى أتهم نفسى .

فهو كما يصفه ديوانه شيخ ضئيل عليل ينوء كاهله بما حمل من عبء الليالى ، أشيب الرأس شاب الفطرة والنظرة ، فيه كثير من الاعتداد بالنفس ، لا يأبه بما تواضع عليه الناس من تقاليد ، إلى شعور قوى بالحياة وعطف شديد على الأحياء ، بادى الدمامة ، قديم الزى ، مغبر النعل من طول السفار ، أفاق له فى كل أفق وطن ، خفيف الظهر ليس له زوج ولا عيال ، يحمل من هم نفسه ومن هموم الناس عبئا يثقل كاهله ، متهم فى دينه عند ذوى الحفاظ ، متهم فى دنياه عند أهل الترف ، يتغفله أهل الفطنة وهو يسخر منهم ، يغشى المساجد ولا يراه الناس مصليا ، ويرتاد الحانات ولا يذوق المدام ، خل وإن لم يتزوج ، أب وإن لم يولد له ، يطيع دواعى السفر ولا يزال يحن إلى وطنه ، سخى جواد ، وهو من العدم والاملاق فى حاجة إلى من يجود عليه ، حريص على الحياة مؤمن بها وإن لم يجد فيها خيراً يستحق أن يحرص عليه .

ذلك هو الشيخ أحمد الصافى النجفى الدمشقى البغدادى الحموى الزحلاوى ، إلى ما شئت من أوصاف أخرى ، وتلك هى صورته كما أراد أن يرسمها لنفسه ، أو كما بدت لى من خلال ديوانه . أهى صورته كما يعرفها الناس أم تلك صورته فى عينى أنا وحدى ؟ فان كانت الأولى فما أصدقه شاعراً يحسن التعبير عن نفسه وعما حوله ، وإن كانت الثانية فما يرضينى أن تكون لى بها صورة أخرى ، لأظل على يقينى بأنى أملك من هذا الديوان الذى فرغت من قراءته الساعة صورة الصديق الذى أصفيته حبى منذ عرفته فى ديوانه ولست اطيق أن أفقده !

أنا أعطيتكم لنفسى مرآ ... ة ونفسى تشع من ناظريا
نظر الناس لى فحاروا بأمرى ... وأنا مثلهم بأمرى حائر
أنا إما ألا أكون كغيرى ... شاعراً أو أكون وحدى الشاعر

قلت إن هذا الشاعر لا يأبه للتقاليد فى الحياة ولا فى الفن . أما فى الحياة فلأنه يعيش كما يشتهى ، أو كما يرى لنفسه ، فى طعامه وشرابه وزيه وما يضطرب فيه من ألوان العيش . وأما عدم اعتداده بالتقاليد فى فنه فآية ذلك ظاهرة فى كل مقطوعة من مقطوعات شعره التى تزيد على ثمانين ، قد تحررفيها من لوازم كثيرة يلتزمها الشعراء فى لغة الأداء وفى أسلوب الشعر وفى موضوعه . ولقد تقرأ قصيدة واحدة من شعره فتعيب عليه لغة أقرب إلى العامية المبتذلة وعبارات مما يجرى على ألسنة سواد الناس ، أو تسيل على أقلام كتاب الصحف اليومية ، ولكنك لا تكاد تمضى فى قراءة شعره مقطوعة بعد مقطوعة حتى تألف

هذا الأسلوب الذى كنت تبتذله حين تستيقن أنه لم يصطنعه عجزاً وإنما اصطنعه إيثاراً لحرية التعبير عن كل ما يختلج فى نفسه من ألوان الوجدان ، لا يريد أن يتقيد فى شىء من ذلك بأسلوب خاص ولا لغة خاصة ، وليس يعنيه الاطار الذى يمسك الصورة بقدر ما يعنيه صدق التعبير فى الصورة نفسها . قد يكون هذا عيباً فى الشعر ، لو خلا منه لكان أكمل وأحلى وقعاً فى الأذن وأثراً فى النفس ، ولكنه على أى أحواله أحسن كثيرا من بعض ما نسمع من الشعر الفخم الضخم فى ألفاظه ومبانيه على خلو من المعنى وفقر فى الاحساس .

وهذه النزعة الحرة التى ترد إليها لغته وأسلوبه فى الأداء وموضوعاته هى جزء من طبيعة الشاعر فيما يبدو . اقرأ له المقطوعة التى جعل عنوانها «أكل الحرام» ص ١٢٦ :

يممت مثل ذوى الخلاعة حانة ... ووضعت أقداح المدام أمامى
قربتها منى وإن لم أحسها ... حتى أشوه سمعتى ومقامى
حتام أعبد سمعة وهمية ... فكأنها صنم من الأصنام
وغدوت حراً مثل قومى عائثاً ... لما صبغت الصيت بالآثام

ظمئت كؤوس القوم حيناً وارتوت ... حيناً ، وجامى طول ليلى ظامى
والناس حيناً يضحكون تعجباً ... منى وحيناً من جمود مدامى
تهامسون علام جئت لحانهم ... أو ما نهتنى جبتى وحزامى
هـذا يقول لخله : ذا متق ... فيجيبه بل ذا من الأنعام
كفرت بين الشاربين وقبل ذا ... كفرت بين مشايخ الاسلام
عفت الذين قد اتقوا لقيودهم ... فاذا قيود الشاربين أمامى
الكل منهم عابد عاداته ... تالله تلك عبادة الأصنام
أنى أرى حرية ضيعتها ... طالت على سياحة الأقوام

وفى مقطوعات الديوان روح القصة إلى كثير من الدعابة والسخرية . وحسبنا للاستشهاد على هذين اللونين فى شعره أن نشير إلى قصيدته « التخت العليل » ص ٣٠ ، وفيها يصف سريرا من اسرة النوم لعله قد أوى إليه ذات ليلة فى فندق ما فى بلد ما فى أثناء أسفاره الكثيرة ، يقول فى وصفه :

رب تخت سموه تخت منام ... وهو حقاً مكسر للعظام
نصفه ناتىء بدون انتظام ... جامع للوهاد والآكام
ينتهى سفحه بواد عميق ... ضيق الصور خانق للنيام
من ينم فوق ناتىء منه يحسب ... أنه فوق ناتئات السهام
شخر الضيف حين نام فلامو ... ه وما كان يستحق الملام
لم يكن طبعه الشخير ولكن ... عصروه فصاح من آلام
أنة التخت مازجت أنة الضيـ ... ـف فألفن مشجى الأنغام

ظهر حديثا

وكأن الأنين من جانب النخـ ... ـت بكاء على الضيوف الكرام
و كأن الأنين منـه زفير ... أو شكاوى يبثهـا للأنام
قائلا إنني عليل فهل أسـ ... ـطيع حملا لهذه الأجسام

على انى لست مستطيعاً أن أنقل إلى القارئ — بالكثير أو بالقليل من الشواهد — النموذج الذى يتبينون فيه روح الشاعر واضحة ؛ فكل قصيدة من هذا الديوان عنوان بارز على قطعة من نفس شاعره ، فلست أملك إلا أن أنوه به وأدعو إلى قراءته ليعرفوا الشاعر المبدع الحر الانسانى النزعة : أحمد الصافى النجفى .

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

المرأة السورية

في العدد التاسع من مجلة « الحديث » التي تصدر في حلب يتحدث الأستاذ سامي الكيالي عن « المرأة في المجتمع العربي » فيبدأ الحديث عن المرأة السورية ، فيزعم أنها تجمع في شخصيتها وفي الحياة التي تحياها كل عصور التاريخ :

« في مجتمعنا نساء يعشن من حيث التفكير وإدراك أسرار الحياة عيشة امرأة العصر الحجري ، وأخريات كأنهن في عصور البداوة . . . وبعضهن لم يذقن نعيم الحضارة ولا عرفن لونها ولا طعمها ... وقد نتجاوز فنقول عن بعضهن إنهن نصف متحضرات ... ثم إلى هذه المجموعة من النساء المختلفات عقلية وميولا ، نساء يعشن عيشة الباريسيات المتأنقات سواء في بيوتهن أو في المجتمعات ، وقد تبذ المرأة السورية الباريسية في الكثير من المظاهر » .

ثم يمضي الكاتب في حديثه عن المرأة ودعوات المفكرين لتحريرها وما كان لهذه الدعوات من آثار إصلاحية قليلة بالقياس إلى ما لا تزال تتمرغ فيه المرأة العربية من الجهالات والخرافات ؛ ثم يرد فساد الحياة الاجتماعية في البلاد العربية إلى هذا الأصل « لأن المرأة هي التي تزيل غشاوة الحياة وترقى بالأسرة والمجتمع إلى المرتبة التي تتمتع بها المجتمعات الراقية التي أصابت حظاً وافرا من نعيم المدنية وفيض الحضارة » .

قصر بيت الدين

وتفرد مجلة « المكشوف » في بيروت عدداً خاصا في بضع وثلاثين صفحة للحديث عن قصر بيت الدين ، وهو القصر الذي ابتناه في قرية « بيت الدين » سيد الجبل الأمير بشير الكبير منذ قرن ونصف قرن ، مظهراً رائعاً لأبهة الامارة وآية من آيات الفن .

وللأمير بشير في تاريخ لبنان ، بل في تاريخ الشام كله ، بل في التاريخ القريب لهذا الشرق العربي ، فصل بعنوانه يحفل بالأمجاد والمفاخر ، فلا عجب أن يحتفل إخواننا في لبنان بذكره ويحرصوا على تراثه . وليس كل تراثه هو هذا القصر الباذخ ولكنه التراث البارز في مرأى كل ذي عين وفي إحساسه . وكانت حفاوة مجلة « المكشوف » باخراج هذا العدد الخاص عن قصر بيت الدين مظهراً من مظاهر الحفاوة بكل أثر من آثار الأمير بشير الكبير .

وقد جمع هذا العدد بين دفتيه طائفة من الفصول لطائفة من أهل الأدب والتاريخ يتحدث كل منهم في مقاله عن ناحية تتصل بالموضوع الفرد الذي خصص له هذا العدد من « المكشوف » : ففيه حديث بقلم فؤاد حبيش عن ماضي لبنان وحاضره منذ انفصل عن سلطان الدولة العثمانية حتى اليوم . يلي ذلك موجز من بحث للشاعر الأديب يوسف غصوب عن لبنان قبل عهد الأمير بشير ساير فيه لبنان مع الرحالين الفرنسيين من فولني إلى موريس بارس .

وقد اتخذ الشيخ بشارة الخورى رئيس الجمهورية اللبنانية قصر بيت الدين مصيفاً لفخامته فى الصيف المنصرم ، فكان لابد من الحديث عن « رئيس الجمهورية فى قصر الأمير » وهو وصف صحفى دقيق بقلم زهير زهير يتحدث فيه عن القصر وساكنه وبانيه وحاضره وماضيه .

يلى ذلك فصل ممتع بقلم رئيف خورى عنوانه « سهرة مع الأمير فى مجلسه الأدبى » يصف فيه بعض مجالس الأمير بشير منذ أكثر من مائة عام ، فيه طرائف أدبية ممتعة وصور لبعض ألوان الحياة الاجتماعية فى قصر أمير لبنان يوم كان . . .

إلى فصول أخرى لبعض أهل الأدب والتحقيق ، وتنف مترجمة من أقلام الرحالين الذين عرضوا لحديث هذا القصر وأميره ، مثل لامرتين وموريس بارس وغيرهما .

كتاب طريف فى غلاف مجلة ، يتناول حقبة من تاريخ لبنان القريب ، فيه أدب وفن ، وفيه مظهر من مظاهر القومية العربية الواعية .

من أدب العراق

ولا تزال مجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف عنواناً بارزاً من عناوين النهضة الأدبية النشيطة فى العراق . فهذه الأعداد الأولى من سنتها الثامنة تعرض طائفة من المقالات لجماعة من كبار الكاتبين يتناولون فنوناً من العلم والأدب خليقة بالتقدير ؛ فهذا الدكتور مصطفى جواد يعرض لمجموعة صغيرة من الشعر لخمسة من شعراء العراق المتأخرين أو المعاصرين ، فيعقد بينهم موازنة أو « حكومة » على حد تعبيره يذهب فيها مذهبا طريفاً من مذاهب الموازنة . وهذا السيد عبد الحميد الدجيلى يتحدث عن « الغلاة ونحلهم فى العصور المتأخرة » . وهذه مقطوعات من « رباعيات الحبوبى » يحتذى فيها مثال الزهاوى على فرق ما بينهما فى الأداة والفكر . إلى فصول أخرى فى تاريخ العراق الحديث والقديم . وها نحن أولاء نجتزئ من العدد الأول بهذه « الرباعية » الحبوبية التى جعل عنوانها « الشعر لا ينفع الفقراء » :

تقول نفسى : دع ذكر الفقير فما يجديه شعر ولا تغنيه أمثال
فقلت : أتبع من قالوا لنصرته . قالت : وماذا أفادوه بما قالوا ؟
لم يمنح البائسين الشعر فائدة ولم تغير لهم يوما به حال
أما الألى يفهمون الشعر ليس لهم مال ، وأما ذوو النعمى فجهال !

وفى العدد الثانى من تلك المجلة ينشر السيد عبد الكريم الدجيلى الحلقة الثالثة من بحثه « النثر الفنى فى النجف » فيقدم « مقامة » ممتعة للمرحوم الشيخ جواد الشبيبى الأديب العراقى المتوفى منذ قريب ، يرد بها دعوى ادعاها صفيه المرحوم السيد جعفر الحلى الشاعر لدى قاضى النجف ، ويصف الكاتب هذه المقامة بأنها من « نتائج قريحة فياضة فى الأدب العربى لا تقصر عن مجاراة أجود المقامات فى خيالها الخصب ومداخلاتها الأدبية التى تعترض أثناء قراءتها » ثم يورد المقامة بعد ذلك بنصها .

وفى العدد الثالث منها فصل ظريف بقلم صدر الدين أحمد عنوانه « إلى ولدى الذى لم يولد » يخاطب فيه ولده من وراء الغيب :

« عزيزى . . . يؤلمنى أشد الألم أننى لا أدرى متى أنت تولد فأرى فيك بعضى بل جميعى موروثاً لك ومنقولا إليك ؛ فما أنت منى إلا اختصار كائن حى يضم فى حدوده صفوة خصائصى وعصارة مواهبى ومزاياى ، فأنا أنتظر إيجادك من نفسى كما لو كنت أنا سأوجد إيجاداً من نفسك . . . »

أما السبب فى أن ولده ذاك لم يزل فى ظهر الغيب فلأن أباه لم يتزوج بعد ، ولأن أمه لم تزل وراء الحجاب ، وذلك فيما يقول ذنب المجتمع المتعنت الذى حال بينه وبين الزواج لأنه فقير مملق ، فهو يعتذر آسفا إلى ولده من إبقائه إياه مكفوفا فى طيات نفسه ثلاثين سنة لا يرى وجهه ولا يستمع إلى نغمات صوته .

يذكرنى هذا الفصل بحديث قرأته فى مجلة « الرسالة » المصرية منذ بضع عشرة سنة لكاتب معروف فى مصر والعراق عنوانه « أين أنتم يا أحبائى ؟ » . . . كلا الكاتبين خط مقاله تحت وطأة الشعور بأنه « أب بلا ولد ! »

أرأيت الصغيرات يحنون على الدمى حنو الوالدات على مواليدهن ؟ تلك صورة من صور الأمومة الباكرة ، وهذه صورة أخرى من صور الأبوة المعطلة !

ولا يزال السيد خضر العباسى يتحدث فى « الغرى » عن « المخلفات العباسية » وقد أوجزنا لقرائنا فى مثل هذا المكان من العدد الماضى شيئاً مما نشره الكاتب عن آخر سلائل العباسيين فى العراق ، وهو من حفدتهم ؛ وها هو ذا يوالى حديثه عنهم فى مقال عنوانه « مدرسة اسماعيل باشا العباسى فى بغداد » فمن أراد أن يتتبع تاريخ بنى العباس بن عبد المطلب الهاشمى إلى هذا الزمان فليقرأ مباحث السيد خضر العباسى فى مجلة « الغرى » عن أجداده .

تمنيت لو تهيأت إلى مصادر هذا التاريخ الذى يحكيه لأعرف تمام القصة التى بدأت فى خراسان منذ اثنى عشر قرناً ولا تزال حوادثها تتسلسل مع الأجيال حتى اليوم . . .

الأدب المصرى المعاصر

وهذه مجلة أخرى جديدة تصدر فى النجف باسم « الدليل » يصفها صاحبها السيد موسى الأسدى بأنها « شهرية علمية أدبية اجتماعية جامعة » . وبين يدى فى العدد الأول منها مقالة بقلم ابراهيم الوائلى عنوانها « الاتجاه الحديث فى الأدب المصرى » عنى فيها الكاتب بتتبع بعض الألوان فى الأدب المصرى المعاصر ، منذ كان ذلك الأدب مقصوراً على البحث فى إنتاج القدماء وما يتصل به من البحث والوصف والنقد ، إلى أن صار إنشاء يصور الحياة ويستوحى الواقع ويهدف إلى إصلاح الحياة والمجتمع . ويرى الكاتب أن زعيم هذه المدرسة الحديثة التى خرجت بالأدب المعاصر من نطاقه التقليدى المحدود إلى فسيح الحياة هو الدكتور طه حسين الذى دعا إلى حرية الرأى والصراحة فى القول والصدق فى التعبير ، فاستجاب لدعوته طوائف من الشباب يسيرون على النهج الذى شرعه .

أدب العراق أيضاً

على أن هذه النهضة الأدبية التى تصورها مجلات العراق لا تقنع السيد حسين على، فهذا مقال له فى العدد العاشر من مجلة « البطحاء » التى تصدر فى الناصرية — بغداد، عنوانه « حاجتنا إلى الأدباء » يتمنى فيه أن يرى فى العراق طائفة من الأدباء قد استكملوا أدواتهم وعرفوا واجبهم للناس لا لأنفسهم. فهو يرى أن فى حياة العراق اليوم اضطرابا يشمل كل صغيرة وكبيرة ويتناول أموره الخاصة والعامة، وفيها إهمال يشيع فى كل شىء، فى الأسرة، وفى دوائر العمل، وفى الشارع، وفى دور التسلية ودور الثقافة، وفى الريف والحضر على السواء، وهو اضطراب وتقلقل كان من أثر تلك الحرب وما خلفته من أعقاب؛ فهو لذلك يهيب بأدباء العراق أن يحاولوا علاج هذه النقائص بالسعى الحثيث لتصوير هذه الأدواء تصويراً يوقظ الشعور ويبعث الأمل ويجدد الحياة ويحمل على تلمس السبيل إلى الدواء؛ ثم يتساءل منكرا: « ولكن أين هم هؤلاء الأدباء، وما مبلغ تأثيرهم فى مجتمعهم، وأين إنتاجهم الذين يكون به هذا التأثير؟ »

ثم يحاول الجواب عن أسئلته تلك فيقول:

« الحق أننا لا نغالى إذا قلنا إنهم ويا للأسف الشديد قلة لا يعتد بهم، قد سلك كل منهم وجهة خاصة بعيدة فى عالم غير عالمنا أو فى عصر غير هذا العصر. وليس أدل على ذلك من هذا التباين الكبير بينهم — على قلتهم — فى طراز التفكير ولون الأدب وقوة الأثر، فهم بين قديم خشن الأسلوب بطىء التفكير متعصب للماضى، وبين آخر يخوض فى كل شىء ولا يخرج بشىء، وإنما ثمرة كل ذلك هلهلة فى النسج واضطراب فى النهج وبلبلة فى الفكر ... »

المرأة الكردية

أما مجلة « الثقافة الحديثة » التى تصدر عن الكاظمية، وهى مجلة أدب وعلم وفن واجتماع كما تصف نفسها، فان لها ثأراً — كما يبدو — عند أكثر من مجلة من مجلات العراق؛ فهى تخص بضع صفحات من العدد الثالث للنيل من بعض زميلاتها ثمة، وإن لم تخل إلى جانب ذلك من مقالات تستحق أن تقرأ، فهذا مقال القائم مقام محمد شاكر فتاح عن « المرأة الكردية » يتحدث فيه عن شىء من خصائصها فى البيت، وفى ميدان العمل، فهى تحب زوجها وأولادها وبيتها، وتشعر بما عليها للأسرة من تبعات، فتشارك زوجها فى المعمل والمزرعة، وفى الاحتطاب والنقل، وفى البيع والشراء، وقد تقوم بأعمال لا يقوى على مثلها الرجال. وبعد أن يورد أسماء طائفة من الكرديات المعاصرات اللاتى اشتهرن فى ميادين الأدب والفن والثقافة وأعمال البطولة، يقول:

« إن المرأة الكردية تعتمد على نفسها لتحصيل قوتها اليومى أو إدارة اقتصاد العائلة عند ما تتزوج؛ لذا لا تجد المرأة الكردية كبير مشقة فى تجهيز الأسرة بما قسم الله من

الرزق عند فقدانها زوجها أو عائلها . فكم شاهدت من أرملة كردية قد حرمت على نفسها الزواج بعد زوجها الأول وكرست حياتها لخدمة أولادها بالكسب الشريف وعرق الجبين ، بل شاهدت عدة أرامل وقد أصابهن العمى ورغم ذلك قد أبين سؤال الناس أو مد الأكف ، بل قمن ببعض المهن الشاقة وآثرن شظف العيش والحرمان على النعم المتأتية من الذل والخنوع فى خدمة الأثرياء . . . »

حيرتنى يا قارئى

ونكتفى بهذا الحديث عن مجلات العراق لنقرأ للأستاذ عبدالحميد يس فى مجلة « الذخيرة » التى تصدر عن فلسطين مقالا بهذا العنوان يعيب فيه على طائفة من المؤلفين وكثير من الصحفيين أنهم يعمدون فيما يكتبون وينشرون إلى استهواء القراء وترضيتهم وتملقهم ، واشتغالهم بذلك عن صقل أنفسهم وتغذية أرواحهم . فأصبح الكاتب مقوداً لا قائداً ، ومسلياً لا مؤدباً ، وسميراً للتندر لا وزيراً للنصح والارشاد . . . ثم يقول متحدثاً إلى قارئه :

« يبدو لى ، ولعلك أنت أيضاً ترى ، أن الجانب الأكبر مما فى المجلات الأسبوعية يدور حول ثلاث نقاط : المرأة ، والحياة الجنسية ، والجرائم وأبطالها والقيل والقال فى الطبقات العليا من المجتمع ؛ فالمجلة التى لاتزدان بصورة من صور الحسان فى مناسبة ودون مناسبة ، تعتبر رجعية تليق بالسلف الصالح وحده . . . »

ويمضى الكاتب فى نقده ، وفى حيرته فى اختيار ما يرضى القارئ وما لا يرضيه ، حتى ينتهى من مقاله كما بدأ : بين الانكار والرضا ، وبين الحيرة والاطمئنان .

عدالة المستقبل !

وندع هذا اللون لننظر فى لون آخر تقدمه مجلة « الطريق » التى تصدر فى « بيروت » وهى مجلة ذات طابع خاص فى النقد السياسى ، وقد سلخت من عمرها بضع سنين ماضية إلى غاية تدعو لها وتكافح عنها ، ولعلها بالغة غايتها.

وها هى ذى تتحدث فى العدد السابع عشر من سنتها الخامسة عن « عدالة المستقبل » لمناسبة الحكم الذى أصدرته محكمة نورمبرج على من أسماهم منطق المنتصرين « مجرمى الحرب » . ولولا الهزيمة التى نالت جيوشهم لكانوا اليوم أبطالا وسادة ينزلون من الناس منزلة الحفاوة والتكريم . . . ولعل الذين حاكموهم فحكموا عليهم كانوا يومئذ فى عرف العالم هم المجرمين ، لأنهم . . . لأنهم لم يكسبوا المعركة الأخيرة !

هؤلاء وأولئك قد اعتدوا على سلام العالم . وسفكوا دم الأبرياء ، وأيتموا الأطفال ، وأرملوا النساء ، وأخربوا العامر ، وأظمأوا وأجاعوا وأعروا ، إن لم يكن فى هذه الحرب ففى حروب سلفت ، وإن لم يكن فى تلك المعركة ففى معارك أخرى لا تزال ناشبة فى الشرق والغرب . . .

. . . هؤلاء وأولئك سواسية فى الصفة التى وقفت هؤلاء النازيين بين يدى قضاتهم

ثم انتهت بهم إلى يد الجلاد . ولكن إحدى الطائفتين انتصرت فى تلك المعركة فنالت البراءة بانتصارها ، وانهزمت الأخرى فكانت مجرمة بهزيمتها ؛ ولا يزال قانون «اسبرطة» نافذاً على توالى القرون ، ولا يزال الحق هو القوة ، ولا يزال الويل للمغلوب !

وتتحدث مجلة « الطريق » إلى قرائها لهذه المناسبة ، فتصف هذا الحكم الذى حكم به قضاة نورمبرج على مجرمى النازية بأنه « عدالة المستقبل » لا لأنه نال النازيين دون غيرهم من سائر سفاكى الدماء وقتلة البشر ومغتصبى حرية الشعوب ، بل لأنه « لأول مرة فى تاريخ الانسانية لم تعد الجرائم الفردية وحدها هى التى تقع تحت طائلة العقاب ، فقد برهن حكم نورمبرج أن الانسانية قد دخلت مرحلة جديدة من تاريخها ، مرحلة أصبح فيها قتل الشعوب الآمنة فى نطاق الجرائم التى لا تغتفر . ولن يكون بعيداً اليوم الذى تطول فيه يد العدالة الانسانية الجرائم المقترفة ضد السلم وضد الانسانية وجميع المؤامرات التى تحاك ضد السلم والانسانية باعتبارها شروعاً فى ارتكاب الجرم ... ! »

أترى يتحقق هذا الحلم الرائع فتعقد غداً المحاكمات لمجرمى الحرب وأعداء السلام والحرية ، غالبين ومغلوبين على السواء !

ولكن من ينفذ هذا الحكم وفى كل جريمة غالب قوى ومغلوب منهزم ؟

في مجلات الغرب

من لندن

مجلة « سكروتيني » Scrutiny . صيف ١٩٤٦ . يعرض فيها هـ . ا . ميزون H. A. Mason عرضاً مفصلاً لمؤلفات ج.ب. سارتر J.-P. Sartre القصصية وخاصة « طرق الحرية »(١) وهي تريلوجيا أي قصة تدور حول ثلاثة موضوعات كما هو معروف . « سن الرشد » و« التأجيل » ، وسيظهر قريباً « الحظ الأخير »(٢) يحلل الناقد القصتين اللتين ظهرتا سالكا إلى تحليله طرقا مختلفة ولاسيما الطريق التي استخلصها من رسالة لجان بول سارتر عنوانها « الوجودية ثقافة إنسانية »(٣) فيحاول أن يتتبع تقدم فكرة الحرية والفعل الحر . ولا يبتغي هـ . ا . ميزون أن ينقد هذه الكتب نقداً فلسفياً أو اجتماعياً إنما يقول : « حقا ، إذا تعمقنا البحث وأردنا تحليل المؤلفات الأخيرة ثبت لنا أن الموقف الذي اتخذه النقاد هو الملائم ، أعني أن مؤلفات سارتر الأدبية يجب أن تنقد نقداً أدبيا خالصا ، لأن « المادة » الفلسفية فيها يجب أن تقاس وتقدر حسب قيمتها الخاصة ومن حيث هي جزء مقوم لكل أدبي . فعلى الناقد أن يقدر قيمة المؤلف كما تبدو في قصصه ومسرحياته لا أن يتبع الطرق المألوفة في جمع الأفكار الفلسفية ومقارنتها بما هو مقدر في كتب الفلسفة . » وهذا ما يفعله ميزون في بحثه القيم الدقيق . ويقول في ختامه : « إن « الوجودية » من حيث هي موقف في الكتب التي عرضنا لها في هذا المقال « ليست إنسانية » . ونلاحظ أن هـ . ا . ميزون لم يطل كغيره في نقد إسراف المؤلف في التحقيق ، أما بالقياس إلى الأسلوب فهو محتفظ تحفظ الأجنبي .

« لايف أند ليترز » Life and Letters ، سبتمبر ١٩٤٦ . إن المقال الوحيد الذي يستحق الذكر في هذه المجلة هو نداء الشاعر اليوناني نيكوس كازانتزاكي Nikos Kazantzaki ويتبع هذا النداء نبذة عن حياته . ولد الشاعر في كندي Candie في جزيرة كريت Crète سنة ١٨٨٥ ؛ وتلقى علومه في أثينا وباريس وروما وبرلين ؛ وهو يعيش الآن في انجلترا وأهم مؤلفاته تاريخ الأدب الروسي ، وترجمات عن جوته Gœthe ودانت Dante وهوميروس Homère ونيتشيه Nietsche وديوان حماسي قصصي « الأوديسية » Odyssea وهو مكون من ٣٣٠٣٣٣ بيت ، ومسرحيات منها تريلوجية عن بروميثيوس Prometheus . وبعد أن شغل سنة ١٩١٩ منصب مدير عام لوزارة الخدمة العامة استقال في سنة ١٩٢٠ لينصرف إلى الأدب ، وهو الآن يعد كتبا عن الحياة الأدبية في انجلترا بعد الحرب .

فلنوجه النظر إلى نداء نيكوس كازانتزاكي فهو يقول : « إننا نشعر أو نكاد نشعر

---

(١) J.-P. Sartre, *Les chemins de la liberté.*

(٢) *L'âge de raison. Le sursis. La dernière chance.*

(٣) *L'existentialisme est un humanisme.*

انخطرا عظيما يحدق بالحضارة الحديثة » وذلك لأن : « بين نمو الانسان العقلى ونموه الخلق اختلالا فى التوازن والانسجام » مصدره أن « عقل الرجل الحديث قد تطور بسرعة أشد وبحدة أدق من روحه » . ولذلك يرى نيكوس كازانتزاكى أن من الضرورة « أن نحشد مواردنا وأن نحارب الخداع والعداء والبؤس والظلم . يجب علينا ان نرد الفضيلة إلى العالم . » إن حرارة الأسلوب التى تسود تلك الصفحات تدفعنا إلى أن نود منه ما يرى الشاعر من « أن الشعراء الآن كما كانوا فى الماضى يشبهون الأنبياء . »

من باريس

قرأت اليوم لأول مرة مجلة « كونستيلاسيون » *Constellation* وهى الطبعة الباريسية لمجلة عنوانها « فرنسا الحرة » *La France Libre* كانت تصدر فى لندن مدة الحرب . فالطبعة الجديدة للمجلة تختلف عن طبعتها السابقة اختلافا عظيما ، فى منظرها خاصة ؛ والواقع أن هذه المجلة فى شكلها الجديد فاخرة جدا . أما ما تنشره من المقالات ، فمنها ما هو مهم حقا ، وما هو شاحب اللون ، إن صح هذا التعبير ؛ فليست فصول المجلة مستوية كما نرى .

ولننظر إلى بعض هذه المقالات : فى العدد الخامس والستين منها بعنوان : « دفاع عن التجريب » لبريس باران [1] ، مقال يحاول فيه الكاتب أن يبحث عن أسباب القلق المستمر فى فرنسا منذ تحررت . فيرى بريس باران أن سبب هذا القلق هو البربرية ، أو بعبارة أدق هو البربرية فى العالم بعد انتهاء الحرب . فيقول الكاتب : « لقد تجد فرنسا نفسها أمام تهديد البربرية ، وترى أنها إن لم تكن عزلاء فهى ليست مسلحة كما ينبغى أمام هذا التهديد . . . وهى شقية بهذا لا فى جسمها بل فى نفسها . وهى من أجل ذلك تتكلم كثيراً . تقذف بها فى عالم غير واقعى ، فهى لا تعرف فيه نفسها بعد ، وهى تبحث فيه لذلك عن هذه النفس . إن الفرنسيين يشعرون بأن الحقيقة تفر منهم والأخلاق كذلك . فالأخلاق هى سيرة الانسان مع الحقيقة ، بحيث يستطيع أن يسيطر عليها دون أن يعنف بها ، وبحيث يستطيع أن يجعلها قابلة للحياة غير معرضة للفناء . »

ويشتمل هذا العدد على ثلاثة فصول بعضها كتاب بريطانيون ، فالمجلة إذن شديدة الاتصال بالمثقفين الانجليز ، — أوقل إن أردت — إن الكتاب الانجليز هم الذين يعنون بالثقافة الفرنسية . فالمقال الأول بقلم الشاعر الكبير ستيفن سبندر ، عنوانه « مقابلات فى ألمانيا » [2] وهو فصل من كتاب ، سيصدر بعد أشهر ، عنوانه « شاهد أوربى » [3] .

وهذا المقال ذو شأن فيما يتعلق بموقف الحلفاء نحو الألمان وخاصة برأى الروس والأمريكيين فيما يجب أن تكون عليه علاقاتهم بالشعب الألمانى .

لويس ماك نيج : « الكاتب البريطانى

---

(١) Brice Parain, *Défense de l'empirisme.*

(٢) Stephen Spender, *Rencontres en Allemagne.*

(٣) *European Witness.*

والحرب»(١) : « لا يمكن العودة إلى ما بين الحربين . فماذا يكون اتجاهنا فى المستقبل ؟ » هذا هو السؤال الذى يلقيه الكاتب فى أول مقاله . فهو يلاحظ أن الدولية الأدبية «عامل باعث للحياة لا مناص منه ولكنه خلو من تحقيق التوازن وفيه شىء من التصنع . » ثم يذكر تعريف الوطنية الثورية لجورج أورويل George Orwell الذى كان من أبرز المدافعين عن الدولية المركسية وذلك حيث يقول : « إن الوطنية إخلاص بشىء يتغير دائما ونحن نشعر مع ذلك فى بعض التصوف بأنه خالد » . ويقول الكاتب بعد ذلك حين يشير إلى أدب الغد : «سنقتبس موضوعاتنا من الحوادث الراهنة ، ولكن نحول طبيعتها بحيث تمتزج الحقيقة بالرمز . » ويصل لويس ماك نييج مقاله إلى هذه النتيجة : «يجب على انجلترا إذن أن تحتفظ بنفسها ، بل بعبارة أدق ، أن تحقق نفسها . بذلك وحده تستطيع أن تكون عضواً منتجاً فى الجامعة الأوربية الكبرى » .

اما المقال الثالث وعنوانه « بيكاسو فى انجلترا » فقد كتبه هربرت ريد(٢) وهو يحدثنا عن عرض بعض لوحات للمصور العظيم بيكاسو Picasso فى لندن . ويذكر فى دعابة ماكان له من رد الفعل فى الجمهور البريطانى . فيقول مثلا : « إن الجمهور البريطانى يكتشف كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما أن الفن موجود ، وإذا كان قد تجاهله فيما بين ذلك فهو يشعر كل مرة بصدمة روحية . فليس الفن جامداً بل هو يتطور فى سرعة قد يراها الفنان أو الناقد الفنى ، عادية ولكنها تبدو بطبيعة الحال كارثة لمن يدركها كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما . »

وتحقيقا للمظهر الدولى الذى تبدو فيه المجلة يجد القارئ قطعة مترجمة عن اليونانية الحديثة من قصة كتبها إيلياس ڤينيزيس Ilias Venezis ويقدم بيير أماندرى Pierre Amandry (وهو أحد مترجمى القصة) لقراء «كونستيلاسيون» هذا الكاتب اليونانى . وحسبى أن أذكر من هذه المقدمة هذه الأسطر التى يشير فيها إلى ما تأثرت به القصة من العقائد والأساطير ، وذلك حيث يقول : « بعض هذه العقائد والأساطير مسيحى الأصل وبعضها إسلامى ... ولكن أوديسيوس الحديث أضاف إلى مواقف سميه القديم زيارات فى القصور المحدثة . وفى قصصه أحداث دامية تردد أصداء غريبة لألف ليلة وليلة . »

وتختم المجلة بعرض المجلات ثمانى عشر مجلة فى صفحتين ! خصص لكل واحدة منها أربعة أو خمسة أسطر تكفى لتعطينا فكرة شاملة عن تلك المجلات .

« الفكرة » *La Pensée* (عدد ٧)

أبريل ، مايو ، يونيو . وهى مجلة العقليين المحدثين ، وهى فنية ، علمية ، فلسفية . ومن بين لجنتها الادارية بول لانجفان Paul Langevin و ف. جوليو ـ كورى F. Joliot-Curie واتجاه هذه المجلة يسارى متطرف . وفى العدد المذكور ثلاث مقالات عن العالم العظيم باستور Pasteur نشرت بمناسبة العام الخمسين لوفاته . فنقرا فى المقالة الأولى منها بقلم بول لانجفان ما يأتى : «هذا العام الخمسون لوفاة باستور وهو فى آن واحد العام المئوى لبحوثه الأولى ، يتيح لنا أن نذكر شخصية هذا الرجل الذى برع فى فن استنطاق

(١) Louis Mac Neige. *L'écrivain britannique et la guerre.*
(٢) Herbert Read. *Picasso en Angleterre.*

الطبيعة، وتمكن أن يكون فى الوقت نفسه عالما ذا ذكاء خارق ورجلا يمثل عصره تمثيلا ساميا فى موقفه فى مشاكل العلم والحياة.»

أما فى المقال الثانى وعنوانه «مناهج باستور» بقلم فرنان نيتى (١) فيطلق على منهج باستور عبارة «المادية الاستنباطية» (le matérialisme dialectique) إذ يقول: «وأخيراً كان باستور يعرف بالدقة أن تحسين حياة الناس مرتبط ارتباطا وثيقا بمعرفة العالم الحقيق، وفى كل آثاره يتفرع التطبيق العلمى من الأصول النظرية.

فنحن نجد فى كل أعمال باستور البرهنة التجريبية على أكثر أصول «المادية الاستنباطية» ... فليس باستور هو الذى ابتكر «المادية الاستنباطية» بل هى التى تلائم أعمال باستور ملاءمة تامة». والمقال الثالث مقتطفات نشرها بول دوبوى فى «نشرة أصدقاء مدرسة المعلمين العليا» (سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩) (٢) ولخصها سكرتير تحرير المجلة تحت عنوان «باستور فى مدرسة المعلمين» Pasteur à l'Ecole Normale والمشكلة التى يعرض لها فى هذا المقال هى تدين باستور. وهو يلق السؤال الآتى: هل كان باستور كاثوليكياً فى أدق معانى الكلمة؟ وجوابه على هذا السؤال لا يقنعنا.

وفى نفس المجلة مقال عن تونس ومشكلاتها لبيير جورج (٣) ذو شأن كبير للقارئ العربى. وفى مقدمة قصيرة يبسط لنا الكاتب غاية ذلك المقال إذ يقول: «إن الملاحظات الآتية ترمى إلى تبيين أن الضيق الشديد الذى يشكو منه الشعب التونسى لا يرجع إلى قلة الماء فحسب» بل إلى عوامل مختلفة نحاول تحليلها: أولا المشكلة الغذائية وهى مصدر المشكلة الاجتماعية. وحسبى أن أنقل خلاصة ذلك البحث. إن المشكلة كما يراها بيير جورج كانت فى سنة ١٩٣٧ وما زالت مشكلة نظام وتوزيع أكثر منها مشكلة إنتاج. وذلك لأسباب ثلاثة:

ا) الشركات الضخمة للاستعمار.

ب) الاقطاعات العربية الواسعة.

ج) إثقال الملكية الصغيرة بالضرائب المباشرة وغير المباشرة.

ويختم بيير جورج هذا القسم بقوله: «إن الفلاحين المشردين يدفعون إلى نوع جديد من البداوة هو بداوة الجوع واليأس.»

ثانياً، إن حالة العمال يسودها بؤس شديد يعود إلى أساليب العمل وأدواته البدائية.

ثالثاً، المشكلات الأهلية والسياسية. إن أهم هذه المشكلات يرجع إلى الفريقين التونسى والايطالى من السكان. ولندع نحن الناحية السياسية لنصل إلى مشكلة التعليم. فيقول بيير جورج فى هذا الموضوع: «إن فرض الثقافة من طريق لغتين أجنبيتين، الفرنسية والعربية الفصحى، على أطفال لغتهم الأصلية هى اللغة العربية الدارجة التى تمتاز بطابعه الوطنى وتختلف اختلافاً ملحوظاً عن اللغة الفصحى وهى لغة قديمة مقصورة على الأدب دون الاستعمال، وإن الاستعانة على ذلك بكتب ألفت لفرنسا (بالنسبة إلى الثقافة الفرنسية) مغامرة يصعب الخروج منها.»

ويختم الكاتب بحثه هذا قائلا: «إن الحالة فى تونس تتطلب تدابير سريعة وتعديل

---

(١) Docteur Fernand Nitti, *La méthode pastorienne.*

(٢) Paul Dupuy, *Bulletin des Amis de l'Ecole Normale Supérieure* (1938-1939).

(٣) Pierre George, *Problèmes de la Tunisie contemporaine.* Notes de géographie économique et politique.

سياستنا نحو الأهالى . . . إن خيبة الآمال والبؤس من ناحية والطموح الشخصى من ناحية أخرى قد يتكشفان عن نتائج لا تعود بنفع ما على البلاد التونسية . »

La Revue Hommes et Mondes

« مجلة الانسان والعالم » وهى « مجلة العالمين » *La Revue des Deux Mondes* فيما مضى . فى الشهرية الأدبية مقال لتيبرى مونييه عنوانه « مصير القصة » (١) يحاول فيه الناقد المعروف تحليل الأزمة المالية التى تخضع لها القصة ، أو بعبارة أدق « الضعف النسبى للانتاج القصصى فى فرنسا » فيخلص مميزات القصص التى تأثر بها الجمهور تأثيراً ملحوظاً وهى قصص جان بول سارتر Jean-Paul Sartre والبير كامو Albert Camus وسيمون دى بوقوار Simone de Beauvoir فتلك القصص كتبها فلاسفة « ليخدموا بها غاية فلسفية مضمرة » وتصل بهذه الفكرة قصص لويس اراجون Louis Aragon التى « تريد أن تدعو إلى رأى سياسى أو توحى به » . ويلاحظ الكاتب فيما بعد أن تلك الأزمة يضاعفها « نمو عظيم لتأثير القصة الأجنبية ، وخاصة الأمريكية ، فى فرنسا » .

ويرى تيبرى مونييه أن أسباب ذلك النمو هى :

أولا : عنف الهجاء الاجتماعى (جون دوس باسوس John Dos Pasos) (وستاينبيك Steinbeck .)

ثانياً : حدة الملاحظة وتصوير المرئيات .

ثالثاً : امتزاج مذهب التحقيق بالروح الشعرية .

رابعاً : عنف الفن وتوحشه .

خامساً : طرق حديثة لعرض الكوارث المعاصرة .

وبعد أن عرض الكاتب هذه الأسباب يقول :

« نرى إذن أن الأدب القصصى الأجنبى قد يتفوق على الفرنسى لا فى نظر نخبة القراء فحسب بل فى نظر العامة . » وأخيراً يعتقد تيبرى مونييه أنه : « إذا كانت هناك الآن أزمة فى القصة فلعلها عند المؤلفين لا عند القراء . . »

من نيويورك

« الغد » To Morrow اغسطس سنة ١٩٤٦ .

فى هذه المجلة فصول قيمة ، نذكر منها « مدارس الرق فى أمريكا » بقلم سترينجفلو بار (٢) وهو نقد للتعليم فى الولايات المتحدة الأمريكية . يقول الكاتب : « إن الأمريكيين جميعاً يولدون أحراراً ، ولكنهم يتعلمون فى مدارسهم كيف يسيرون سيرة العبيد » . والعيوب التى ينكرها الكاتب هى :

أولا — أن التعليم يثير شغف التلميذ لا بالمادة التى يدرسها بل بالدرس الذى يلقى عليه .

ثانياً — أن التعليم ينمى روح التنافس .

ثالثاً — أن التعليم يثير حاجة التلميذ إلى رضا المعلم عنه .

وهذه الحاجة خصلة من خصال الرق ، لأن « الاعتماد على رضا المعلم يلائم طبيعة العبد وهى الطاعة لارادة سيده دون أن تكون له

---

(١) Thierry Maulnier, *Le sort du roman.*

(٢) *America's Schools for Slaves*, by Stringfellow Barr.

هو إرادة خاصة » . وكل هذه العيوب التى تعلو المدارس فيها إنما تصنع الأغلال لأبناء أمريكا الحرة ، وبعبارة قد تظهر غريبة أن المدارس الأمريكية معاهد لانشاء العبيد لا لانشاء المواطنين الأحرار .

وفى المجلة نفسها مقال فى الفن عنوانه : « ا . ت . ا . هوفمان وقصص الأعاجيب » لبول روزنفلد (١) وفيه تحديد للقصص الذى أنشأه الكاتب الألمانى فى أول القرن التاسع عشر يقول صاحب المقال : « إنه إنتاج خاص متكلف قد أنتجه عقل شديد الذكاء ملتزم مذهب العقليين ، فيه مزاج رقيق عجيب ، مثير من حادثة شخصية مفزعة وأسطورة شخصية . . . غايتها إثارة الشوق وتلوين الحياة بتفريق الحقيقة وإحداث الخوف ». والكاتب يذكر بعض القصاص الذين عالجوا هذا الفن ومن بينهم أبوليوس Apuleius الذى عاش فى آخر الامبراطورية الرومانية وأنشأ قصة « الحمار الذهبى » ومنهم فى القرن التاسع عشر : نوديه Nodier وجيرارد دى نيرڤال Gérard de Nerval وا . ا . بو E. A. Poe وبلزاك Balzac الخ . وفى عصرنا كافكا Kafka .

من كابول

مجلة « أفغانستان » ، العدد الأول (يناير ، فبراير ، مارس ١٩٤٦) هذه المجلة محررة بلغة أجنبية ، وغايتها أن تعرف عن أفغانستان وماضيها ، ومواردها ونموها المتوالى ، وشعبها ومطالبه المشروعة ، كما تقول مقدمة هذا العدد. فلنلاحظ مقالا عنوانه نمو « التعليم العام فى أفغانستان » بقلم ريشتيا(٢) وفيه نتبين نجاح أفغانستان فى أمرين خطيرين : الاحتفاظ بالقديم والاندفاع الذى قوامه العلم الحديث والحضارة المعاصرة . واقرأ فى نفس العدد مقالا عن « أثر الأفغانستان فى الحضارة الاسلامية » بقلم م . غبار وهو بحث قيم حافل يصعب تلخيصه . وتظهر فيه أسماء شهيرة كعمر الخيام خوراسانى ، وابن قتيبة مروزى خوراسانى ، وبشار بن برد الخ ... ولنلاحظ أن بعض الأجانب المقيمين فى أفغانستان يشاركون فى تحرير هذه المجلة التى نهدى إليها تحياتنا وتقديرنا مخلصين .

من القــاهرة

« مجلة القاهرة » La Revue du Caire أكتوبر ١٩٤٦ ، ليست من مجلات الغرب ولكنها تصدر باللغة الفرنسية فى القاهرة وخصص عدد أكتوبر منها لهذه الأسرة العظيمة الخالدة الماجدة أسرة ماسپيرو Maspero . وهو عدد قيم ممتع بالقياس إلى

(١) E.T.A. *Hoffmann and Fantastic Fiction*, by Paul Rosenfeld.

(٢) S. Q. Reshtia, *Développement de l'instruction publique en Afghanistan*.

القارىء المصرى خاصة . وقد كتب فيه بيير جوجيه Pierre Jouguet وإتيين دريوتون Etienne Drioton . وهو تذكار لمولد العالم العظيم ماسبيرو منذ مائة عام . وقد أتيحت لهذا العالم العظيم أسرة تلائم نبوغه وامتيازه . فابنه جان ماسبيرو Jean Maspero قد امتاز فى التاريخ البيزنطى وقتل فى الحرب العالمية الأولى ولما يتجاوز الثلاثين . وابنه الثانى هنرى ماسبيرو Henri Maspero قد امتاز فى الدراسات الصينية وتوفى معتقلا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وسقط ابنه الفتى صريعاً فى ميدان القتال . فالعدد كما ترى مخصص لأسرة عظيمة الخطر بمبادئها فى العلم وتضحيتها فى سبيل الوطن . وتستطيع أن تقرأ فى هذا العدد فصولا ممتعة بقلم الأستاذ بيير جوجيه : تحية لجاستون ماسبيرو ، وإتيين دريوتون — مكانة جاستون ماسبيرو فى علم الآثار المصرية . واقرأ بصفة خاصة مقالين لجاستون ماسبيرو نفسه : أحدهما « الأسواق والدكاكين فى مصر القديمة » وآخر « معبد الأقصر وما يستفاد من حسن زيارته » ومقالا آخر للأستاذ جوجيه عن جان ماسبيرو وشعراً لهذا المؤرخ نفسه ، ومقالا لهنرى ماسبيرو موضوعه « الحياة الخاصة فى الصين فى عصر الهان » ...

ونحن نشارك منشىء المجلة وأعوانه فى هذه التحية وهذا التقدير لأسرة ماسبيرو التى لم تخدم العلم والوطن الفرنسى وحدهما وإنما خدمت معهما مصر .

أمينة طه حسين



قصص من الشرق
حكايات فارسية
كتاب يحمل الى قراء العربية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
الممتازة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة
يحيى الخشاب
حكايات فارسية
دار الكاتب المصري
حكايات فارسية
٢٠
البريد ١٦ مليما
من حولنا
جيل من الناس في أفراحه
يرى كل قارئ في مرآته صورة من
أو صورة من حوله، في إطار
رائع في بيانه وفي
محمد سعيد العريان
من حولنا
قصص مصرية
دار الكاتب المصري
في
ثوب
أنيق
خلاب
٢٥
البريد ٢٠ مليما

مطبعة الكتاب المصرى شركة